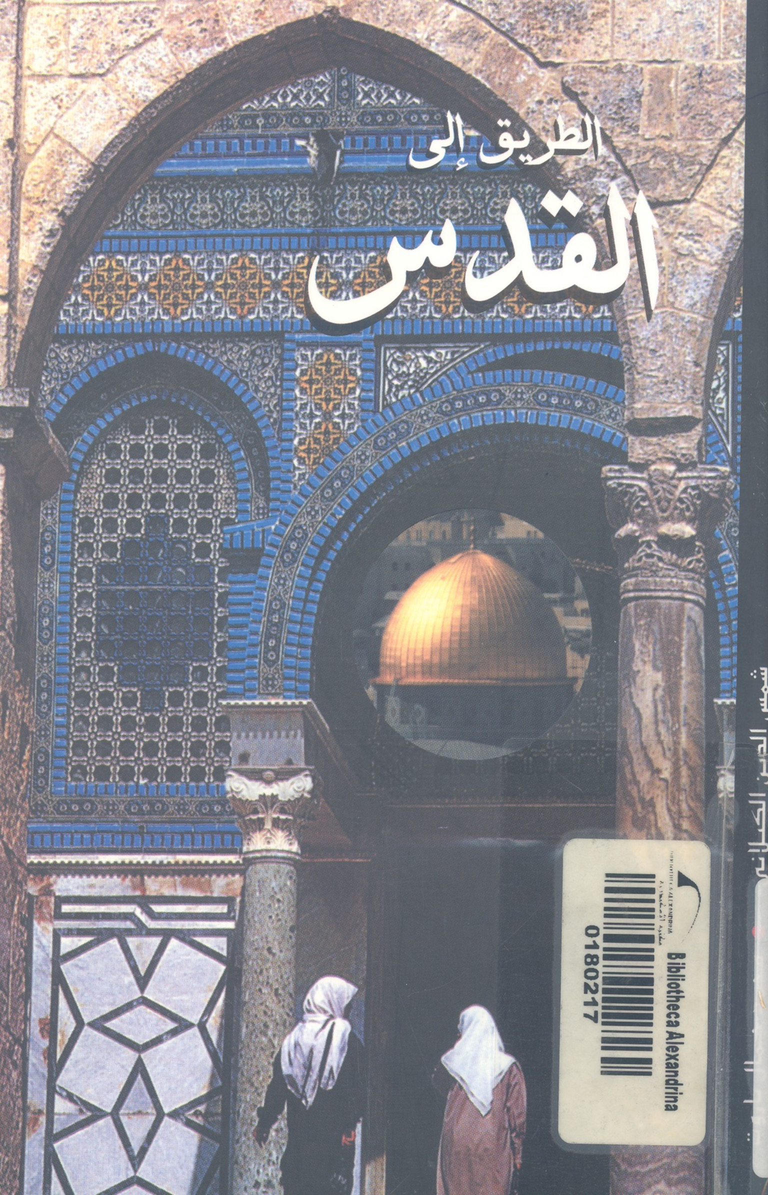

الطريق إلى
القدس

الطريق إلى

القدس

الطريق إلى

القدس

تأليف

شمس الدين الكيلاني

محمد جمال باروت

المحرر العام

د. سلمى الخضراء الجيوسي

تقديـــم

يمثل هذا الكتاب محاولة فريدة من نوعها في كشف موضع القدس في وعي المسلم ووجدانه، الذي يربط ما بين البيت الحرام والمسجد النبوي وبيت المقدس في وحدة قدسيَّة لا تقبل أي انفكاك. ويستقصي الكتاب هذا الموقع على مستوى الأعماق من خلال ما يسمّيه المؤرخون بـ «المدى الطويل» الذي يبدو فيه تاريخ القدس تاريخًا مستمرًا للذات الإسلامية، كما يستقصي على مستوى أدقّ المراحل والأحداث والعهود وأهم الشخصيات التي باتت جميعها جزءًا لا يتجزأ من تاريخ المدينة المقدسة. ورغم كل الاستثارة العاطفية والوجدانية التي نعيشها جميعًا اليوم في قلقنا المشروع على المدينة المقدسة، وتمسّكنا الأزلي بها، فإن الكتاب اعتمد في استقصائه على منهج علمي مركب يستند إلى قاعدة المعلومات التاريخية والرمزية والثقافية، ويستثمر، بشكل فعّال، منهجيّات عديدة تاريخية وأنثروبولوجية ثقافية وبنيوية وألسنيَّة وتأويلية وسيميولوجية تتيح كشف الأبعاد المختلفة والمركّبة لهذه المدينة في وعي المسلم. وقلما نجد هذا التضافر الخصب لهذه المنهجيات في عمل واحد كما نجده في هذا الكتاب الذي نستطيع أن نقدمه كدليل لا غنى عنه أمام كل من يريد أن يتعرَّف على التاريخ الروحي للمدينة المقدسة في وعي الذات المسلمة.

لقد كانت هذه المدينة في التاريخ الإسلامي بؤرة سلام وتعايش ما بين مختلف الأديان السماوية التوحيدية. ويعيدنا الكتاب لنتملّى هذه الحقيقة الراسخة عبر عودةٍ تحليلية إلى قاعدة هائلة من الوقائع والرموز والأحاديث والتفاسير والمصنَّفات التي تدل في مجملها على تغلغل القدس فكرة ومكانًا في عمق أعماق الذات الإسلامية. ويدفعنا هذا الكتاب، في هذه اللحظات المصيرية التي تبدو فيها المدينة المقدسة مهدَّدة، إلى استذكار أنها شهدت منذ الفتح العُمَري الإسلامي الذي لم يرتقِ أيٌّ من غزاة المدينة إلى مستوى عدالته وتسامحه، لحظتين كارثيّتين أو نكبتين في تاريخها هما اللحظة الصليبية المندثرة واللحظة اليهودية الصهيونية المعاصرة التي تمثلها الدولة العبرية، وفي هاتين اللحظتين اللتين يعتبرهما هذا الكتاب من لحظات الخطيئة الكبرى في التاريخ، لم تؤكد الهويتان الصليبية والصهيونية نفسيهما إلا من خلال محاولة تدمير الوجود الإسلامي في القدس، وهدم القدس التاريخية العربية ـ الإسلامية وتغيير شخصيتها تغييراً كليًا، في حين تميَّزت الرؤية الإسلامية للقدس عقائديًا وتاريخيًا بأنها رؤية تسامح وتعايش وسلام ما بين أبناء إبراهيم. لقد حوَّلت جرائم الصهاينة اليوم المدينة المقدسة من مدينة تفيض بثقافة الإسلام والتعايش والمحبة حيث كل شبر فيها يحمل بصمات نبيّ وأصداء ملاك إلى مدينة تفيض بالكراهية والحقد والخوف والضغينة. من

هنا، ليس هذا الكتاب دراسة تاريخية بالمعنى التقليدي بقدر ما هو دراسة تتقصّى بشكل أساسيّ التاريخ الروحي المستمرّ للقدس في حياة المسلم، باعتباره جزءاً من التاريخ من نوع التاريخ التكويني لتلك الحياة وروحها. وكما كانت التهديدات والنكبات التي تعرضت لها المدينة المقدسة في الماضي حافزاً لكي يتكوَّن عندنا «أدب فضائل القدس» - كما يشرح الكتاب - فإن التهديدات الصهيونية الحالية تحفزنا على إعادة كشف ارتباطنا الأبدي الراسخ بهذه المدينة، واستكناه معانيها وجوهرها، فمصير القدس هو، كما كان دوماً، جزء عضوي من مصيرنا.

ويتسق إصدار هذا الكتاب تماماً مع توجهات «المجمع الثقافي» ويشكّل تأكيداً وترسيخاً لما يوليه الوالد المفدّى صاحب السمو رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان من دعم مستمرّ لقضية القدس والحقوق العادلة للشعب العربي الفلسطيني الذي هُو منا ونحن منه، في وحدة لم ينسجها التاريخ وحسب بل تنسجها اليوم وحدة المصير.

محمد أحمد السويدي

أمين عام المجمع الثقافي

تمهيد

يسرني كثيراً أن أقدم إلى القارئ العربي هذا الكتاب الأول من مجموعة الكتب التي نقوم بإعدادها في رابطة الشرق والغرب ـ بروتا حول مدينة القدس ووضعها المأساوي اليوم.

ويسرني... بشكل خاص أن يتبنّى «المجمع الثقافي» في دولة الإمارات العربية المتحدة نشر هذا الكتاب الأول، فالمجمّع الثقافي مؤسسة رائدة تميَّزت برؤيا حضارية شاسعة مكرَّسة لخدمة الثقافة العربية وقضايا العرب الرئيسية في شتى المجالات بما في ذلك دخولها الفريد بالثقافة العربية إلى العالم عبر التقنيات الحديثة. ولذا فإنني أعتزُّ كثيراً أن يقترن جهد مؤسستنا المكرسة لنفس الأهداف بجهد المجمع الثقافي ومسعاه الذكي الشجاع.

إن قضية القدس ذات أبعاد كثيرة روحية وتاريخية وسياسية واجتماعية ودينية ومعمارية وفنية وعلمية، وسوف تغطّي مجموعة الكتب المقدسية التي نعدّها مجمل هذه الأبعاد. ونحن إذ نقدم اليوم البعد الروحي الإسلامي للمدينة المقدسة، فإن في مخططنا ما يقدم بُعدَها الروحي المسيحي كذلك. فمدينة السلام هذه هي المثل الأعلى في التاريخ الإنساني على التعايش الوديع بين الأديان السماوية وعلى التعددية السمحة. وهذا حقيقة تاريخية ذات شأن كبير جداً، ولابد في مناخ الزيف والادّعاءات المضللة من إعادة تأكيدها إلى العالم.

وفي عصرنا الذي أصبح قادراً، عبر تقنياته المتطورة على انفتاح هائل يُقرِّب، لو صحّ انفتاحه، ما بين الثقافات والتجارب الإنسانية الكبرى، يصبح تاريخ مدينة عريقة سبقت إلى التعايش المثمر عبر التعددية الثقافية واللغوية والدينية، تاريخاً عميق المعنى بالنسبة إلى العالم اليوم. وفي تقديمنا لهذا الكتاب وسواه من الكتب التي تنحو منحاه، نحن نؤدِّي خدمتين كبيرتين: الأولى هي خدمتنا لقضية القدس الحرجة المتغلغلة في الضمير، والثانية هي خدمتنا لإحدى قضايا الساعة في العالم. فهذا العالم الذي يقف اليوم حائراً أمام التناقضات الهائلة التي تواجهه والاختيارات الخطيرة التي تطرح نفسها عليه، في أشد الحاجة إلى الأمثلة الحيَّة المستمدَّة من تاريخ الإنسانية لتدفع به من جديد نحو رؤيا أكثر عدالة وإخاء وإنسانية، بدل أن يظل مندفعاً في طريق خطير يستغلّ فيه منطق القوة وحده جميع الإمكانات التقنية المتاحة، ليفسح الطريق نحو هيمنةٍ أحادية الهويَّة تضيع فيها إنجازات الإنسان النبيلة وانتصاراته المتفوقة عبر التاريخ، وهي إنجازات يمثلها تاريخ القدس العربية أعظم تمثيل.

سلمى الخضراء الجيوسي

مديرة مؤسسة رابطة الشرق والغرب ـ بروتا

الفصل الأول

مفهوم الجغرافية المقدسة

تشكل الثقافة بمعناها الأنتروبولوجي الحديث أهم ما يميز السلوك البشري عن السلوك الحيواني، إذ يظهر الإنسان كما يقول الأنكلو - ساكسون كصانع أدوات، فتبدو عندئذ العادات والمعتقدات والمؤسسات تقنيات بين تقنيات أخرى ذات طبيعة ثقافية، أي تقنيات في خدمة الحياة الاجتماعية[١].

ويمثل الفكر الرمزي بعداً من أبرز أبعاد الثقافة وأكثرها ديمومة واستمراراً خارج الشروط التاريخية المحددة التي تكونت أصلاً فيها. وبهذا المعنى تشكل اللغة والشعائر والطقسية محدداً أساسياً من محددات ظهور الإنسان العاقل، إذ نشأت هنا الهموم المتعلقة بما يمكن أن نسميه بـ "الأخرة" على حد تعبير فرنان [٢]. وتنتمي هذه الشعائر برمتها إلى حقل الفكر الرمزي. وقد قامت الأسس التنويرية للحضارة الحديثة على المواجهة ما بين الديني والعلمي،

---

(1) كلود ليفي ستروس، الأنتروبولوجيا البنيوية، ترجمة مصطفى صالح، دمشق ١٩٧٧، ص٤٠٩

(2) جان بيير فرنان، بين الأسطورة والسياسة، ترجمة جمال شحيد، دمشق ١٩٩٩، ص٣٩

وعلى محاولة وضع حدٍ حاسمٍ ما بينهما، وسفهت النظام الرمزي بوصفه جزءاً من الأسطورة. ولعل هذه المواجهة / القطيعة كانت في أصل حضارتنا الحديثة، إذ تميزت هذه الحضارة عن سائر الحضارات النصية الموحاة أو المملاة إلهياً التي سبقتها في أنها حضارة ذاتية المرجع، أحلت الإنسان مكان الله في مركز العالم. إلا أنه يمكن القول في منظور علم الأديان الذي يستثمر كما هو معروف شبكات منهجية متعددة تقع ما بين التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع، أن حضارة الحداثة المعلمنة هذه قد أنتجت عبادات علمانية من نوعٍ وضعي يمكن تسميتها بـ" الديانات البديلة" . ويعني ذلك أن عملية نزع السحر عن العالم بلغة ماكس فيبر أو علمنته الجذرية قد أنتجت سحراً جديداً يقع في إطار الفكر الرمزي وفضاءاته المقدسة، فما من مجتمع دون "قبةٍ سماوية تظلله" سواء كان أصلها المؤسس إلهياً أم وضعياً. وإذا كانت " الأديان البديلة" قد نافست الدين نفسه كما عرفه الإنسان وحاولت خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين بشكل خاص أن تحل محله، فإن هذا الدين على مختلف أشكاله ظل المجال الأكثر رمزية للإنسان، أو المجال الأكثر نشاطاً وديمومة، الذي يضطلع بما يمكن تسميته أنتروبولوجياً بالرمز الناشط.

تمثل الجغرافية المقدسة ركناً أساسياً في الفكر الرمزي الديني، إنها نوع من تجسيد له على الأرض. ولقد اشتركت جميع الأديان والثقافات في تقديس المكان وتعيين منطقة مرجعية مقدسة فيه. ويؤلف مجموع هذه المناطق المتنوعة المختلفة، التي تحضر فيها أشكال متعددة للقداسة، ما يعرف بالجغرافية المقدسة. ويعود وضوح وشمول أولى هذه المناطق إلى الثورة الحضرية الأولى في العالم، أو ما يعرف أنتروبولوجياً بـ "فجر السلالات" . إذ ساهمت رؤية الإنسان الشعائرية للمقدس أساساً في تكونها. ولقد كان الدنيوي مغموراً بالمقدس، وأخذ الوجود الاجتماعي في هذا الانغمار شكل التجربة الدينية، وشكل الإيمان بجغرافية مقدسة محددة جزءاً من العقيدة الدينية نفسها. فلم يكن العالم في هذا الإطار أرضاً محايدة بل أرضاً تحمل بعض أماكنها رسالة مقدسة خاصة. وقد أضفى ارتباط الإنسان الرمزي بهذه الأمكنة رؤى متعالية عليها، كان فيها مظهر المكان يعبر عن شيء رمزي علوي يتجاوزه، وكانت حركة التجاوز قائمة دوماً على أنها صعود إلى مستوى جغرافي أعلي يقع في منطقة متوسطة ما بين السماء والأرض، أو أنه أكثر قرباً إلى السماء من بقية الأمكنة. إن بعض العواميد ورؤوس الجبال تكتسب هنا معنى رمزياً مشبعاً بالدلالة

على هذا التعالي والتجاوز.

إن التصور المقدس المعين يُظهر في خريطة الكون موقع الجليل / العادي، السماوي / الأرضي، الحار / الفاتر، الحميمي / المبتذل، ويتجسد هذا الموقع تبعاً لعلاقة الجماعة المؤمنة بهذه الثنائيات في فضاءات جغرافية مقدسة محددة. وتتسم العلاقة الإيمانية عموماً مع هذه الفضاءات بالجلال والغبطة والخشوع والانبهار والخشية والتطهر بقدر ما تصف علاقتها بالأمكنة الأخرى بالعادية.

إن الثنائية التي تحكم كل ذلك هي ثنائية المقدس والعادي بلغة مرسيا إلياد. ولعل هذا ما يفسر أن الجماعة المؤمنة تخص مكانها المرجعي المصطفى بكل صفات القداسة، وتضفي معنى رمزياً خاصاً على كل شجرة أو جبل أو مدينة أو زاوية في المكان، يرتفع فيه من مكان عادي إلى مكان مقدس مشبع بدلالات جوهرية متعالية كثيفة، ويتحول هذا المكان بكل بساطة إلى وسيط رمزي أساسي يلبي حاجات رمزية روحية عليا للإنسان. إن حجراً من الحجارة يغدو مقدساً لأنه قد أصبح مشبعاً بالدلالة، إما لأنه يجسد القداسة أو أنه يملك جزءاً من الروح القدسي، فيختلف عن محيطه بامتلائه بالدلالة والقيمة[٣].

---

(3) ميرسيا إلياد، أسطورة العود الأبدي، ترجمة حسيب كاسوحة، دمشق ١٩٩٠، ص ١٠

إن المكان المقدس يضع المؤمن في " مركز العالم"، لأنه يمثل نموذجاً سماوياً. وبهذا المعنى يبني الإنسان مدنه المقدسة وأماكن عبادته تبعاً لنموذج سماوي. وتحول الجماعة المؤمنة من خلال هذا التقديس فضاءها الكوني المليء بالغموض والفوضى واللامعقولية إلى فضاء متسق محدد المعنى والمعقولية والغاية، ليس في حد ذاته بل عبر حدود قداسته، وهو ما تكرسه الجماعة المؤمنة طقسياً في علاقتها الروحية مع أمكنتها المقدسة. وهي تختبر في هذه الطقسية أعمق المشاعر جلالاً وغبطة. إنها تختبر غبطة الشعر، وأبدية الزمان، ورعشة الجلالة، وأما خارج هذه الأمكنة فإن الأرض تغدو عادية. هناك عالم الشعر وهنا عالم النثر، هناك العلوية وهنا الرتابة والاعتيادية والدنيوية. ويعود هذا أساساً إلى أن علاقة الجماعة المؤمنة بخريطتها المقدسة ليس لها علاقة بالخريطة العلمية للعالم، إذ ترسم صورة حياتها الباطنية، وحين تحول الأرض المقدسة بمدنها وغياضها وجبالها إلى رموز لحياتها الروحية، تمس المصادر العميقة والمبهمة لآلام الإنسان ورغباته العلوية، فإنها تطلق المشاعر الروحية من عقالها، لأن الرمز الديني يدخل العابد أو المؤمن العادي في العالم الآخر المقدس عبر توسطاته الجغرافية، في حين أن الكائنات الاستثنائية المصطفاة، مثل الأنبياء والمتصوفة

والقديسين، تستطيع أن تتصل عرفانياً بالله على أساس الكشف الداخلي أو المعرفة القدسية الداخلية المباشرة. ومن هنا تشغل أماكن وقبور وذخائر هذه الكائنات المصطفاة مرتبة معينة عليا في النظام الرمزي المقدس، وتضطلع نفسها بدور وسيط ما بين المؤمن والله، يتقرب بواسطتها المؤمن إلى الذات العلوية.

لقد احتلت الجغرافية المقدسة بمحوريها التركيبي الأفقي Syntagmatique والتواردي العمودي Paradigmatique مرتبةً أولى في القداسة، إذ تمثل نصاً من نوع مميز، يقوم على علاقات حضور هي الوضعية الجغرافية الحسية نفسها، وعلاقات غياب هي الوضعية الروحية أو الميتافيزيقية التي تتجاوزها، وتعطيها مضموناً يتخطى وضعيتها الحسية الجغرافية المحدودة إلى وضعية مقدسة. تكون الجغرافية المقدسة بهذا المعنى نقطة تواصل ما بين الله والمؤمن، ما بين اللامرئي والمرئي، ما بين الغياب اللامحدود خارج الزمان والحضور المحدود بالزمان. وتتيح هذه الوضعية الحسية – التجريدية المركبة للجماعة المؤمنة أن لا تعيش في العالم نفسه عالماً مختلفاً عن العالم العادي وحسب، بل وأن تعيش في " مركز العالم" أو في "سرته".

تنفرد القدس في إطار هذا المنظور بما يمكن تسميته بالجغرافية

المقدسة العليا للعالم، التي ترتبط بها الحياة الروحية للأديان السماوية التوحيدية الكبرى الثلاثة وهي: اليهودية والمسيحية والإسلام، أي ترتبط بها أرواح مليارات المؤمنين المتنوعين قومياً ولغوياً وثقافياً. وتتميز الرؤية الإسلامية للقدس عن الرؤيتين اليهودية والمسيحية، في أنها تدمج الجغرافيتين المقدستين اليهودية والمسيحية في مجالها المقدس، وتعترف بهما لاهوتياً. وفي منظور مدى استيعاب كل دين من الأديان الثلاثة التوحيدية الكبرى لمقدسات الاخرى والاعتراف الديني بها فإن الإسلام يبدو الأكثر استيعاباً وانفتاحاً وشمولية، وهو ما يتأسس على اعترافه بمصداقية "أهل الكتاب" أي اليهودية والمسيحية، واعتبار نفسه خاتمة الأديان التوحيدية. وقد انعكس ذلك في الممارسة الفعلية حين تسنى لكل دين من هذه الأديان الثلاثة أن يكون بمنزلة الحاكم السياسي للقدس، ففي حين حَرم الصليبيون على المسلمين دخول القدس أو ممارسة شعائرهم المقدسة فيها، وصادروا الأماكن الإسلامية المقدسة، لا سيما منها قبة الصخرة والمسجد الأقصى والحرم الشريف، وقاموا بـ"تنصيرها"، كما قام اليهود بعد احتلالهم القدس في حزيران 1967 بمحاولة لم تتوقف حتى الآن عن تهويدها المنهجي بكل الوسائل الممكنة، فإن العرب المسلمين قد تركوا بيت

المقدس حراً ومفتوحاً أمام المسيحين واليهود على حد سواء، وتولوا حماية مقدساتهم في مواجهة بعض المتعصبين المسلمين، وعوضوا باستمرار عن أي أذى يلحق بها نتيجة مرارة الصراع السياسي في تلك الحقب. بل استبطن المسملون الجغرافيتين المقدستين اليهودية والمسيحية في جغرافيتهم، انطلاقاً من أسس عقيدية صرفة تقوم على اعتراف الإسلام بالأنبياء الذين سبقوه، وبتصديقه لما جاء في اليهودية والمسيحية أو عند " أهل الكتاب"، وفق مفهومه للأصل الإبراهيمي التوحيدي الذي تعود إليه هذه الديانات، وما رأى من انحراف عنه في ممارسة اليهود والمسيحيين له. ومن هنا شاركوا اليهود والمسيحيين احتفالهم بقداسة القدس، والاهتمام الخاص بخدمتها وعمارتها والتبرك بفضائلها، إلى درجة أنه تكوَّن هناك أدب إسلامي كامل يمكن تصنيفه تحت عنوان "فضائل القدس" الذي كان تعبيراً عن قداسة القدس وليس سبباً لهذه القداسة الراسخة في الضمير الإسلامي منذ البعثة النبوية. وهو الأدب الذي سنتتبع تكونه وتطوره عبر المراحل التاريخية المختلفة وسنحاول في هذا الكتاب أن نتتبع موقع القدس في المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة، ونوعيته في إطار ترابط أطراف هذه المنظومة، التي يقوم المعتقد الإسلامي على أن الله قد وصل فيما بينها إلهياً منذ البدء

وقبل خلق العالم، مبينين أن قدسية القدس ليست أمراً عابراً أو ثانوياً في المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة بل طرفاً جوهرياً مكّوناً لها.

الفصل الثاني

الحقبة النبوية

موقع القدس في الجغرافية الإسلامية المقدسة

يصدر الإسلام في تصوراته الكبرى لجغرافيته المقدسة عن نظرة توحيدية عميقة لتاريخ الأديان، ترى أن هناك وحياً ألهياً واحداً يتجسد في عدة أديان توحيديه، وفي مقدمتها اليهودية والمسيحية. ويشكل الإسلام في مفهومه عن نفسه ذروة اكتمال هذه التجسدات وخاتمتها في آنٍ واحد. من هنا أعاد استيعاب الأديان التي سبقته ضمن رؤيته التوحيدية، إذ يؤكد القرآن أن الوحي الذي أنزل على النبي محمد هو متمم لرسالة من سبقه من الأنبياء كلهم، بمن فيهم أنبياء " أهل الكتاب" أي أنبياء اليهود والمسيحيين. ولعل هذا ما يفسر إيمانه بهؤلاء الأنبياء وتصديقهم وعدم التفريق بينهم ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾ (البقرة: ١٣٦). ولقد كانت هذه الرؤية التوحيدية في صلب التصور الإسلامي لجغرافيته المقدسة، إذ دمج قدسية القدس التي تشكل مركز الجغرافيتين المقدستين اليهودية والمسيحية

في صلب جغرافيته المقدسة، بل إن تعظيمه للأديان السماوية ولكل الأنبياء: إبراهيم وداوود وسليمان وموسى وعيسى... إلخ قد زاد من قدسية القدس لديه [١]، فاندرجت إلى الأبد في منظومته الجغرافية المقدسة، ولعل ذلك ما دفع لوران غاسبار إلى القول: " كيف نعجب إذا أصبحت القدس أورشليم مدينة إبراهيم وداوود وسليمان وزكريا ومريم ويسوع عزيزة على المسلمين" [٢].

غير أن التفحص في موقع القدس في المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة يدل على أن مكانتها تتخطى حدود التبجيل أو الاحترام إلى التقديس.

١- وحدة الإصل الإبراهيمي

وحدة الجغرافية الإسلامية المقدسة :

تقوم المنظومة الجغرافية الإسلامية على الوحدة، وتتألف هذه الوحدة من ثلاثة أطراف متدرجة القداسة إلا أنها متكاملة ومترابطة وهي: مكة (البيت الحرام) والمدينة (المسجد النبوي) والقدس (المسجد الأقصى والصخرة الشريفة). وينبني ترابط

(1) الشيخ أحمد كفتارو، مسلمون مسيحيون معا من أجل القدس، (ندوة)، مجلس كنائس الشرق، بيروت ,١٩٩٩ ص ,٣٨

(2) لوران غاسبار، تاريخ فلسطين، دمشق ١٩٦٩، ص ,٥٥

أطراف هذه المنظومة ووحدتها على رؤية الإسلام التوحيدية للأصل الإبراهيمي الواحد الذي تعود إليه الأديان السماوية: اليهودية والمسيحية والإسلام. إذ قدم الإسلام نفسه بوصفه عودة باليهودية والمسيحية إلى هذا الأصل ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا* قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ (البقرة: ١٣٥) ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾(الحج:٧٨). لقد كان اليهود والمسيحيون أو " أهل الكتاب" تبعاً لذلك في الرؤية الإسلامية مسلمين إبراهميين[٣]، ومن هنا يعتقد المسلمون أن إبراهيم بعد أن " هاجر من بلدته مجبراً، ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط وزوجته، قد استقر في بلاد فلسطين.. وأخذ يدعو الناس إلى الإيمان بالواحد الخالق، وإلى اعتناق الإسلام" وهو ما تدل عليه الآية القرآنية ﴿ما كان إبراهيم يهودياً، ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً. وما كان من المشركين﴾(آل عمران:٦٧)، وقد ذكر القرآن إبراهيم (ع) في ٢٧ سورة من سوره. وقد ترتب على هذه الرؤية أن نظر الإسلام إلى أنبياء اليهود والمسيحيين على أنهم بالدرجة نفسها أنبياء الإسلام، ومن هنا شملت رؤيته للجغرافية الإسلامية المقدسة المجال الجغرافي المقدس لهؤلاء الأنبياء،

(3) مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الأول، القسم الأول، بيروت ١٩٦٥،ص ٤١٥,

وأصبحت أطراف هذه الجغرافية: مكة (البيت الحرام) والمدينة(المسجد النبوي) والقدس (المسجد الأقصى والصخرة) موصولة فيما بينها إلهياً. إذ ينتسب محمد نفسه بوصفه نبياً إلى العائلة النبوية الإبراهيمية، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب انتهاءً بعيسى المسيح وأمه مريم. وليست وحدة الجغرافية الإسلامية في أطرافها الثلاثة في المنظور الإسلامي إلا تجسيداً لوحدة هذه العائلة واستمراريتها في رسالة التوحيد.

بهذا المعنى يضع الإسلام نفسه في أول الوحي الإلهي وخاتمته في آن واحد. ولعل هذا الأصل الإبراهيمي التوحيدي المؤسس هو الذي يفسر المعتقد الإسلامي بأن إبراهيم أبو الجميع هو الذي أعاد مع ابنه إسماعيل بناء المسجد الحرام في مكة ,وأن الله أمر يعقوب بعمارة بيت المقدس وكذلك سليمان، ثم يأتي الدور المحمدي ليكمل ما بناه هؤلاء ويرفع معانيه إلى حدودها القصوى. ويعني ذلك أن التصور الإسلامي للمكان المقدس يرى أن وحدة المسجد الحرام في مكة وبيت المقدس في القدس قائمة في الأصل الإبراهيمي الأول للتوحيد. ولم يكن معراج النبي وفق ذلك التصور من الصخرة في بيت المقدس إلى السماء إلا تأكيداً نهائياً أو تمامياً للعرى المقدسة ما بين مكة والمدينة والقدس، وما بين هذه

مجتمعة وبين السماء. وعلى هذه الأرض المقدسة سيتداخل الزمني والقدسي، الراهن والأبدي، المتغير والثابت، الزائل والمطلق على نحو خارق. وقد جعل ذلك من قدسية القدس اليهودية والمسيحية قدسية إسلامية في إطار المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة، من دون أن ينتقص الإسلام في ذلك من خصوصية القدس لدى المسيحيين واليهود الذين لم يشاطروه رؤيته للأصل الإبراهيمي الأول للتوحيد وأنه ذروته وختامه. ومن هنا لا تشكل القدس مجرد مكان " عزيز" أو عرضاً في الجغرافية الإسلامية المقدسة بل أصلاً تكوينياً فيها.

لقد أكد الإسلام بهذا المعنى قدسية القدس، إلا أنه أعاد بناءها في منظومة تتمحور حول البيت الحرام والمسجد النبوي وبيت المقدس في وحدة قدسية لا تقبل الانفكاك. يأخذ البيت الحرام، الذي يقول المعتقد الإسلامي إن إبراهيم أبو الأنبياء هو الذي بناه، موقع المحرق في هذه المنظومة، ويتبادل في التمثيل الإسلامي للقداسة الأولوية المركزية مع بيت المقدس (المسجد الأقصى والصخرة الشريفة). فالأساسي في هذه المنظومة هو الوحدة ما بين عناصرها التكوينية الثلاثة، وهذا هو على وجه الضبط ما يجعل منها منظومة أو نسقاً مترابطاً يحيل على بعضه ويتكرر فيما بينه،

إذ أن هناك في التصور الإسلامي وحدة عميقة للجغرافية المقدسة تربط ما بين تلك العناصر الثلاثة بعروة واحدة، بحيث لا يستطيع التخيل الإسلامي لقداسة المكان أن يستغني عن أي منها. فجميع هذه التجليات هي في قلب التصور المقدس نفسه. ولن يمكن الاستغناء عن أي عنصر من هذه العناصر الثلاثة بدون أن يفقد الإسلام أحد معانيه، بل أحد أصوله العقيدية المعروفة إسلامياً بأصول الدين وهي غير أصول الفقه أو التشريع. بكلام آخر تنتمي قداسة القدس إلى المجال العقيدي الإسلامي نفسه وليس إلى مجرد مجاله الفقهي. ولقد عبر عن ذلك ماسينيون بشكل آخر حين قال: إن الإسلام لا يمكنه أن يقبل أن تُنتزع من يده القدس من دون إنكاره للرسول[٤] فعلى حد تعبيره " ما من مسلمٍ مؤمن يقبل بالتنازل عن الخليل ولا عن القدس خصوصاً، وهي ثالث الحرمين (بين مكة والمدينة) إن أورشليم القدس هي نقطة تلاقي الإسلام الذي ولد في الصحراء العربية وتلاحمه مع الإنسانية العالمية. إنها منطلق وبرهان صحة مشيئة الله إلى إبراهيم الذي دفع محمداً أثناء إسرائه في المعراج نحو هذا " الهيكل السحيق" الذي كان آنئذٍ في تفكيره " محراب زكريا" . وقد أصبح فيما بعد المسجد الأقصى،

---

(4) يواكيم مبارك، القدس – القضية، ترجمة مهاة فرح خوري، بيروت ١٩٩٦، ص٧٩.

كما أنه سيصبح قبلة الإسلام الأخيرة، ويحل بذلك محل مكة (الكعبة) في آخر الزمان، فلا يمكن الإسلام أن يتنازل عن الأقصى من دون التنكر للنبي" [5].

لقد تعود المسلمون على رؤية جغرافيتهم المقدسة في تجليات ثلاثة مترابطة وإن كانت متراتبة، البيت الحرام في مكة أولاً، والمسجد النبوي في المدينة ثانياً، والمسجد الأقصى ثالثاً. ويعني ذلك على مستوى آليات الفكري الرمزي أن هذه التجليات هي "صور" لـ"معنى" جوهري واحد. ولعل هذه الآلية الرمزية الإسلامية تفسر أن جميع الأماكن الإسلامية المقدسة الأخرى قد اكتسبت قداستها من مدى وقوعها في هذه المنظومة الجغرافية المقدسة المركزية الثلاثية الأطراف، التي تعكس التصور الإسلامي لوحدة الأصل الإبراهيمي في الأديان السماوية الثلاثة، وستعبر محاكاة جميع الأضرحة والأبنية المقدسة في العالم الإسلامي لهذه المنظومة رمزياً عن وحدة تلك المنظومة، وتبادل أطرافها الوظائف المتكاملة فيما بينها.

---

(5) المصدر نفسه، ص ٧٩-٨٠.

٢- مظاهر المنظومة
الجغرافية الإسلامية المقدسة

أ - القدم الإلهي :

تتجلى وحدة هذه المنظومة في العديد من المظاهر أو العلامات الرمزية الدالّة، وسنعرض هنا بعضها على أن نفصّله حين نتناول موقع القدس الخاص فيها. ولعل ما يميز أطراف هذه المنظومة أنها تشترك جميعاً بـ " القَدم" ، أي أن قدسيتها سابقة لأي بناء شيّد عليها، إنها بهذا المعني ذات أصل سماوي، إذ أن الحجر الأسود (الكعبة) والصخرة الشريفة (المسجد الأقصى) هما في الرؤية الإسلامية من السماء، وقد ربطتها رمزية الإسراء والمعراج مع السماء بعرى روحية تامة، كما أنهما تبادلتا موقع القبلة بالنسبة للمسلمين. وهذا التبادل تعبير عما يوحدهما. وتؤكد الأحاديث النبوية المنسوبة إلى النبي هذا " القدم" ، فيروى عن عائشة زوجة النبي أنه قال " إن مكة بلد عظَّمه الله، وعظَّم حرمته، خلق مكة وحفَّها بالملائكة قبل أن يخلق شيئاً من الأرض يومئذ كلها بألف عام ووصلها بالمدينة، ووصل المدينة ببيت المقدس، ثم خلق الأرض

(6)ضياء الدين المقدسي، فضائل بيت المقدس، تحقيق مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق ١٩٨٥، ص ٤٨، قارن مع شهاب الدين المقدسي، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق احمد الخطيبي، بيروت، دون تاريخ، ص ١٣٢.

كلهـا بعـد ألف عـام خلقـاً واحـداً"(٦). ومما له دلالتـه عـلى عـمق قداسـة بيت المقـدس في الوعي الروحـي الإسلامي، الحـديث الذي رواه أبو ذر الغـفـاري حـيث قـال " قـلت لرسـول الله (ﷺ): أي مـسجـد وضع على وجـه الأرض أولاً؟ قال: المسـجـد الحـرام، قلتُ: ثم أي؟ قـال: بيت المقـدس، قلتُ: كـم بينهـمـا؟ قـال: أربعـون سنة"(٧). لا يمكن تـفـسـيـر المدة الزمنيـة الواردة في هذا الحـديث بمقـاييس المفـهـوم العـقـلاني للزمن بـل بمقـاييس المفـهـوم الرمـزي القدسـي له، لأن الدين وإن اشتـمل على مدونات "مكتـملة" تنظم الحياة الدنيوية هو في منظور علـم الأديان المجال الأعلى للرمزية. إن الأربعين سنة تنتـمي هنا إلى زمنٍ قـدسي روحـي، ولكـن حـتى في منظور مـا نفـهـمـه اليـوم من الزمن، وهو مـا يـفـهـمـه المسـلم العـادي منـه، فـإن بنـاء المســجــد الأقـصـى بعــد أربعين سنة مـن بناء الله للمسـجد الحرام يـشير إلى قـرابة نسبيـة خاصـة مـا بين المسجـد الحرام والمسجـد الأقصى كـمـا يشـير إلى تراتبيـة نسـبيـة، هي سـمـة الفـكـر الرمـزي الديني في رؤيـة مـقـدساته، بمـا فـيـه بطبـيـعـة الحـال الفـكـر الرمـزي الإسلامي. ففـي حـديث مـسند إلى عـبـدالله بن عـمـر أن "

(7)ياقوت الحموي، معجم البلدان، جمع عبد الإله نبهان، السفر الأول، دمشق، ص ٣٧٩ ــ ٣٨٠ . قارن مع شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ١١٣

بيت المقدس بنته الأنبياء وعمرته. وما فيه موضع شبر إلا وقد سجد عليه نبي أو قام عليه نبي أو قام عليه ملَك"(٨). كما يروى عن الصحابي أبي ذر الغفاري " أن الملائكة بنوا المسجد الحرام قبل آدم (ع) بألفي عام، وكانوا يحجونه"(٩). وأما المسجد النبوي في " المدينة" فنفهم من ابن إسحاق المروية الرمزية في بنائه، وهي في فهم المسلم المؤمن ليست مروية رمزية بل حدثاً تم بشكل مادي بالفعل، فيتحدث ابن إسحاق " أن رسول الله (ﷺ) ركب ناقته، وأَرخى لها الزمام، فجعلت لا تمرُّ بدار من دور الأنصار إلا دعاه أهلها إلى النزول عندهم. وقالوا له: هلم يا رسول الله، إلى العَدد والعُدة والمنعة، فيقول لهم (ﷺ): خلُّوا زمامها فإنها مأمورة، حتى انتهى إلى موضع مسجده اليوم. فبركت على باب مسجده، وهو يومئذ مِرْبَدٌ (= موضع يجفف فيه التمر) لغلامين يتيمين من بني النجار، في حجر معاذ بن عفراء.. فلما بركت لم ينزل عنها رسول الله (ﷺ)، ثم وثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله (ﷺ) واضع لها زمامها لا يثنها به، ثم التفتت خلفها ثم رجعت إلى مَبْركها أول مرة، فبركت فيه ووضعت جرانها، ونزل عنها

---

(8)الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١ ،دون مكان، دون تاريخ، ص٢١١

(9)المصدر نفسه، ص ٧ –٨

رسول الله (ﷺ) ... وسأل رسول الله (ﷺ) عن المربَد لمن هو؟ فأخبره مُعَاذ بن عفراء وقال: هو ليتيمين لي، سأرضيهما، فأمر رسول الله)(ﷺ) أن يبنى مسجداً، ونزل على أبي أيوب، حتى بنى مسجده ومساكنه" [١٠]، وتولى بناء مسجده بنفسه مع أصحابه من المهاجرين والأنصار. وما يستفاد من هذه الرواية المطولة التي أوردناها عن بناء المسجد النبوي وهو العنصر الثاني المقدس في المنظومة الجغرافية الإسلامية الثلاثية أن الله هو الذي قاد الناقة إلى الموقع الإلهي المقدس في المدينة قبل أن يبنى عليه المسجد، فكّرس هذا البناء وإقامة النبي فيه ودفنه في كنفه قداسته القديمة.

نستنتج من ذلك آليه من أهم آليات الفكر الرمزي الإسلامي في علاقته بالجغرافيا المقدسة، وهي الآلية التي يمكننا تلخيصها بأن قداسة المكان سابقة على البناء فيه، فما ينطبق على المسجد النبوي هنا ينطبق على بناء البيت الحرام والمسجد الأقصى حسب الرؤية الإسلامية. وتدل علامة حسية أودعها الله أمره على هذا

---

(10) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة١٩٦١، ص٣٩٦ قارن مع ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وعبدالحفيظ شلبي وإبراهيم الأبياري، القسم الأول، القاهرة ١٩٥٥، ص ٤٩٥-٤٩٦

المكان الأصلي المقدس، وهو ما تشير إليه مروية عن الصحابي سعيد بن المسيب" أمر الله داوود أن يبني مسجد بيت المقدس، قال: يا رب وأين أبنيه؟ قال: حيث ترى الملك شاهراً سيفه، قال: فرآه في ذلك المكان. فأخذ داوود وأسس قواعده ورفع حوائطه"(١١) إلى أن بناه سليمان. ثم نجد نفس الإرشاد العلوي الإلهي عند بناء إبراهيم وابنه إسماعيل للبيت الحرام، إذ نقرأ عند الطبري رواية مطولة عن الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب يقول فيها " إن الله عز وجل أوحى إلى إبراهيم (ع) أن ابنِ لي بيتاً في الأرض. فضاق إبراهيم بذلك ذرعاً (لأنه لا يعرف أين يبنيه)، فأرسل عز وجل السكينة، وهي ريح خجوج (= حارة)، ولها رأسان، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة، فتطَّوت على موضع البيت كتطوّي الحية، وأمر (الله) إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة. وبنى إبراهيم، وبقي حجر، فقال إبراهم (لابنه اسماعيل): ابغني حجراً، فانطلق الغلام يلتمس له حجراً، فأتاه به، فوجده (أي وجد أباه إبراهيم) قد ركَّب الحجر الأسود في مكانه. فقال: يا أبت، من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتاني به من لم

---

(11)أبو الفرج بن علي الجوزي، فضائل القدس، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، بيروت ١٩٧٩، ص٧٤

(12)الطبري، المصدر السابق، ص ٢٥١

يتكل على بنائك، أتاني به جبريل من السماء" [١٢].

وبهـذا المعنى فإن قـداسـة المكان الإسلامي سـابقـة لبنائه من أطراف المنظومة الجغرافية الإسلامية الثلاثية المقدسة، أي المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى. لكننا في حالة المسجد الحرام والمسجد الأقصى نلحظ أن البناء أقدم من البناء الذي شيده إبراهيم في مكة، ومن بناء سليمان في بيت المقدس، إذ بنتهما الملائكة حتى قبل أن يخلق الله آدم. إن إبراهيم رفع القواعد فقط، وهذا هو مدلول الاية القرآنية ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾(البقرة: ١٢٧)، ويورد الشعراوي [١٣] نصاً قرانياً يثبت ذلك، ويرى أن إبراهيم " يخاطب ربه" قبل أن يرفع قواعد البيت ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾(إبراهيم: ٣٧)، وهو مـــا يعني أن الرواية الإسلامية تفترض قدم البيت بالقياس إلى الفترة الزمنية التي أقام فيها إبراهيم قواعده. وينطبق الأمر نفسه على المسجد الأقصى، ففضلاً عن الحديث المسند إلى أبي ذر والذي أوردناه سابقاً من أن

(13)محمد متولي الشعراوي: الإسراء والمعراج، إعداد وتقديم رياض السيد، بيروت، دون تاريخ، ص ٣٤-ر٣٦

الملائكة بَنت المسجد الحرام قبل آدم بألفي عام، والحديث الذي يشير إلى أن الفارق الزمني بين بناء المسجدين: الحرام والأقصى هو أربعون عاماً، فإن هناك حديثاً طويلاً رواه البخاري عن ابن عباس في قصة هاجر وابنها إسماعيل، جاء فيه من الأدلة الإسلامية ما يشير إلى أن إبراهيم لم يبنِ الكعبة وإنما رفع قواعدها وحسب [١٤].

يتوصل ابن حجر في كتابه " الفتح" في ضوء ذلك إلى أن بناء المسجد الأقصى قد تم في عهد آدم، كما يقول الخطابي، يشبه أن يكون بعض أولياء الله قد وضعوا بناء المسجد الأقصى قبل داوود وسليمان بزمن طويل، في حين يذكر ابن هشام في كتابه " التيجان" أن آدم لما بنى الكعبة، أمره الله بالسير إلى بيت المقدس وأن يبنيه، فبناه ونسك فيه [١٥]. ويفسر الإمام أبو العباس القرطبي ذلك بأنه يجوز أن يكون الملائكة هم الذين بنوا بيت المقدس بعد أن بنوا البيت المعمور أي " البيت الحرام" في مكة بإذن الله [١٦]. ويعتبر شهاب الدين المقدسي[١٧] أن ما ذهب إليه القرطبي يوافق

---

(14)محمد محمد حسن شراب، بيت المقدس والمسجد الأقصى، دمشق ١٩٩٤، ص ٢٩٨-٢٩٩

(15)المصدر نفسه، ص ٣٠٠

(16)الحنبلي، المصدر السابق، ص ٨

(17)شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ١٣١

الآية ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين﴾ (آل عمران: ٩٦). نفيد من ذلك كله أن هناك رؤية إسلامية منظومة لموقع القدس في الجغرافية الإسلامية المقدسة، تقوم على وحدة أطراف هذه الجغرافية إلهياً وقبل أن يخلق الله الكون. ويفهم من ذلك في ضوء منظور علم الأديان، أن المرحلة النبوية قد رسخت في الخيال الإسلامي حقيقة أن بقعة المسجد الأقصى هي البقعة التي أوحى الله للأنبياء باختيارها للعبادة منذ آدم على الأقل، وأن الله قد اختارها منذ خلق الخلق كي تكون معبداً مقدساً للمؤمنين عبر وحدة لا تنفصم مع مكة والمدينة. بل إن القدس في الجغرافية الإسلامية المقدسة هي المكان المبارك الذي أنقذ الله فيه البشرية، وهو ما يرى بعض المفسرين أن الآية القرآنية ﴿ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ (الأنبياء: ٧١)، تعني بالأرض المباركة هنا القدس، أي المباركة قبل إبراهيم وداوود وسليمان [١٨]. إذ تشير بعض جوانب الرؤية الإسلامية أن النبي سليمان قد بنى بيت المقدس على أساس قديم، كما بنى إبراهم الكعبة على أساس قديم [١٩]. وإذا كانت المنظومة الجغرافية الإسلامية تضع القدس في إطار ترابطية أطرافها في الموقع الثالث

(18) شمس الدين السيوطي. إتحاف الأخصى بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق أحمد رمضان احمد، القسم الأول، القاهرة ١٩٨٢، ص ٩٦.

(19) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ٧٤.

بعد البيت الحرام والمسجد النبوي، فإنها تشير وفق حديث نبوي رواه البخاري ومسلم والنسائي أي ما يعتبر في إطار صحاح الحديث النبوي في الإسلام، إلى بناء المسجد الأقصى بعد المسجد الحرام [٢٠]. بل إن بناء البيت الحرام في وادٍ غير ذي زرع يشبه في الرؤية الإسلامية الرمزية بناء القدس وسط سلسلة جبلية ومحيط صخري قاحل، كما أن مكان كل منهما مكان إلهي قدسي منذ القدم. ولقد جعل ذلك كله القدس في صلب المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة، ورؤية المسلمين الأبدية لتلاحم أطرافها في وحدة إلهية لا تنفصم.

ب - نموذج سماوي

يصدر المسجد الحرام والمسجد الأقصى بهذا المعنى عن نموذج سماوي أصلي. فيروي الإمام الغزالي في كتابه " إحياء علوم الدين" عن الترمذي حديثاً نبوياً" في الخبر أن الحجر الأسود ياقوته من يواقيت الجنة، وأنه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق به يشهد لكل من استلمه بحق وصدق" كما يروي ابن عباس " الحجر الأسود من الجنة [٢١]، ويروى عن عبدالله بن عمر قوله: "

---

(20) شراب، المصدر السابق، ص ٢٦٩-٢٧١.

(21) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، المجلد الأول، دمشق ١٩٩٤، ص ٢٨٨.

إن جبريل (ع) نزل بالحجارة من الجنة، وأنه وضعه حيث رأيتم، أنكم لم تزالوا بخير ما دام بين ظهرانيكم فتمسكوا به ما استطعتم" [٢٢]، وأنه قال في موضع آخر " الركن والمقام من الجنة" [٢٣]، لعل هذه السردية تعكس آليات الفكر الديني الرمزي في نظرته الجوهرية إلى القدس، وملء المادي بالروحي، والحسي بالمجرد، والنهائي باللانهائي، والزمني باللازمني، أو بالدلالة كما يعبر إلياد. ولا نفهم نحن اليوم الدلالة في نظرية الرمز أبعد من ذلك، فما هو رمز هو نفسه ما يسميه الفلاسفة مماثلة Analogie، وكما يفضي كل رمز إلى علاقة مجهولة فإن المماثلة تفضي إلى المطلق أو الله. إن التيولوجيا تغدو في هذا المنظور الرمزي للرمز شعراً أصفى يتكلم بلغة مجازية عليا هي لغة العلم الروحي للمكان أو للمرئي أو للملموس. وفي ضوء هذه الرؤية لرمزية المكان الحسي أو دلالته، نرى أن الرؤية الإسلامية ترى أن صخرة بيت المقدس تصدر عن نموذج سماوي، مصدره الجنة، كما هو المسجد الحرام تماماً، فيروي ابن عباس أن الرسول قال: " من أراد أن ينظر إلى بقعة من بقع الجنة فلينظر إلى بيت المقدس "كما روى الصحابي أنس بن مالك " أن الجنة لتحن شوقاً إلى بيت المقدس، وبيت المقدس من جنة

---

(22) أبو الوليد الأزرقي، أخبار مكة، ج١، مكة ١٩٦٥، ص٣٢٥

(23) المصدر نفسه، ص ٣٢٣

الفردوس " (٢٤)، ويروي ابن عباس أيضاً " أن صخرة بيت المقدس من صخور الجنة" ، كما يروى الصحابي عبادة بن الصامت أن النبي قال " الصخرة، صخرة بيت المقدس على نخلة، والنخلة على نهر من أنهار الجنة، وتحت آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران تنظمان سموط أهل الجنة إلى يوم القيامة" (٢٥)، " وعن علي بن أبي طالب، قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: سيد البقاع بيت المقدس، وسيد الصخور صخرة بيت المقدس" (٢٦) ويروي وهب عن الرسول " قال الله تعالى لصخرة بيت المقدس فيك جنتي وناري، وجزائي وعقابي" (٢٧) كما يروي حديث مسند إلى عبدالله بن عمر بن الخطاب " أن الحرم محرم في السموات السبع بمقداره في الأرض، وأن بيت المقدس مقدس في السماوات السبع بمقداره في الأرض" (٢٨) وفي هذا الاتجاه يروي أحمد بن محمد الوليد الأزرقي عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: "إن الله تعالى بعث ملائكة. فقال: ابنوا لي بيتاً في الأرض تمثال البيت المعمور وقدره، وأمر الله تعالى من في الأرض من خلقه أن يطوفوا

---

(24) السيوطي، المصدر السابق، ص ١٠١

(25) المصدر نفسه، ص ١٣٠

(26) الحنبلي، المصدر السابق، ص ٢٠٩ قارن مع السيوطي، المصدر السابق ص ١٣٢

(27) السيوطي، المصدر نفسه، ١٣٢

(28) المصدر نفسه، ص ١٠١

به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، وهذا كان قبل خلق آدم" [٢٩].

لقد أكثرنا من هذه الشواهد كي نشير إلى أن للمسجد الحرام والمسجد الأقصى في الرؤية الإسلامية ما يجسدهما في السماء بل إن حجرهما (الحجر الأسود والصخرة الشريفة) هو حجر سماوي، يلاحم ما بينهما ضمن تصور إسلامي لمكان مقدس واحد . وتحافظ الرمزية الإسلامية في ذلك على اتساق رؤيتها لجغرافيتها المقدسة مهما كان الانفعال الرمزي حاراً، فيرتبط انفعالها بأحد عناصرها بآليات منظومتها الرمزية التي ترى الحجر الأسود في الكعبة والصخرة الشريفة حجراً سماوياً في إطار رؤية إبراهيمية لتاريخ الأديان السماوية . ليست القدس ومكة في الوعي الرمزي الإسلامي تبعاً لذلك مكانين منفصلين، بل مكاناً مقدساً واحداً في منظومة مقدسة توحد بينهما، أي تجعل كل واحد منهما محايثاً Immanece للآخر أي مباطناً له في علاقة تكوينية لا تنفصم . فتراتبية أطراف المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة، والتي هي سمة من سمات الفكر الرمزي الديني كله، لا تنفي أبداً هنا أن مكة تبطن القدس في داخلها كما أن القدس تبطن مكة .

---

(29) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ١٣٤

ولقد بلغ من عمق تجذر هذه الجغرافية المقدسة في الوعي الرمزي الروحي للمسلمين أن بعض المفسرين قد فسروا بعض الآيات القرآنية في ضوء وحدة تلك الجغرافية نفسها، ويرى هؤلاء أن الله رفع تلك الأماكن وجمعها إجلالاً وتكريماً في آية واحدة، وهي آية ﴿ والتين والزيتون * وطور سينين* وهذا البلد الأمين ﴾(التين: ١ -٣). ويفسر أبو هريرة ذلك في أن التين هو طور سينا (حيث كلم الله موسى) وأن الزيتون يرمز إلى مسجد دمشق، وأن الزيتون هو مسجد بيت المقدس، وهذا البلد الأمين يعني مكة المكرمة" [٣٠] ، كما يروى عن أبي هريرة نفسه " أربع من مدائن الجنة، مكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس" [٣١]. نلمح هنا توسيعاً نسبياً لحدود الجغرافية الإسلامية المقدسة، غير أنه يتضمن كله وحدة المكان المقدس الإسلامي وعلو مكان القدس فيه. ولعل تفسير التين والزيتون وطور سينين يتم هنا ليس في ضوء المنهج البياني العربي الإسلامي الذي يقف عند ظاهر النص بل في ضوء منهجٍ عرفاني باطني يضع علاقة رمزية خفية ذات معنى إلهي ما بين الكلمة الإلهية في القرآن والمكان المقدس، وهو منهج متجانس مع الطبيعة

---

(30) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، تهذيب وترتيب الشيخ عبدالقادر بدران، ج١، بيروت ١٩٧٩، ص ١٩٧-١٩٨، قارن مع أبو الفداء بن كثير، البداية والنهاية، ج٩، بيروت - الرياض، ١٩٦٦، ص ١٥٤

(31) الحنبلي، المصدر السابق، ص ٣٠٣

الرمزية للجغرافية الإسلامية المقدسة، والتي هي أقرب إلى البنية الرمزية الديناميكية لطبيعة اللغة الشعرية العليا التي تخاطب البنيات العميقة الدفينة في المؤمن وتتجذر فيها، مجذرةً القدس في العصب الروحي الإسلامي، فيما يمكن تسميته ببلاغة المقدس.

ج- القدس ومكة : تبادل موقع القبلة

يمثل تبادل مكة (البيت الحرام) والقدس(المسجد الأقصى) دور "قبلة" المسلمين مظهراً من أهم مظاهر وحدة القداسة الإسلامية التي تربط مكة مع القدس. إن مكة هي القبلة التي يوجه المسلمون وجوههم نحوها أنى كانوا لإقامة الصلاة. وقد كانت القدس قبلتهم الأولى إلى أن نزل الوحي الإلهي وفق المعتقد الإسلامي بتوجيه القبلة شطر المسجد الحرام. ولعل تعديل اتجاه القبلة من القدس إلى مكة يجد تفسيره في الرؤية الإسلامية التي ترى أن المسجد الحرام هو أول ما بناه الله قبل الخليقة ثم وصله ببيت المقدس. من هنا تعبر هذه الرمزية عن الوحدة البدئية الجوهرية الإلهية ما بين المسجدين الحرام والأقصى في أن الكعبة ومكة والمدينة ستؤوب يوم النشور إلى بيت المقدس، فتزف الكعبة

بجميع حجاجها إلى بيت المقدس، وتزف جميع مساجد الأرض إلى بيت المقدس (٣٢). ووفق حديث مروي عن كعب " لا تقوم الساعة حتى يزور البيت الحرام بيت المقدس فينقادان إلى الله جميعاً، وفيهما أهلوهما والعرض والحساب ببيت المقدس" (٣٣). بل إن القدس في الرؤية الرمزية الإسلامية قد كانت قبلة جميع الأنبياء " فلم يبعث الله منذ هبط آدم إلى الأرض نبياً إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس" (٣٤).

لقد كان المسلمون في بدء الدعوة الإسلامية يؤدون الصلاة ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين قبل غروبها على ملة إبراهيم، مستقبلين بيت المقدس" (٣٥) ، إذ وفق حديث رواه ابن إسحاق عن عائشة " افترضت الصلاة على رسول الله (ص) أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين" (٣٦) ، وتشير بعض الأحاديث إلى أن النبي في هذه الركع كان يجمع في صلاته ما بين القبلتين، إذ يذكر ابن

---

(32) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص ٣٧٧ - ،٣٧٨

(33) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص٢٢٠، قارن مع إسحاق موسى الحسيني، عروبة بيت المقدس، ١٩٦٩، ص ،٧٩

(34) المقدسي، المصدر نفسه، ص ،٢١٤ قارن مع عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ص ١٧١-،١٧٢

(35) محمد الحبش، سيرة رسول الله، دمشق ١٩٩٣، ص،٤٣

(36) ابن هشام، المصدر السابق، ص ،٢٤٣ قارن مع ابن كثير، المصدر السابق، ج،٣

عباس " كان رسول الله (ﷺ) يصلي وهو بمكة، نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه، وبعدها هاجر إلى المدينة ستة عشر شهراً، ثم صُرف إلى الكعبة" [٣٧] ، ولما هاجر إلى المدينة لم يمكنه أن يجمع بينهما فصلى إلى بيت المقدس أول مقدَمه المدينة، واستدبر الكعبة سبعة عشر شهراً، إلى رجب في السنة الثانية للهجرة" [٣٨] وهو ما نقرأه في سيرة ابن هشام من أن القبلة صرفت عن بيت المقدس في تلك السنة امتثالاً للآية ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾(البقرة: ١٤٤) [٣٩].

لقد كان بيت المقدس بهذا المعنى أولى القبلتين عند المسلمين، وما يزال وصفه لدى أي مسلم حتى اليوم كذلك. وقد جمع النبي في الطور" المكي" الأول ما بينه وبين البيت الحرام (الكعبة)، ورسخ في المخيال الرمزي الإسلامي أن جميع المدن والأماكن المقدسة ستؤوب في نهاية العالم إليه. إن نقل القبلة من القدس إلى

---

(37)المقدسي، المصدر السابق، ص ٥٤، قارن مع ابن كثير، المصدر نفسه، ص ٢٥٣،

(38)ابن كثير، المصدر نفسه، ص ٢٥٣،

(39)ابن هشام، المصدر السابق، ص ٥٥٠،

مكة لم يغير من مكانة القدس في المنظومة الرمزية الإسلامية، غير أنه أعطى مكة أفضلية نسبية، لا يعلمها وفق منطق الفكر الرمزي الإسلامي إلا الله، وإن كنا تاريخياً نرى في ذلك رمزاً ساعد المسلمين على تكوين هويتهم الإسلامية التوحيدية المميزة حين أداروا ظهورهم لتقاليد أسلافهم الوثنية، فكانت القدس بالنسبة للمسلمين رمزاً حيوياً للإحساس بالاستمرارية والقرب من أهل الكتاب، بصرف النظر عن مدى استعداد اليهود والمسيحين للاعتراف بذلك [٤٠]. إذ أن هناك كثيراً من الآيات القرآنية التي تتحدث عن علاقة الأنبياء، ولا سيما داوود وسليمان وعيسى بأمكنة العبادة. وحين يجل القرآن هذه الأمكنة فإنه يوضح بذلك ارتباط الأنبياء وعلاقتهم المقدسة بها [٤١]. وعلى الرغم من مركزية مكة في المنظومة الجغرافية الإسلامية، فإن النبي صلّى في البيت الحرام، وتلا القرآن فيه، إلا أنه أمر المسلمين ألا يتوجهوا يومئذ نحو الكعبة في مكة في صلواتهم بل نحو القدس، ليظهر تميز الإسلام عن العقائد الوثنية التي كان البيت الحرام يمتلىء بنصبها وتماثيلها.

---

(40) كارين أرمسترونغ، القدس: مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر، ومحمد عناني، القاهرة ١٩٩٨، ٣٧٩,

(41) محمد مصطفى الباش، القدس بين رؤيتين، دمشق - بيروت، ١٩٩٧، ص ١٠٥-١٠٦,

لقد كانت مكة حينئذ ملوثة حسب الرؤية الإسلامية بالأوثان، فكان توجه المسلمين نحو المركز الروحي لأهل الكتاب أي القدس علامة على التوجه نحو العقيدة الإبراهيمية الأصلية، وعلامة على استمرار دين الوحي بها. ومن هنا استمر النبي بعد هجرته إلى المدينة بالتوجه في صلاته نحو بيت المقدس، وعندما أقام جامعه الأول في المدينة المنورة، وكان يعمل بيديه في إقامته، جعل القدس قبلته، ولم تتغير وجهة المحراب في مسجده إلا عندما أعيد بناؤه في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك [٤٢].

وتذهب بعض جوانب التفسير الإسلامي لذلك إلى أن النبي قد اصطدم بموقف يهود المدينة، الذين واجهوه بالعداوة، وما زاد في الموقف تعقيداً امتناعهم عن المساهمة في معركة بدر ضد المشركين، ناقضين بذلك العهد الذي قطعوه على أنفسهم للرسول، فأحدث ذلك على حد التعبير الإسلامي ألماً شديداً لدى المسلمين [٤٣]. ويقول السيوطي في ذلك أن النبي " لما قدم المدينة والجمع بين القبلتين فيها متعذر، صلى إلى بيت المقدس تألفاً

(42) سولانج أوري، ملاحظات تاريخية في القدس الإسلامية في أعمال مارغريت فان برشيم وسولانج أوري، تعريب عطا الله وهبة وشوقي شعث وسلامي حسن، دمشق ١٩٩٤، ص ٣٠.

(43) المصدر نفسه، ص ٣٠.

لليهود، فلما رآهم على غيهم لا ينزعون، تحول إلى الكعبة" (٤٤)، فصار النبي يقلب وجهه في السماء ويسأل الله أن يأذن له بالتوجه إلى البيت الحرام" (٤٥) إلى أن نزلت عليه الآية القرآنية بذلك، ولقد وصف البعض تغيير القبلة بأنه أكثر إيماءات الإسلام إبداعاً، إذ كان ذلك التغيير علامة على عودة المسلمين إلى عقيدة إبراهيم الأصلية قبل انقسامها نتيجة تشرذم اليهود والمسيحيين في طائفتين متناحرتين، ومثّل محاولة لاستعادة وحدة مفتقدة، يمثلها البيت العتيق (البيت الحرام) الذي أعاد بناءه إبراهيم المسلم الحق (٤٦) وفق المعتقد الإسلامي. وانطوى ذلك على تأكيد الإسلام بأنه لن ينحني لأي من الديانات القائمة بل لله وحده، ويقول القرآن في ذلك ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون* من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون * قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين* قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾(الأنعام: ١٥٩-١٦٢).

---

(44) السيوطي، المصدر السابق، ص ,١٨٣

(45) الحبش المصدر السابق، ص ,١٤٠

(46) آرمسترونغ، المصدر السابق، ص ,٣٧٧

د- جلال القدس وسموها

لقد قام التصور الإسلامي على الوحدة الإلهية الأصلية ما بين الكعبة وبيت المقدس، ومن هنا لم يغير نقل موقع القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، من قداسة بيت المقدس في الإسلام، بل يرى هذا التصور أن القبلة ستعود في آخر الزمان إلى بيت المقدس الذي بنته وفق حديث مسند إلى ابن عباس "الأنبياء وسكنته الأنبياء، ما فيه من موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبي أو أقام فيه ملك" [٤٧] إن بيت المقدس هو هنا أحد ثلاثة بيوت مقدسة لا تُشَدُّ " الرحال" إلا إليها، فيروي أبو هريرة عن النبي قوله " لا تُشدُّ الرحالُ إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى" [٤٨] ، بل يكتسب المؤمن الذي لا تدفعه سوى الصلاة إلى المسجد الأقصى وظيفة تطهير المؤمن من الذنوب وعودته إلى النقاء، فيروي عبدالله بن عمر عن النبي قوله "إن سليمان وداوود (ﷺ) لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثة: سأل الله عز وجل، حكماً يُصادق حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء

(47) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص ٣٧٩.

(48) شرح جلال الدين السيوطي، سنن النسائي، ج٢، القاهرة، دون تاريخ، ص ٣٧. قارن مع أبو عبدالله البخاري، صحيح البخاري، ج٢، القاهرة ١٣٨٧ هـ، ص ٣٢٤.

المسجد (الأقصى) أن لا يأتيه أحد لا ينهَزُه (= لا يدفعه) إلاّ الصلاة فيه، أن يخرجه عن خطيئته كيوم ولدته أمه" [٤٩].

ويذهب الخيال الرمزي الإسلامي في تصوره للوحدة الجوهرية ما بين بيت المقدس والبيت الحرام أن " سفينة نوح طافت بالبيت الحرام أسبوعاً، ثم طافت ببيت المقدس اسبوعاً، ثم استقرت على الجودي، إبراهيم خليل الرحمن" [٥٠]. ولعل جلال القدس في الرؤية الرمزية الإسلامية يتجلّى في أن هذه الرؤية تهب بيت المقدس قيمة معنوية تبدو وكأنها تسمو على قيمة المسجد النبوي، رغم أن ترتيب بيت المقدس في المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة يأتي في المرتبة الثالثة، وعن عمران بن حصين قال: " قلت يا رسول الله ما أحسن المدينة، قال كيف لو رأيت بيت المقدس. فقلت: أهو أحسن؟ فقال النبي (ﷺ) وكيف لا يكون وكل من بها يزار ولا يزور، وتُهدى إليه الأرواح ولا يهدى روح بيت المقدس إلا إلى الله، الذي أكرم المدينة (=يثرب) وطيِّبهَا بي، وأنا فيها حي، وأنا فيها ميت، ولولا ذلك ما هاجرت من مكة، فإني ما رأيت القمر في بلد قط إلا وهو بمكة أحسن، وقال كعب: لا تقوم الساعة حتى يزور البيت الحرام بيت المقدس.

---

(49) النسائي، المصدر نفسه، ص ٣٤

(50) السيوطي، المصدر السابق، ص ١٧

وقال كعب: إن الله ينظر إلى بيت المقدس كل يوم مرتين، وقال باب مفتوح من السماء من أبواب الجنة ينزل منه الحنان والرحمة على بيت المقدس كل صباح حتى قيام الساعة" [٥١] ومن هنا يذهب الحديث القدسي المنسوب إلى الله ذاته أنه " قال لبيت المقدس أنت جنتي وقدسي وصفوتي في بلادي" [٥٢]. ولعل هذا ما جعل الرؤية الرمزية الإسلامية تهب قيمة خاصة للإقامة في بيت المقدس، وما قد يفسر اختيار كثير من المسلمين الحياة في جواره والموت فيه، إذ يروي حديث مسند إلى علي بن أبي طالب " قال لصعصعة: نعم المسكن بيت المقدس، القائم فيه كالمجاهد في سبيل الله، وليأتين على الناس زمن يقول أحدهم ليتني تبنة في لبنة من لبنات بيت المقدس" [٥٣] وهذا التشوق للاندماج الإسلامي في حجر بيت المقدس، والتحول إلى تبنة في لبناته، يصدر عن تشوق للاندماج فيه بما هو حجر سماوي مقدس، أي الدخول في مجاله الدلالي المقدس الأسمى المشبع بالمعنى الإلهي، ما دامت الرؤية الإسلامية ما تنفك عن التكرار المتواتر بأن كل شبر في بيت المقدس هو مقدَّس [٥٤]. إن الإقامة في بيت المقدس

(51) المصدر نفسه، ص ٩٩-١٠١.

(52) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ٩٥، قارن مع الباش، المصدر السابق، ص ١١٦.

(53) الباش، المصدر نفسه، ص ١١٧.

(54) الحنبلي، المصدر السابق، ص ٢٠٦.

تكتسب إذن مزية مقدسة تسند أصلها في الرؤية الرمزية الإسلامية إلى الحديث النبوي نفسه، فيروي الإمام أحمد بن حنبل، الذي ينسب إليه المذهب "الحنبلي" ، عن ذي الأصابع " قال: قلت، يا رسول الله، إن ابتلينا بعدك بالبقاء، أين تأمرنا، قال: عليك ببيت المقدس، فلعله أن ينشأ لك ذرية يغدون إلى ذلك المسجد ويروحون" (٥٥) . بل إن الحج إلى البيت الحرام مركز الجغرافية الإسلامية المقدسة انطلاقاً من بيت المقدس يكسب المؤمن تطهيراً من ذنوبه وآثامه، وهو ما يذهب إليه حديث رواه أبو داوود وابن ماجه " من أهلّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر الله له ما تقدم من ذنوبه وما تأخر" (٥٦) فبيت المقدس هو أحد البيوت المقدسة الثلاثة في الإسلام التي تكتسب فيها الصلاة إلى الله قيما مضاعفة، تحسب للمؤمن في آخرته في الجنة، وهو ما يحدث عنه علقمة عن عبدالله بن عمر عن النبي أنه قال " لله ثلاث أملاك: ملك موكل بالكعبة، وملك موكل بمسجدي، وملك موكل بالمسجد الأقصى" (٥٧) وعن أبي الدرداء أن الرسول(ﷺ) قال ما مفاده " الصلاة في المسجد الحرام بمائة

---

(55) الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج٤، القاهرة ١٣١٧ هـ، ص ,٦٧

(56) الحنبلي، المصدر السابق، ص ,١٤٣ قارن مع شراب، المصدر السابق، ص ,٣٣٧

(57) ضياء الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ,٨٩

الف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة" (٥٨).

نحن نرى بوضوح أن هذه الأحاديث برمتها تنبني على وحدة الجغرافية الإسلامية المقدسة ما بين أطرافها الثلاثة: البيت الحرام ثم المسجد النبوي ثم المسجد الأقصى، غير أن علينا أن نرى هذه التراتبية في إطار وحدة المنظومة نفسها التي تهب بيت المقدس كل تبجيل وإجلال، ومن هنا أنتجت هذه المنظومة شعرية قدسية عليا خاصة بالقدس. وقد تأسست هذه الشعرية على النص القرآني المؤسس والحديث النبوي وأنتجت ما يمكننا تسمية مجموعه بسردية قدسية إسلامية للقدس تتكشف في " أن موسى (ع) كلم الله في أرض بيت المقدس، وتاب الله على داوود وسليمان(ع (في بيت المقدس، ورد الله على سليمان ملكه في بيت المقدس، وبشر الله زكريا بيحيى في بيت المقدس، وسخر الله لداوود الجبال والطير في بيت المقدس، وكان الأنبياء يقربون القرابين ببيت المقدس، وأوصى إبراهيم وإسحاق (ع) لما ماتا أن يدفنا بأرض بيت المقدس، وأوتيت مريم فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء ببيت المقدس، وولد فيه عيسى (ع)

---

(58) شراب، المصدر السابق، ص ٣٣٧.

كـمـا تعلم فـي المهـد هـناك، وأنزلـت عليـه المائدة في أرض بـيت المقدس، وماتت مريم، ودفنت فيـها"[٥٩]. ولعل هذه الشعرية تقوم على مثـال جمـالي أساسي يحكـم كل مـستوياتهـا، هـو مسـتوى "الجليل"، الذي ينظـم الإدراك الرمزي الإسلامي للقـدس. وينتمي هذا الإدراك فـي إطار قـوانين الفـكر الرمـزي الديني إلى مـا يمـكن تسـمـيتـه بالإدراك الروحي الداخلي الذي يـنقل مـعـرفـة داخليـة مباشرة بقدسية القدس وجلالـها وسـموها، ولعله في ذلك يضع القـدس في "مـعنى المعنى" أي في كـيـان جليل وسـام يـشع بالدلالات والصور المقدسة، ويتجاوز المعنى الظاهر.

(59) عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ص ٢١٢.

الصور الجغرافية المقدسة :
(سلوان ، زمزم ، الصخرة)

تشكل الينابيع المقدسة إحدى هذه الصور الدلالية الكونية العليا، وتستعيد هذه الصور وفق آلياتها قدسية الماء الكونية نفسها كمنبع تكويني للحياة. وليست هذه الآليات إلا آليات المنطق الجغرافي الإسلامي المقدس الذي يميز في الجغرافية الملموسة بين ما هو مقدس وعادي، ويميز ينابيع وأنهار معينة بالقداسة. فليس المقصود في هذه الآليات " معنى" الماء بل " معنى معناه" كما نقول في النظريات الحديثة للدلالة. ولعل صورة " عين سلوان" نبع القدس الشهير وصورة عين " زمزم" الذي يقول الفكر الرمزي الإسلامي إن ماءها العذب لا يجف لأن منبعه إلهي موصول بالجنة، هما من الصور الجغرافية الإسلامية المقدسة التي ينبني أساسها على الترابط ما بين قدسية الكعبة والمسجد النبوي والمسجد الأقصى في المنظومة الجغرافية الإسلامية. فتتبادل العينان المقدستان: سلوان (في القدس) وزمزم (في مكة) الوظائف، وتتكرران فيما بينهما. وتوحي الأحاديث النبوية بهذه القرابة الحميمة ما بين العينين، فعن خالد بن معدان أن النبي قال: " زمزم وعين سلوان التي ببيت المقدس من عيون الجنة" [٦٠]، وعن أم

(60) شراب، المصدر السابق، ص١٧١

عـبدالله (زوجة الإمـام أحـمـد بن حنبـل) " من أتى بيت المقـدس فليأت محراب داوود، فليصل فيه وليسبح في عين سلوان، فإنها من الجنة" [٦١]. وتأسيسا على هذا التصور التوحيدي ما بين سلوان وزمزم، وبالتالي ما بين القدس ومكة، يقول الشاعر العربي الكلاسيكي الكبير أبو العلاء المعري:

وبعين سلوان التي في قدسها طعـم يـوهـم أنه من زمزم

ولعل "الصخرة الشريفة" تشكل إحدى أكبر الصور الجغرافية الإسلامية المقدسة عن القدس. وتستمد "الصخرة" مكانتها القدسية من موقعها في رحلة الإسراء والمعراج النبوية التي " أسرى" فيها الملاك " جبريل" بالنبي محمد ليلا على حصان سماوي يدعى " البراق" من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس. ومن " الصخرة" في هذا المسجد "عرج" الله كما تقول الرؤيا الإسلامية بالنبي إلى السماء، وهو ما رسّخ في الفكر الإسلامي إلى الأبد موقع القدس كباب للسماء. إن " رَوْحَنَة" الصخرة بهذا المعنى جزء من المنطق الرمزي الذي يعمل وفق آليات الخيال الرمزي الديناميكي المقدس، ويكسبها خصائص السر المقدس، وتروي السردية الرمزية الإسلامية حديثا نبويا مسندا

---

(61) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ٩٧,

إلى الفضل بن عياض يقول " لما صرفت القبلة قالت الصخرة: إلهي لم أزل قبلة لعبادك حتى إذا بعثت خير خلقك (= النبي محمد) صرفت قبلتهم عني؟ قال: ابشري، فإني واضع عليك عرشي، وحاشر إليك خلقي، وقاض عليك أمري، وناشر منك عبادي" [٦٢]. من هنا يفسر أبو العالية (توفي ٩٠هـ) الآية ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين﴾(الأنبياء: ٨١) بأن المقصود بالأرض المباركة هو أرض بيت المقدس، التي من بركتها " أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس" " وحدث الوليد عن الجزري عن أبي هريرة أن النبي قال: الأنهار كلها والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس " [٦٣]، وهو ما نجده بصورة أخرى في حديث مسند إلى كعب يقول " ما من نقطة عين عذبة إلا ومخرجها من تحت صخرة بيت المقدس" [٦٤]، بل يذهب حديث رواه ابن عباس إلى أن النبي قال " الأنهار أربعة: سيحان وجيحان والنيل والفرات، فكل ما يشربه ابن آدم فهو من هذه الأربعة الأنهار

---

(62) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص ٣٨٠

(63) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص ١٤٠ – ١٤١

(64) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٢١٨

تخرج من تحت الصخرة " (٦٥). ونرى رواية أخرى لذلك، متكاملة مع هذه الرواية، في حديث أبي جعفر الرازي عن ابي عالية، يذكرعن النبي قوله " هي الأرض المقدسة بارك الله فيها للعالمين، لأن كل ماء عذب في الأرض منها يخرج من أصل الصخرة التي في بيت المقدس، يهبط من السماء إلى الأرض ، ثم ينصرف في الأرض" (٦٦).

تكتسب صورة الصخرة هنا صفاتٍ كونية تضعها في مركز العالم. وإذا كان منطق كل جغرافية مقدسة يقوم على جعل مكانه المقدس في وسط العالم، فإن المنطق الجغرافي الإسلامي المقدس لم يشذ عن ذلك، إذ روى مقاتل " صخرة بيت المقدس وسط الدنيا" (٦٧)، بمعنى أنها في موقع المركز من العالم وسرته وبدء تشكله، ولعل هذا ما يفسر أن الرؤية الرمزية الإسلامية التي تربط تشكل العالم بها تجعل رأس آدم أبي البشر تحت الصخرة نفسها، فعن ابن عمر أنه قال: أن آدم (ع) رأسه عند الصخرة الشريفة، ورجلاه عند مسجد إبراهيم الخليل(ع)" (٦٨). وتذهب هذه الرؤية إلى أن

---

(65) المقدسي، المصدر نفسه، ص ,٥٦ قارن مع عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ص ٢٠٦,

(66) المقدسي، المصدر نفسه، ص ,٧٣

(67) السيوطي، المصدر السابق، ص ,١٠٥

(68) عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ص ,٥٥

صفة الأقصى في اسم المسجد الأقصى تعني أنه في وسط العالم، فروي أن النبي أجاب عبدالله بن سلام حين سأله عن سبب تسمية مسجد القدس بالمسجد الأقصى بـ" لأنه وسط الدنيا لا يزيد شيئاً ولا ينقص" (٦٩). إن ارتفاع الصخرة عن الأرض يذكر هنا أن الفكر الرمزي الديني عموماً قد منح باستمرار جلالاً خاصاً للأمكنة العالية أو المرتفعة عن الأرض، وليس المقصود هنا الارتفاع الجغرافي في حد ذاته بل إلى ما يتعداه أي إلى وظيفته الروحية، فارتفاع مكان مقدس معين عن الأرض هو اقتراب من السماء. فلا يقاس هذا الارتفاع إلا روحياً، وفي إطار ذلك نفهم ما يروى عن الكلبي أن الصخرة " هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، وروى عن علي بن أبي طالب وعن ابن عباس وحذيفة، أن المكان القريب إلى السماء هو صخرة بيت المقدس" (٧٠). من هنا فسر ابن عباس الآية ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار معين ﴾(المؤمنون: ٥٠) أنها تعني بيت المقدس، ووافقه بذلك قتادة وكعب الذي قال: "هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، لأن الربوة هي المكان المرتفع من الأرض" (٧١).

---

(69) السيوطي، المصدر السابق، ص ٩٣.

(70) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٧٤ – ٧٥.

(71) المصدر نفسه، ص ٧٤.

وكما أن الصخرة هي في أصل ممر ماء الحياة وتدفقه إلى البشر فإنها في أصل البشر أنفسهم، بوجود رأس آدم أبي البشر عندها. ومن هنا يذهب بعض المفسرين المسلمين أن إبراهيم الخليل قد اختار حين أراد أن يظهر لله صحة إسلامه، الصخرة الشريفة مكاناً للتضحية بولده، حيث تم استبداله في اللحظة الأخيرة بكبش سمين. وهو ما يشكل أصل احتفال المسلمين جميعاً في شتى بقاع الأرض بعيد الاضحى أو ما يسمى بتسمية رمزية دالة بـ" العيد الكبير"، والذي يقع خلال موسم الحج السنوي إلى مكة، مع أن حادث الفداء لم يقع في مكة بل في القدس فوق الصخرة [٧٢]. إن عيد الأضحى الذي تنحر فيه الخراف التي حلل الله أكلها هو استعادة طقسية رمزية لحادث الافتداء. غير أن المفسرين المسلمين يختلفون حول بعض المسائل التفصيلية المتعلقة بحادث الفداء الذي عبر عنه القرآن في آية ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ (الصافات: ١٠٧) ويفسر ذلك ابن كثير بقوله " أي وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى من العوض عنه، وهو ما قال عنه ابن عباس: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا.. وقد ذبحه في منى كما يقول مجاهد، وفي المقام كما يقول عبيد الله عمير" [٧٣]، في

(72) روجيه دوباسكيه، القدس الإسلامية في أعمال ماكس فان برشيم، مصدر سابق، ص,١٧

(73) ابن كثير، المصدر السابق، ص ,١٥٨

حين يرى البعض أن الفداء تم على الصخرة الشريفة، كما اختلفوا بالمفدى، أهو إسحاق أم إسماعيل؟. فالكتابيون - كما يقول الحنبلي - يقولون إنه إسحاق، وهو قول علي بن أبي طالب وابن مسعود وكعب ومقاتل وقتادة وعكرمة والسدي، أما ابن عباس فيرى أنه هو إسماعيل، وهذا هو قول سعيد بن المسيب والشعبي والحسن ومجاهد. ويستند كلا القولين إلى ما يروى عن الرسول. فمن يرى أن الذبيح هو إسحاق يقول إن موضع الذبح كان في الشام في بيت المقدس على الصخرة، ومن يقول أن الذبيح إسماعيل، فيقول أن ذلك كان بمكة المكرمة [٧٤]. ولقد جمع المؤرخ الكبير الطبري الأقوال كلها في هذا الحادث الجلل، أهو متعلق بفداء إسحاق بن إبراهيم أم فداء إسماعيل؟ . ويميل الطبري إلى تأييد الرواية المتعلقة بإسحاق على أنها " أوضح وأبين من صحة الأول" [٧٥]، ولعل الاختلاف في إسماعيل أم إسحاق يرتد إلى الخلاف ما بين العرب واليهود حول أصل كل منهم في العائلة الإبراهيمية المؤسسة للتوحيد، ومما يرويه الطبري بهذا الصدد أن " الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز والذي يعتبره كثير من المسلمين بمثابة الخليفة الراشدي الخامس لما عرف عنه من تقوى واستقامة قد

(74)عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ص ٣٨ - ٣٩.

(75)الطبري المصدر السابق، ص ٢٦٣.

سأل رجلا مسلما ذا أصل يهودي، كان من علماء اليهود: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل، والله يا أمير المؤمنين، إن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم (يقصد إسماعيل) الذي كان أمر الله به ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق، لأنه إسحاق أبوهم " [٧٦].

٣- موقع القدس في الرؤية الإسلامية لـ " نهاية العالم"

ترقد القدس في صلب الرؤية الإسلامية لـ" نهاية العالم"، وقد انتشرت في الإسلام الشعبي الغني بالنظم الرمزية والطقسية رؤية مسيانية تبشر بعودة المسيح الحقيقي في آخر الزمان ليقضي على المسيح الدجال أو الأعور الدجال، وينهي طغيانه وعجرفته. وقد استندت مصادر هذه الرؤية إلى أحاديث نبوية لا نشك في انتشارها الواسع وتشكيلها للمخيال الشعبي الإسلامي عن نهاية العالم. وتمثل القدس في الإسلام الشعبي والإسلام الفقهي على حد سواء تجسيدا لتلك الرؤية. روى الإمام أحمد بن حنبل وابن ماجه عن ميمونة مولاة الرسول " أن النبي (ﷺ) لما قيل له: أفتنا

(76) المصدر نفسه، ص ٢٧٠

في بيت المقدس، قال: أرض المحشر، والمنشر، أئتموه فصلوا فيه، فإن صلاة فيه كألف صلاة" [٧٧]. وفي هذا الاتجاه يروى أن صفية زوجة النبي قدمت بيت المقدس بعد الفتح العمري (عمر بن الخطاب)، فصلت به، وصعدت إلى طور زيتا فصلت، وقامت على أطراف الجبل، فقالت :من هنا يتفرق الناس يوم القيامة، إلى الجنة وإلى النار، وهذا الجبل هو الذي صعد منه عيسى(ع) إلى السماء حين رفعه ربه" [٧٨] . وترى الرؤية الإسلامية أنه قد صح عن عكرمة (ت ١٠٥هـ): " من شك أن المحشر إلى بيت المقدس فليقرأ أوائل آية الحشر: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾(الحشر:٢) فقد حشر الناس مرة، وذلك أنه حين ظهوره عليه السلام على المدينة، أجلى اليهود إلى بيت المقدس. ونقل عن ابن عباس أنه (النبي) لما قال لهم (لليهود): اخرجوا! قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر ثم الخلق يوم القيامة: إلى بلاد الشام (ويعني القدس).." [٧٩]. ومن هنا ذهب المفسرون المسلمون إلى أن الآية ﴿واستمع يوم يناد المناد

---

(77) الباش، المصدر السابق، ص ر١١٦ قارن مع المقدسي، المصدر السابق، ص ر٢٠٧

(78) شراب، المصدر السابق، ص ر١٧٤

(79) محمود إبراهيم، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، الكويت، ١٩٨٥، ص ر٣٢٣

من مكان قريب ﴾(ق : ٤١) تعني : أن المنادي هو إسرافيل، ينادي من بيت المقدس بالحشر، وهو (اي بيت المقدس) وسط الأرض" [٨٠].

تحضر القدس بهذا المعنى في صلب تأويل الآيات القرآنية وتفسيرها. فعن عبدالله بن عمر(ت ٦٥هـ، ٦٨٤م) قال: إن السور الذي ذكره الله في القرآن: ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾(الحديد :١٣) هو سور بيت المقدس الشرقي، باطنه في الرحمة: أي المسجد، وظاهره قبله العذاب: وادي جهنم" [٨١] ، كما يروى أن الصحابي عبادة بن الصامت (ت ٣٤هـ، ٦٥٤م) أنه قام على سور بيت المقدس الشرقي فبكى، فقال بعضهم ما يبكيك يا أبا الوليد؟ قال: من هنا أخبرني النبي (ﷺ) أنه رأى جهنم [٨٢]، وفسر شعبان الآية }فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة ﴾(النازعات: ١٣-١٤) بقوله: هي البقيع الذي هو إلى جانب طور زيتا. بل يزور البيت الحرام في نهاية العالم بيت المقدس، الذي تزف إليه جميع مساجد

---

(80) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ,٧٤

(81) المصدر نفسه، ص ,٧٦ قارن مع عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ص ,٢٠٢

(82) ضياء الدين المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٤-,٤٥ قارن مع شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ,٧٦

العالم، وهو ما يرويه أبو عبدالملك الجزري، عن كعب أن النبي قال: "لا تقوم الساعة حتى يزور البيت الحرام بيت المقدس فينقادان إلى الجنة جميعا، فيها أهلوهما والعرض والحساب"(٨٣) وفي قول آخر " تزف جميع مساجد الأرض إلى بيت المقدس، وفيه ينفخ في الصور يوم القيامة، ومن صخرته ينادي المنادي يوم القيامة"(٨٤). وتأخذ صورة القيامة هنا في إطار بلاغة المقدس صورة طقس ابتهاجي كوني يستعيد فرح الزفاف في العرس، إلا أنه يسبغ عليه صفة العرس الكوني المقدس.

يمكن تمييز طائفة من الأحاديث المسيانية في الأحاديث المروية عن النبي، وترتكز هذه الحزمة على تصور كيفية عودة المسيح بن مريم عندما تظلم الدنيا، وينتشر الكفر الذي يستطير على يد (الدجال)، حيث يلتجيء المؤمنون/المسلمون إلى القدس، فينقذهم المسيح الحقيقي من المسيح الدجال، ويقتله في (باب لد) من القدس. إن المسيح الدجال لا بد أن يظهر وفق الرؤية المسيانية الإسلامية في المسلمين، ففي رواية عن أبي أمامة الباهلي: قال " خطبنا رسول الله (ﷺ)، فكان أكثر خطبته حديثا. حدثناه عن الدجال، وحذرناه، فكان من قوله يا أيها الناس، إنها

---

(83) الحنبلي، المصدر السابق، ص ٣٠٣

(84) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص ٣٧٨

لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذر الله ذرية آدم أعظم فتنة من الدجال، وأن الله لم يبعث نبيا إلا حذر أمته الدجال. وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة"[٨٥]. وتتصور الرؤيا المسيانية الإسلامية أن جميع المسلمين سيكونون حين ظهور الدجال في بيت المقدس. وسيكون المسيح عيسى بن مريم إمامهم في الصلاة، وهو ما تذهب إليه مروية أم شريك بنت بي العكر، حيث تسأل النبي " يا رسول الله أين المسلمون (آنئذ)؟ قال: ببيت المقدس، وإمام المسلمين يومئذ رجل صالح، فإذا كبر ودخل في الصلاة نزل عيسى بن مريم، فإذا رآه الرجل (الصالح) عرفه فيرجع يستقدم عيسى(ع) وراءه، فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول له: تقدم فصلِّ، فإنها لك أقيمت. فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى: افتحوا الباب، فيفتحوه ووراءه الدجال، ومعه سبعون ألف يهوي كلهم ذو سلاح وسيف، فإذا نظر إلى عيسى (ع) ذاب كما يذوب الرصاص في النار، وكما يذوب الملح في الماء. ثم يخرج هاربا فيقول عيسى: إن لي فيك ضربة لا تفوتني بها، فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتله" [٨٦] ومن معه. ويملأ المسيح الأرض عدلا كما ملئت ظلما وجورا، ويحل فيها

---

(85) ابن عساكر، المصدر السابق، ص ١٩١.

(86) المصدر نفسه، ص ١٩٢ - ١٩٣.

الوئام والسلام والتناغم. إن إمام المسلمين هنا سيكون هو المسيح، وهو ما يذهب إليه الحديث المروي عن النبي: " ويكون عيسى في أمتي حكما عدلا وإماما مقسطا، فيقتل الخنزير، ويدق الصليب، ويضع الجزية ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير. فترفع الشحناء والبغضاء والتباغض، وتنزع حمة (= سم) كل دابة، حتى تلقى الوليدة الأسد فلا يضرها. ويكون الذئب في الغنم فلا يأكلها. ويملأ الأرض من السلم... "(٨٧). وبذلك يكون الظهور الأخير للمسيح في نهاية العالم بمثابة استعادة للوحدة الأصلية ما بين الإنسان والكون قبل أن يطرأ عليها الاغتراب والانشقاق والتباغض. إنه عودة بالإنسان إلى جوهره الملحمي الأول.

(87) المصدر نفسه، ص ر١٩٣ راجع أيضاً الحديث نفسه عند ضياء الدين المقدسي، المصدر السابق، ٦٥-ر٦٧٦ وأحمد ابن حنبل في مسنده، المصدر السابق، ج٨، ص ١١٧ ،وج٥، ص ر١٦ والنسائي في سننه، ج٣ ،المصدر السابق، ص١١١-ر١١٢

الإسراء والمعراج

بين الرمزية والمادية

تبدو رحلة الإسراء والمعراج النبوية إلى المقدس ومنها إلى السماء وكأنها استعادة لرحلة النبي إبراهيم من الخليل إلى الكعبة (مكة)، ومن الكعبة إلى الخليل، وترسخ هذه الاستعادة الربط القدسي ما بين البيت الحرام والمسجد الأقصى الذي هو مركز الأرض المباركة في الرؤيا الإسلامية. ولقد كانت هذه الرحلة بمثابة " إسراء" أرضي سبقت رحلة " إسراء" النبي روحيا من البيت الحرام إلى المسجد القصى ومنه إلى السماء، لتكتمل الدائرة القدسية ما بين رحلة الجد الأول إبراهيم من الأرض المباركة إلى المسجد الحرام، ورحلة الإبن العكسية من المسجد الحرام إلى الأرض المباركة (٨٨). ولقد كانت الرحلة المحمدية، رحلة مختارة، ربطت ما بين عقائد التوحيد الكبرى، من لدن إبراهيم وإسماعيل إلى محمد خاتم النبيين حسب الرؤية الإسلامية، كما أنها ربطت ما بين الأماكن المقدسة في ديانات التوحيد كلها، وكأنما أريد بهذه الرحلة على حد تعبير سيد قطب أن تعلن وراثة محمد لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته

(88) الباش، المصدر السابق، ص ١١١ -،١١٢

بهم جميعا [٨٩].

يمكن القول إن الإسلام قد تأسس روحيا في إسراء النبي من مكة إلى القدس قبل أن يتأسس تاريخيا ومدنيا في الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة، إنها كما يقول يواكيم مبارك " هجرة تسبق هجرة، والحس الداخلي السابق يستدعي في رحلة لاحقة تعبيرا تاريخيا وممارسة طقسية. وإذا كانت الهجرة النبوية هي المرحلة التي كشفت عن وجه الإسلام في شموله الاجتماعي والسياسي، ثم كانت العودة الصحراوية إلى مكة للتركيز على الإيمان الجامع، فقد تم هذا التركيز وذلك الكشف أولا وآخرا في القدس، حين أسرى النبي إليها، وعرج منها إلى أحضان الملكوت"[٩٠]. (لقد انغرزت القدس من خلال هذه الرحلة على نحو أكثر تركيزا بشكل نهائي في الجغرافية الإسلامية المقدسة، فكانت بمثابة خيط مقدس ربط نهائيا ما بين القدس ومكة والمدينة. وفي قلب هذه المساحة القدسية الإسلامية ترابطت أطرافها في رباط تمتد في نهايته القصوى إلى السماء.

إن رحلة الإسراء والمعراج بهذا المعنى من الأحداث العظمى المؤسسة للدعوة الإسلامية، وقد سبقته البعثة النبوية، وجاءت بعد

---

(89) شراب، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(90) مبارك، المصدر السابق، ص ١١٩-١٢٠.

الهـجـرة إلى يثـرب (المدينة)[91]. وقـد أشـارت إلى الإسـر الآية﴿ سبحـان الذي أسرى بعبـده ليـلا من المسجـد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميـ البصير﴾(الإسراء: ١) أما المعراج، أي العروج من بيت المقدس إلى السماء، فقد أشارت إليه سورة النجم ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى* وما ينطق عن الهوى* إن هو إلا وحي يوحى* علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى* وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى* فأوحى إلى عبده ما أوحى* ما كذب الفؤاد ما رأى* أفتمارونه على ما يرى* ولقد رآه نزلة أخرى* عند سدرة المنتهى* عندها جنة المأوى* إذ يغشى السدرة ما يغشى* ما زاغ البصر وما طغى* لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾(النجم: ١- ١٨).

لم يختلف المحدثون والمفسرون المسلمون بالطبع حول رحلة الإسراء والمعراج، لكنهم اختلفوا فيما إذا كانت جسدية مادية أو روحية رمزية، وحول تاريخ وقوعها وتفاصيل أحداثها. ولقد ذكر صاحب السيرة النبوية" أن الإسراء كان قبل موت أبي طالب (عم الرسول)، وذكر ابن الجوزي، أنه كان بعده في سنة اثنتي عشر

(91) الشعرواي، المصدر السابق، ص ٩.

للنبوة، واختلفوا في الإسراء من جهة أخرى، فقيل كان ليلة السبت لسبع عشر ليلة خلت من رمضان في السنة الثالثة عشرة للنبوة، وقيل كان في رجب. واختلف أهل الله - كما يقول - أبو الفداء، هل كان بجسده أم كان رؤيا صادقة. فالذي عليه الجمهور، كان بجسده وذهب آخرون إلى أنه كان رؤيا صادقة. ورووا عن عائشة(ر) أنها كانت تقول ما فقد جسد رسول الله (ﷺ)، ولكن الله أسرى بروحه، ونقلوا عن معاوية أيضا أنه كان يقول: إن الإسراء كان رؤيا صادقة، ومنهم من جعل الإسراء إلى بيت المقدس جسدانيا ومنه إلى السموات السبع، وسدرة المنتهى روحانيا" [٩٢]. لكن كما يقول عبد المجير الحنبلي، فإن معظم الناس، ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، قد ذهب إلى أن النبي أسرى بجسده يقظة، مستندا على روايات الصحابة وفي مقدمتهم ابن عباس، الذي أكد أنها رؤيا عين رآها النبي لا رؤيا منام، ومستندا أيضا على ما ورد في سورة النجم﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾و﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ أي لم يوهم القلب العين غير الحقيقة بل صرف رؤيتها[٩٣].

(92) عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر (تاريخ أبي الفداء)، الجزء الأول، بيروت، دون تاريخ، ص ١١٩,

(93) عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ص ١٦٢ - ١٦٣,

إلا أنه وبغض النظر عن الخلاف في روحانية الرحلة أو ماديتها، فإنها أغنت المخيال الإسلامي العام بشاعرية خاصة، ولعل قراءة ما يرويه ابن إسحاق عن الحسن عن النبي تكشف جانبا من الغنى الرمزي، ففي هذه المروية ينسب إلى النبي أنه قال: " بينما أنا نائم في الحجر، إذ جاءني جبريل، فهمزني بقدمه، فجلست فلم أر شيئا، فعدت إلى مضجعي، فجاءني جبريل، فهمزني بقدمه. فجلست فلم أر شيئا، فعدت إلى مضجعي، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست، فأخذ بعضدي، فقمت معه. فخرج بي إلى باب المسجد، فإذا دابة أبيض، بين البغل والحمار، في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه، يضع حافره في منتهى طرفه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتني، ولا أفوته "[٩٤] ويروي شداد بن أوس أن النبي تحدث عن طريق رحلته إلى بيت المقدس بقوله " فانطلقت بنا تهوي (= البراق) يضع حافرها حيث أدرك طرفها حتى بلغنا أرضا ذات نخل، فأنزلني، فقال: صليت بيثرب (المدينة) وطيبة، فانطلقت بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، فقال: أنزل، فنزلت، ثم قال: فصل، فصليت بمدين، صليت عند شجرة موسى، ثم انطلقت تهوى بنا... ثم بلغنا أرضا بدت لنا

---

(94) ابن هشام، المصدر السابق، ص٣٩٧

قصور، فقال أنزل، فنزلت، فقال صل، فصليت ثم ركبنا فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله اعلم، قال: صليت ببيت لحم، حيث ولد المسيح بن مريم، ثم انطلقت بي حتى دخلنا المدينة فأتى قبلة المسجد، فربط فيها الدابة.. فصليت في المسجد حيث شاء الله"(٩٥).

نلحظ في هذه الرحلة القدسية إلى بيت المقدس أنها ربطت ما بين أطراف الجغرافية الإسلامية المقدسة، مكة والمدينة والقدس وما جاورها مثل "بيت لحم" التي ولد فيها عيسى، مستعيدة في ذلك أيضا وحدة الوحي الجامع بين أديان "الكتاب". وأما معراج النبي إلى السماء فيرويه بن مسعود "أتي رسول الله (ص) بالبراق فحمل عليها، ثم خرج به صاحبه، يرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل وموسى، وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له، فصلى بهم"(٩٦) وفي رواية أبي يعلى الموصلي عن ابن مسعود، قال النبي: "ثم مضينا حتى أتينا بيت المقدس، ونشرت لي الأنبياء من سمى الله ومن لم يسم، فصليت بهم، غير أولئك الثلاثة عيسى وموسى

---

(95) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق. ص ,٢٦٧

(96) ابن هشام، المصدر السابق، ص ,٣٩٧

وإبراهيم"(٩٧) وينقل لنا السيوطي في " الآية الكبرى" كما يقول أبو حاتم في تفسيره، حديثا طويلا عن النبي، وصلاته بالأنبياء في بيت المقدس جاء فيه " فلم ألبث إلا يسيرا حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة، فقال: فقمنا صفوفا ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدي جبريل، فقدمني فصليت بهم، فلما انصرفت قال جبريل: يا محمد أتدري من صلى خلفك؟ قلت لا، قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله" (٩٨). ولقد كانت إمامة النبي للأنبياء كلهم ترسيخا له كآخر الأنبياء، وقد تمت وفق ما يعتقده المسلمون على المسجد الأقصى، على قمة جبل المعبد أو جبل موريا، وعبرت رمزيا عن وحدة الوحي الذي يجمع رسالة الأنبياء جميعا من آدم مرورا بإبراهيم أبي الأنبياء وصولا إلى موسى وداوود وسليمان وعيسى وانتهاء بمحمد الذي هو إسلاميا خاتم الأنبياء وإمامهم. وما يهمنا من ذلك أن هذا الحدث قد تم في بيت المقدس، وعبر عن إدخال هذا البيت في قلب المقدسات الإسلامية، وإدراج الإسلام نفسه في خط الاستمرارية والتكامل مع الديانات التوحيدية التي سبقته. ولعلنا نستطيع بيسر أن نفهم قداسة "

---

(97) ابن عساكر، المصدر السابق، ص ٣٢٩

(98) شراب، المصدر السابق، ص ٣٢٩ قارن مع خالد عبدالرحمن العك، تاريخ القدس العربي القديم، المصدر السابق، ص ٢٥

الصخرة " عند المسلمين إذا ما عرفنا أن عروج النبي إلى السماء على جناحي "البراق" قد تم من على صخرة بيت المقدس، وفي هذا العروج صعد النبي السموات السبع سماء فسماء، ويروي ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري عن النبي أنه صعد" عارجا إلى السماء السابعة، والتقى أثناء عروجه الأنبياء السابقين، ففي السماء الأولى، السماء الدنيا تعرّف على آدم (ع)، ثم أصعدني إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا فتعرف عليهما، ثم صعد إلى السماء الثالثة فتعرف فيها على يوسف بن يعقوب، وفي الرابعة تعرف على إدريس، وفي السماء الخامسة تعرف فيها على هارون بن عمران، وفي السماء السادسة عرفه جبريل على موسى بن عمران، وفي السماء السابعة، وعلى عتبة "سدرة المنتهى"، حيث تلقى محمد (ﷺ) الكشف النهائي، تعرف على أبيه إبراهيم الخليل"(٩٩) رفع بعدها إلى "سدرة المنتهى" فأوحى الله عليه ما أوحى. ففرض عليه خمسين صلاة في كل يوم وليلة، وعندما قفل راجعا مر بموسى بن عمران، فقال لمحمد: إن الصلاة ثقيلة، وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك، فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك، فبقي النبي (ﷺ) يدعو الله

---

(99) ابن هشام، المصدر السابق، ص ٣٠٦ ,٣٠٧

التخفيف، إلى أن استقر أمر الله على خمس صلوات في كل يوم[١٠٠].

لا شك أن المعاني المشبعة بدلالات عليا، والتي حملها صعود النبي إلى السماء من على الصخرة الشريفة، وما دشنه هذا الصعود من الاتصال بين الأرضي والسماوي، كانت ملتصقة بشكل تام ببيت المقدس الذي احتوى هذا الحدث القدسي، وساهم إلى حد بعيد بتقديس بيت المقدس بوصفه المكان الذي اتصلت به السماء مع الارض. ولقد أذهل ذلك المتصوفين المسلمين، فباتوا يتقاطرون على القدس، متبركين بها، ومحاولين استعادة تلك اللحظة القدسية المبهرة. إذ تباركت القدس نفسها في الرحلة المحمدية، حين فرضت على المسلمين الصلوات الخمس في العروج من بيت المقدس إلى السماء، وقد نزلت إبان هذه الرحلة آية ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك أجعلنا من رسلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾(الزخرف: ٤٥)، وهي الآية الوحيدة التي نزلت خارج مكة والمدينة وما بينهما، فزاد نزولها القدس جلالا في الضمير الإسلامي[١٠١]. وربط ما بينها وبين مكة والمدينة في خط اتصال

(100) المصدر نفسه، ص ٤٠٧-٤٠٨, قارن مع ابن كثير، المصدر السابق، ص ١١٦-١١٧, ومع الحبش، المصدر السابق، ص ٩٨-٩٩,

(101) محمد سليم العوا، مسلمون ومسيحيون معاً من أجل القدس، مصدر سبق ذكره، ص,١٥٤

قدسي، شكل أساس المدن الإسلامية المقدسة. مكة، المدينة، القدس. ورغم أن محمدا في الفكر الإسلامي كان "عبدالله" أي بشر مثل سائر الناس لكن يوحى إليه، فإن شخصيته شكلت صلة حية أو " قطبا" مقدسا ما بين السماء والأرض. وبذلك جمع المسلمون بين الرمز القديم للمكان أو الحيز المقدس، وبين التوجه الأحدث نحو الشخصية المقدسة الصالحة، حيث أصبح بإمكان البشر والأماكن، إيجاد صلة بين ما هو سماوي وما هو دنيوي. ولأن المدينة كانت موطنا للرسول، فقد أصبحت أيضا بقعة لامست فيها السماء الأرض خاصة عند قبر الرسول، حيث تكشف حضوره، وأصبحت المدينة أيضا بدرجة القدسية هذه لأن الأمة ولدت فيها[١٠٢].

---

(102) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص٣٨٠ .

الفصل الثالث

الفتح العمري

قدسية الاسم الإسلامي

كي نفهم طبيعة الفتح الإسلامي للقدس في شباط(٦٣٨م) لابد من التوقف قليلاً عند تاريخها قبله. فمن المتفق عليه أن الكنعانيين كانوا أول من سكن القدس وبنوها قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، على التلال القريبة من عين سلوان، والتي تعرف بـ" تل أوفل" بمعنى الأكمة أو القلعة، وتقع حالياً في الجنوب الشرقي من موقع الحرم القدسي، ويحيط بهذه المنطقة ثلاثة أودية هي وادي جهنم أو "قدرون" والذي سماه العرب المسلمون بوادي سلوان ووادي النار، ووادي الربابة أو هنوم، الذي يفصل ما بين جبل صهيون وتل أبي ثور والتل الثالث: الوادي أو الواد، ويفصل بين صهيون وجبل موريا الذي يقع عليه الحرم [1] وقد توسعت النواة الأولى للمدينة ليحل محلها نواة رئيسية تقوم على تلال أخرى غير تل الضهور، وهي جبل موريا الذي يقوم عليه الحرم القدسي، وجبل أكرا حيث توجد كنيسة القيامة، وجبل بزيتا بالقرب من

(1) أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ط٨، دمشق، دون تاريخ، ص ٧٩٧ .

باب الساهرة وجبل صهيون الواقع في الجنوب الغربي للقدس القديمة. وقد أطلت عليها عدة جبال هي: جبل المكبر جنوب القدس الذي دخل منه الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب لتسلم القدس من بطريركها الأرثوذكسي، والذي قيل إنه سمى كذلك لأن عمر كبر فيه، وجبل الطور وجبل الزيتون الذي يقع شرقي القدس ويعتقد أن المسيح صعد منه إلى السماء [٢]. ويجمع المؤرخون أن الكنعانيين هم أول من أطلق اسم " أورشليم" على القدس، أي قبل أن يسيطر عليها اليهود مع داوود بأكثر من ألف عام. وعرفت باسمها الكنعاني (أور / سالم) بمعنى (مدينة / السلام)، حيث يذكر أن مليك صادق الذي كان أول من اختطها وهو من ملوك اليبوسيين قد عرف بحبه للسلام، ووصف بملك السلام، ومن هنا جاء اسم مدينته (مدينة سالم) أو أورشليم [٣]. وينسب البعض هذه التسمية الكنعانية إلى: سالم، أو شالم، أو شاليم وهو إله السلام الكنعاني أو اسم مؤسسها، بينما كلمة أور كلمة سومرية تعني " مدينة"، وأما الأكاديون الذين هاجروا من الجزيرة العربية ونزلوا العراق في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد فقد ذكروها باسم أوروسالم"، ووردت في التوراة

---

(2) شراب، المصدر السابق، ص ٣٨ -٤٣ .

(3) العلك، المصدر السابق، ص ٣٨ .

باسم " أورشليم" وذكرها اليونانيون واللاتين باسم Hierorlyma والأوربيون في العصر الحديث باسم Jerusalem، وأطلق عليها اليبوسيون اسم " يبوس" . ويرى البعض أن هذه التسمية الأخيرة تعود إلى القائد اليهودي يوشع الذي أغار على فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد [٤].

اتخذ داوود القدس حين دخلها حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد عاصمة لمملكته، وسماها " مدينة داوود" وقد تعايش اليهود مع اليبوسيين الكنعانيين، إلا أنهم استقلوا بمدينتهم بعد السبي البابلي لليهود في ٥٨٧ ق.م [٥] . وبنى ابنه سليمان في موضع اشتراه من اليبوسيين معبد الهيكل، واستعان بمهندسين فينيقيين من صور برئاسة المهندس حيرام على إنشائه (سفر الملوك الأول - الإصحاح التاسع) [٦]. وقد تفاعل اليهود مع الحضارة الكنعانية [٧] إلى درجة أن اللسان الكنعاني كان لغة مملكتهم[٨]،

(4) شراب، المصدر السابق، ص ٣٤ .

(5) سوسة، المصدر السابق، ص ٧٩١-٧٩٢ .

(6) مصطفى مراد الدباغ، مصدر سابق، ص ٥٦٠ .

(7) جيمس هنري برستيد، العصور القديمة، ترجمة داوود قربان،بيروت ١٩٣٠،ص١٧٧-١٧٨ .

(8) أنيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، بيروت ١٩٥٦،(المقدمة).

فكان الموسيقيون والمغنون الأوائل في الهيكل كنعانيين في أشخاصهم وتدريبهم، ورقى داوود وسليمان الموسيقى العبرانية المقدسة اتباعاً للنموذج الكنعاني[٩]، ونلحظ أن العهد القديم يذكر القدس هنا تحت اسم " صهيون" (صموئيل الثاني ٥/٦-١٠ وأخبار الأيام الأولى - ١١/٥)، وهو اسم الحصن اليبوسي الذي استولى عليه داوود، وربما كان هذا الاسم مشتقاً من العربية "صهوة" بمعنى أعلى الجبل، أو من العبرية بمعنى الأرض الجافة[١٠].

شيد سليمان معبد الهيكل على جبل موريا في أبعاد متواضعة، يحددها غاسبار بستين ذراعاً طولاً وعشرين ذراعاً عرضاً، أي ما مساحته ثلاثون متراً. ولم يكن يسمح للشعب بالدخول إلى القسم الخارجي من الهيكل أي الرواق، أما "الدبير" وهو غرفة صغيرة مكعبة لا نوافذ لها تحتوي على " تابوت العهد" فكان دخولها مقتصراً على رئيس الكهنة في يوم واحد من السنة بمناسبة عيد الكفارة [١١]، غير أن مملكة داوود الصغيرة المتمحورة حول القدس ونابلس انقسمت إلى كيانين هما: يهودا حول

---

(9) فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج١،ترجمة جورج حداد وعبدالمنعم رافق، بيروت ١٩٥٨،ص٢٢٣ .

(10) الحسيني، مصدر سابق، ص ٣٥ .

(11) غاسبار، مصدر سابق، ص ٣٧ .

القدس والسامرة حول نابلس، وفي ٧٢٠ ق.م قضي على مملكة السامرة وفي القرن السادس على مملكة يهودا، حيث تتالى على القدس البابليون والفرن واليونان والرومان. وخلال هذه الفترة الطويلة هدم الهيكل وأعيد بناؤه عدة مرات بدءاً من تدمير البابليين له في ٥٨٧ ق.م على يد نبوخذ نصر، إلى أن أعيد بناؤه لآخر مرة في عهد هيردوس، وجاء بناؤه بشكل أضخم من الهيكل الذي بناه سليمان [١٢]. وإلى هذا الهيكل ذاته سيأتي المسيح الذي نجا من مذبحة أطفال بيت لحم على يد هيردوس ليطرد التجار منه، ثم أخذ الصدوقيون على عاتقهم محاولة محو ذكره بدعم من الفريسيين، غير أن نواة ملتهبة استطاعت المقاومة، وانفصلت في عام ٤٩م عن اليهودية، وانتقل اللهب الروحي الذي أشعله المسيح إلى خارج أورشليم [١٣]. وفي ربيع عام ٧٠ م سار تيطوس من الشمال على طريق نبوخذ نصر وبومبي، ووصل أورشليم وأحرق الهيكل، ودمر أسوار المدينة، مبقياً فقط على الأبراج دليلاً على مجده وانتصاره، وما يزال أحد هذه البروج وهو برج "فازابيل" قائماً ويعرف اليوم خطأ باسم برج داوود [١٤]. ثم يأتي الامبراطور

(12) الدباغ، مصدر سابق، ص ٦٢٨ .

(13) غاسبار، مصدر سابق، ص ٤٤ .

(14) المصدر السابق، ص ٤٨ .

الروماني هادريان (١١٧ –١٣٨م) الذي سماها باسم إيلياء نسبة إليه، ويدمر ما تبقى من هيكل هيرودس ما عدا بقايا حائط يسميه المسلمون حائط البراق ويسميه اليهود حائط المبكى، ويخطط لإقامة معبد جوبيتر، ويصدر أمراً للمسيحيين بالإقامة فيها على ألا يكونوا من أصل يهودي، ويمنع دخول اليهود إليها [١٥]. وقد استمر هذا الأمر سارياً على مدى خمسة قرون، منع فيه اليهود من دخول المدينة، إلى أن ألغاه العرب المسلمون بعد الفتح العمري للقدس. إذ أن الامبراطور قسطنطين الذي أعلن المسيحية دينا لامبراطوريته في القرن الرابع الميلادي أبقى على مرسوم هادريان بمنع اليهود من دخول القدس، وأعاد إليها تسميتها القديمة أورشليم[١٦]، غير أن اسم " إيلياء" بقي متداولاً إلى أن جاء العرب المسلمون وأطلقوا عليها اسم " القدس" وبيت المقدس والقدس الشريف، ويعتقد أن أقدم من وصفها بالقدس الشريف، وهي التسمية الشائعة حتى اليوم في العالم الإسلامي، هو يحيى بن سعيد الأنطاكي في كتابه " تاريخ الذيل" الذي ألفه سنة ٤٥٨ هـ ثم ثبتها العثمانيون[١٧].

---

(15) شراب مصدر سابق، ص ٦٤ .

(16) سوسة، المصدر السابق، ص ٦٣٦ .

(17) شراب، المصدر السابق، ص ٣٧ .

ونلحظ في كل التسميات الإسلامية مركزية اسم القدس. ولما كان المسلمون يعتقدون أن اسم القدس هو الاسم الذي أطلقته الملائكة عليها حين بنتها بأمر الله، فإنهم اعتبروا أن تسميتها بالقدس ليست إلاّ إعادة لتسميتها القديمة في عهد الأنبياء والمرسلين(١٨). وقد حمّلوا هذا الاسم من الزاوية اللغوية كل الدلالات التواردية Paradigmatique للقداسة والطهر والتبجيل. ولخص لنا ياقوت الحموي المفهوم المتداول لغوياً عن القدس، فقال " القدس في اللغة، المتنزه، وقال المفسرون في قوله تعالى ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾(البقرة: ٣٠) وقال الزجّاج: معنى نقدُسُ لك، أي نطهِّر أنفسنا لك، وكذلك نفعل بمن أطاعك نقدسه، أي نُطهِّره، قال: ومن هذا قيل للسطل: القدسَ لأنه يُقدس منه أي يتطهر، قال: ومن هذا بيت المقدس، أي المطهَّر الذي يتطهر به من الذنوب... وقال قتادة: المرادُ بأرض المقدس أي المبارك(١٩).

إن إعادة تسمية إيلياء بالقدس هو نوع من إعادة تملك رمزي مقدس لها على أساس جديد، يصلها مباشرة بالملائكة الذين بنوها لأول مرة وفق المعتقد الإسلامي. ولم تكن هذه التسمية

---

(18) الحموي، مصدر سابق، الجزء الأول، ص ١٦٨–١٧١ .

(19) المصدر نفسه، السفر الأول، ص ٣٧٤ –٣٧٦ .

عابرة أو ابنة لحظتها بقدر ما تأسست قبل الفتح العمري نفسه على قداسة القدس في الإسلام منذ نشأته الأولى، وتشميله القدس كعنصر تكويني في منظومته الجغرافية المقدسة.

الفتح الإسلامي :
بين الوعي الرمزي والوعي التاريخي

لم يكن الفتح العربي - الإسلامي للقدس في ١٧ هـ - ٦٣٣م، وإن تمَّ في عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، خارج الرؤية النبوية نفسها التي رسخت القدس كجزء لا يتجزأ من أطراف المنظومة الجغرافية الإسلامية الثلاثية المقدسة. من هنا يحضر هذا الفتح في الوعي الإسلامي كتصديقٍ لوعد نبوي مسبق بهزيمة الروم (أي البيزنطيين الذين كانت سيادتهم مبسوطة على القدس) وفتح القدس. ويمكننا التمييز ما بين التاريخي والرمزي في هذا الوعي، فيرتبط التاريخي بمجريات عملية الفتح وشروطها وموازين قواها اي بالزمن الواقعي التاريخي بقدر ما يرتبط الرمزي بالزمن الروحي القدسي، الذي يجعل من الفتح الإسلامي للقدس تحقيقاً لوعدٍ نبوي - إلهي. وإذا كان الوعي الرمزي قد احتل مساحة أساسية في وعي المسلمين لعملية فتح بلاد الشام عموماً

والقدس خصوصاً، فإنه لعب بالمقابل دوراً معيناً في فهم البيزنطيين لهزيمتهم، إذ تشير بعض معطيات التاريخ البيزنطي الفعلي إلى أن الامبراطور هرقل قد فسَّر هزيمته أمام المسلمين بانتقام اليد الإلهية منه عقاباً على زواجه الآثم من ابنة أخته[٢٠]. وبكلامٍ آخر اكتسب الانتصار الإسلامي والهزيمة البيزنطية شكل التجربة الدينية الرمزية التي تفسر الانتصار / الهزيمة بأسباب إلهية علوية ما فوق بشرية. فقد احتملت رؤية هرقل نفسها اعترافاً ضمنياً بأن المسلمين شكلوا أداة الله في عقابه والانتقام منه. وسيظهر هذا المستوى الرمزي - وفق الرواية العربية الإسلامية - في رؤية صفرونيوس بطريرك القدس الأرذثودكسي إلى أن القدس سيفتحها شخص يحمل مواصفاتِ شخصية انطبقت لديه على الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

كي نفهم هذا الوعي الرمزي لا بد لنا مع ذلك من وضعه في إطاره التاريخي، وإن كانت آلياته قد نشأت وتطورت وفق ديناميات ذاتية مستقلة، وهو ما يساعدنا على تلمس أشكال التبادل والتأثر ما بين الوعيين الرمزي والتاريخي. إذ كانت القدس

---

(20) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ط٢، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت ١٩٨١، ص ٣٦.

عشية الفتح العمري مثل سائر بلاد الشام تحت سيادة بيزنطة، وتقع في قلب الصراع الكبير الذي شهدته مطالع القرن السابع الميلادي ما بين الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية. فقد كان جيش كسرى الثاني ملك الفرس قد اجتاح بيزنطة ووصل القدس في ٦١٤م، حيث ساعده اليهود المحرومون من دخول القدس منذ مرسوم تيطس عام ٧٠م على اجتياحها، وقد أعمل جيش كسرى الفتك والقتل والتدمير بالمدينة وبأماكن العبادة المسيحية، وحمل معه الصليب المقدس وأهداه إلى زوجة ملك الفرس النسطورية[٢١]، الذي كان قد لجأ إليه النساطرة إثر انشقاقهم عن الكنيسة البيزنطية. ولقد مكث جيش فارس في القدس مدة تنوف عن اثني عشر عاماً؛ وتمكن هرقل ابن حاكم إفريقية من إزاحة الامبراطور فوكاس عن العرش، وأعاد القدس وبلاد الشام إلى السيادة البيزنطية، وسار في ربيع سنة ٦٢٩م لتسلم الصليب المقدس الذي حمله في موكب مهيب إلى القدس. من هنا ظهر في العالم المسيحي بوصفه "حامي النصرانية وموحد الامبراطورية" الرومانية الشرقية التي كانت تنخرها التناقضات اللاهوتية وتسير بها نحو التفكك. إلا أن سياسته في فرض الوحدة

(21) نبيه العاقل، فلسطين من الفتح العربي الإسلامي إلى أواسط القرن الرابع الهجري، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني (المجلد الثاني)، بيروت ١٩٩٠، ص ٢٦٢

دينية، كأداة لإحكام سيطرة السلطة المركزية على الرعايا قد
سطدمت لا سيما في مصر والشام بمقاومة المونوفيزيين
الأرثوذكس على حد سواء. وقد اكتسبت هذه المقاومة سمات
قافية وقومية في شكل لاهوتي. وكي نفهم تلك الخصائص التي
ربت عرب الشام من عرب الجزيرة العربية لغوياً وثقافياً بقدر ما
عدتهم عن السلطة المركزية البيزنطية، لا بد من الإشارة إلى أن
تشار الثقافة الهيلينية خلال تجربة الحكم اليوناني
٣٣٢-٦٤ق.م) كان متفاوتاً بين منطقة وأخرى، إذ ظلت
عناصر الأساسية لحضارة بلاد الشام سامية عربية تشكل الآرامية
الكنعانية عنصرها البارز، وظلت الآرامية لغة الشعب الذي حافظ
لى طرق معيشته الكنعانية، واحتفظ الريف على وجه الخصوص
لغته وعاداته[٢٢]. ولم يفقد الشعب خلال الحكم الروماني (٦٤
، .م -٦٤٠م) خصائصه القومية الثقافية واللغوية، فاقتصرت
يمنة الهيلينية على النخبة المدينية في حين أن أكثرية السكان
كانوا يعتبرون الحكام غرباء، وينظرون إليهم في ضوء فساد الحكم
فداحة الضرائب. وفي غالب الظن اعتبر هؤلاء السكان أن العرب

---

(22) أحمد صدقي الدجاني، القدس وفلسطين في التاريخ، الرباط، ١٤٠١هـ ص٨٢
(23) فيليب حتى وإدوارد جرجي وجبرائيل حيدر، تاريخ العرب المطول، الجزء الأول، بيروت ١٩٥٨، ص٢٠٨ قارن مع حتي، المصدر السابق، ج١، ص١٤

المسلمين أقرب إليهم عنصراً ولغةً من أسيادهم[٢٣]، ولعل ذلك ما يفسر انحياز الكتائب العربية في الجيش البيزنطي إليهم. ولقد عبر بريستد عن حدود تأثر الثقافة اليومية باليونانية بقوله" إن هذا التأثير لم يسد على السواء في جميع أنحاء البلاد بل كاد ينحصر في المدن فقط، ولم يتأثر به كثيراً سكان القرى والدساكر الذي آثروا البقاء على عاداتهم السامية القديمة، والتكلم بلغات آبائهم والاحتفاظ بتقاليدهم وأفكارهم[٢٤]. بكلامٍ آخر تفاعلت الانقسامات الثقافية والاجتماعية والإثنية بشكل عميق مع الانقسامات المذهبية في قلب المسيحية الشرقية وتمفصلت معها. وقد تبنت الكنيسة السورية – والقبطية المصرية – نظرية الطبيعة الواحدة للمسيح إلا أن مجمع خلقيدونية الذي انعقد عام ٤٥١م قد تبنّى نظرية الطبيعتين الإلهية والبشرية كمذهب لاهوتي للكنيسة البيزنطية. ولا شك " أن وراء النزعة الدينية التي حسَّنت لهؤلاء التعلق بكنيسة سورية المستقلة الشعور الوطني القائل بوجود التمييز عن البيزنطيين الأغراب"[٢٥]. من هنا يلاحظ كثير من الباحثين أن حركة القول بالطبيعة الواحدة للمسيح قد غدت

(24) بريستد، العصور القديمة، ترجمة داوود قربان، بيروت ١٩٣٦، ص ٣١٥.

(25) حتي وجرجي وحيدر، المصدر السابق، ص ٢٠٦ قارن مع شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، بيروت ١٩٥٢، ص ٥٣.

القاعدة اللاهوتية التي تمسك بها مسيحيو مصر وفلسطين وبعض أجزاء سورية، لا سيما الداخلية منها. فأمَّ فلسطين في أواسط القرن الخامس عدد كبير من النساك والرهبان الذين يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح، وعرفوا لاحقاً باسم اليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعي. وقد اعتبر اليعاقبة هراطقةً وتعرضوا إلى الاضطهاد، إلا أنهم لم يخرجوا من بلادهم كما فعل النساطرة الذين استقروا في فارس وفي عمقها الآسيوي، بل ظلوا فيها، وكانوا يستعملون اللغة السريانية في بلاد الشام والعراق واللغة القبطية في مصر في حين أن الذين التزموا بمذهب خلقيدونية كانوا يستعملون اللغة اليونانية(٢٦). ويشير الباحث نقولا زيادة إلى أن إصرار سلطة الامبراطور المركزية على إجبار المسيحيين الشرقيين في مصر وفلسطين والأردن وسورية الداخلية على قبول معادلة خلقيدونية قد أثار حفيظة المواطنين. وعبر هؤلاء عن مشاعرهم الوطنية العارمة الموجهة ضد السلطة بتمسكهم بالطبيعة الواحدة، فالشعب أراد أن يعبر عن شخصيته ووطنيته عبر تمسكه بهذا الشكل الديني ورفضه تلك المعادلة(٢٧) من هنا وجد العرب

(26) نقولا زيادة، فلسطين من الإسكندر إلى الفتح الإسلامي، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠، ص ١١٢.

(27) المصدر السابق، ص ٢١٣.

المسلمون نوعاً من الترحاب اختلف من مكان إلى آخر بل إن ثمة مؤشرات أوردها المؤرخ البطريرك اليعقوبي ميخائيل السرياني تشير إلى أن المسيحيين والمقصود بهم اليعاقبة قد أرسل الله لهم أبناء إسماعيل أي العرب كي يحررهم من نير الرومان، كما روى مؤرخ نسطوري مجهول بأن قلوب " المسيحيين انشرحت لسيادة العرب فليزد الله في قوة هذه السيادة وليجعلها زاهرة "[٢٨]. وينطبق ذلك إلى حد كبير على موقف اليهود الذين تعرضوا إلى اضطهاد البيزنطيين، ففي خطاب كتبه حاخامات بيت المقدس في القرن الحادي عشر، ذكر هؤلاء بالرحمة التي أظهرها الإله لشعبه حينما سمح لـ" مملكة إسماعيل" أن تفتح فلسطين، وعبروا عن غبطتهم لوصول المسلمين إلى القدس، حيث كان في صحبتهم أناس من أبناء إسرائيل أرشدوهم إلى موقع المعبد[٢٩].

لقد تسامح الأباطرة الوثنيون مع العقائد المحلية لأنه كان يمكن تطويعها بيسر للبانتيون الروماني، إلا أن الأباطرة المسيحيين لم يبلغوا درجة تسامحهم، فقد كانت المسيحية كما يقول رانسيمان ديانة مانعة، أي لا تتعايش مع أي ديانة أخرى[٣٠]،

(28) رانسيمان، المصدر السابق، ص ٤٠-٤١.

(29) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٣٩٤ -٣٩٥.

(30) رانسيمان، المصدر السابق، ص ٣٠.

ويمكن القول استطراداً أن مذهبها الرسمي في بيزنطة كان مانعاً بدوره ولا يقبل مذاهب ورؤى لاهوتية أُخرى، وبكلام آخر حين تم الفتح العمري كانت بيزنطة قد وصلت إلى أعلى درجات تفككها، ولم تؤد سياسة الامبراطور هرقل في محاولة فرض الوحدة الدينية الجديدة التي رأى أنها توفق ما بين الأرثوذكس والمنوفيزيين إلا إلى عداء هؤلاء له، من هنا كان صفرونيوس بطريرك القدس الأرثوذكسي في مقدمة معارضيه في المسيحية الشرقية.

لم يكن العرب المسلمون يفتقدون بالطبع إلى الحس التاريخي، إذ كشفوا عن إدراك مبكر في اللحظة المناسبة لضعف الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية، وأدركوا لا شك حدة التناقضات ما بين العرب المسيحيين الشاميين المنوفيزيين وسياسة الامبراطور الدينية، وإن كانت توحيديتهم لم تسغ لهم تقبل التثليث. ولعلنا نلمس هذا الحس في توصية الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق إلى الصحابي أبي عبيدة بن الجراح قائد جيوشه لفتح بلاد الشام " فبثّ خيلك في القرى وفي السواد، ولا تحاصر مدينة من مدنهم حتى يأتيك أمري" مما يحتمل أنه كان على وعي بأن سكان المدن الذين كانوا في غالبيتهم يونانيين هم أعداء وأن سكان القرى والسواد أقل عداوة. من هنا اهتم أولاً

ببسط سلطانه على القبائل العربية التي كانت تعيش في مناطق التخوم السورية وعلى الفلاحين الذين يسكنون في المناطق القريبة من الساحل وفي المناطق الجبلية، وكانوا يتكلمون الآرامية، أما سكان بادية الشام وفلسطين والفلاحون الذي يسكنون في بعض القرى في هذه المنطقة، فكانوا يتكلمون العربية[٣١]. فقد كان معظم قادة الجيوش العربية – الإسلامية الموجهة إلى بلاد الشام على صلات من أنواع مختلفة مع أهالي تلك المناطق[٣٢]. ولعل هذا ما يدفع روجيه غارودي إلى القول " في عام ٦٣٨م لم يكن العرب من وصل إلى فلسطين، وإنما هو الإسلام... إذ أن العرب كانوا في فلسطين منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام، أي منذ الهجرات السامية الأولى القادمة من الجزيرة العربية. تلك التي كانت تجوب ارجاء الهلال الخصيب من عموريين وكنعانيين وعرب، من ذوي أصل إثني واحد وأسرة لغوية واحدة" [٣٣]. وقد تم في عهد الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق تجهيز أربعة جيوش لفتح بلاد الشام، عمرو بن العاص على فلسطين وشرحبيل بن حسنة على الأردن ويزيد بن أبي سفيان على البلقاء وأبو عبيدة الجراح على

(31) العاقل، المصدر السابق، ص ر٢٥٩

(32) زيادة، المصدر السابق، ص ر٢٤٣

(33) روجيه غارودي، فلسطين أرض الرسالات السماوية، دمشق ١٩٨٨، ص ر١١٩

دمشق، لكن العمل الحاسم تم في عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب [٣٤] . ومن هنا يسمى فتح القدس في الحوليات التاريخية الإسلامية " بـ" الفتح العمري" .

لقد سقطت الشام بسرعة مذهلة لا سيما بعد معركة اليرموك التي خرَّ فيها تيودورس أخو الامبراطور هرقل صريعاً، ليغادر هرقل نفسه سوريا بتلك الجملة الشهيرة المتأسية " وداعاً يا سورية .. وداعاً لا لقاء بعده"، ولتنفتح جميع البلاد الشامية أمام المسلمين [٣٥] ويعلق غارودي على سرعة انهيار الجيوش البيزنطية التي كان هرقل قد أعاد في الواقع بصعوبة بالغة محاولة بنائها بعد تسريحها وشح خزينته بأن " التعصب العميق لدى الأباطرة البيزنطيين يتيح لنا أن نفهم كيف تم حسم مصير سوريا وفلسطين بمعركة واحدة هي معركة اليرموك في العشرين من آب ٦٣٦م، وكيف سحق الجيش البيزنطي، وكيف تفجر ذلك العصيان قبل معركة اليرموك بين صفوف الجنود المسيحيين الأرمن في الجيش البيزنطي، وكيف انسحب المسيحيون العرب السوريون من الجيش البيزنطي إبان

(34) عارف باشا العارف، القدس، مصر، دون تاريخ، ص ٤٤-،٤٥ قارن مع إلياس شوفاني، موجز تاريخ فلسطين، بيروت ١٩٩٦، ص ،١٦٢

(35) حتي وجرجي وحيدر، المصدر السابق، ص،٢٠٤

المعركة، فوجد جيش الروم نفسه وحيداً، فتم سحقه" [٣٦] ، والمقصود بالمسيحيين العرب السوريين هنا هم أمراء غسان المونوفيزيون الذين كانوا بطبيعة الحال ضد سياسة الامبراطور في فرض الوحدة الدينية. من هنا وصلت جيوش المسلمين دون قتال إلى أبواب دمشق، وقام منصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي وهو عربي مسيحي بتسليم المدينة صلحاً بعد انسحاب الحامية البيزنطية [٣٧] ، فأعطاه خالد بن الوليد الذي ما يزال المسلمون يذكرونه إلى الآن بلقب كاريزمي رمزي هو " سيف الله المسلول" عهداً كان نموذجاً للعهود التي أعطيت للمدن الأخرى. وضمن هذا العهد لـ" أهل دمشق" أماناً على أنفسهم وأموالهم، وكنائسهم، وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم. لهم بذلك عهد الله، وذمة رسوله (ص) والخلفاء المؤمنين، ولا يعرض لهم إلا بخير، إذا أعطوا الجزية" [٣٨] أي ضريبة حماية المسلمين لهم. وإذا كانت المسيحية ديانة مانعة لا تقبل التعايش مع أي دين غيرها كما يقول رانسيمان فإن الإسلام قدَّم

---

(36) غارودي، المصدر السابق، ص ١٢١.

(37) المصدر نفسه، ص ١٢١-١٢٢.

(38) أبو العباس البلاذري، فتوح البلدان، حققه عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، بيروت ١٩٥٧، ص ١٦٦.

نفسه، وثبت ذلك في عهود " الصلح" كديانة استيعابية جامعة تعترف بالأديان السماوية الأخرى وتهبها الحماية. ومن هنا كان المونوفيزيون المسيحيون والأرثوذكس - فضلاً عن اليهود - يحسون بحريتهم في ظل الأسياد المسلمين الجدد أكثر مما كانوا يحسونها في ظل الأسياد البيزنطيين. ولقد كانت الطبيعة الاستيعابية الجامعة بالإسلام نابعة من صلب مفهومه عن نفسه، كعودةٍ إلى العقيدة الإبراهيمية الأصلية، وتصحيح ما طرأ عليها، فوضع الإسلام نفسه كما بيَّنا في خط المسيحية واليهودية مع الأصل الإبراهيمي التوحيدي.

توجهت أنظار المسلمين إثر سقوط دمشق إلى القدس. ولا ريب أنهم كانوا على حس تاريخي بما يقع من أحداث أودت بالامبراطوريتين العظيمتين في القرن السابع الميلادي وهما امبراطورية فارس وبيزنطة. إلا أنهم نظروا إلى سقوط هاتين الامبراطوريتين في منظور فوق تاريخي، يعيد ذلك إلى إرادة الله بنصر دينه الحق، أي الإسلام وفق فهم المسلمين للدين الحق. وفي شروطٍ كان فيها الوجود الاجتماعي كله يكتسب شكل التجربة الدينية، لم يكن فتح القدس في الوعي الإسلامي، إلا تحقيقاً لوعدٍ محمدي نبوي مسبق يفسر في إطار الوعي الرمزي لجغرافية

الإسلام المقدسة: مكة، المدينة، القدس، وعالمية الدعوة وفريضة الجهاد في بسطها. ووفق هذا الوعي فإن الوعي الرمزي الإسلامي يظهر إبراز النبي لنعمة الإقامة في القدس والموت فيها، إذ يروي ذو الأصابع الجهني أنه سأل النبي " يا رسول الله، إن ابتلينا بعدك فما تأمرنا؟ فقال النبي: عليك ببيت المقدس، لعل الله القدير يرزقك ذرية تغدو إليه وتروح" (٣٩)، ويذهب في هذا الاتجاه حديث رواه أبو هريرة أن النبي قال " من مات في بيت المقدس، كأنما مات في السماء" (٤٠)، بل أن الوعي الرمزي الإسلامي يضع فتح القدس في صميم الرؤية النبوية، إذ يروى عن شداد بن أوس الخزري (توفي ٥٨هـ) أنه " لما دنت وفاة رسول الله (ص) قام شداد بن أوس ثم جلس، ثم قام ثم جلس، فقال النبي (ص) ما قلقك يا شداد؟ فقال: يا رسول الله ضاقت بي الأرض، فقال: ألا إن الشام سيُفتح إن شاء الله، وبيت المقدس سيُفتح إن شاء الله، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة بها إن شاء الله" (٤١). ومن هنا يرى المسلمون أن النبي كان يحثهم على طرد الروم (البيزنطيين) من

(39) ابن حنبل، المصدر السابق، ج٤، ص٦٧ قارن مع ضياء الدين المقدسي، ص٦٨

(40) العارف، المصدر السابق، ص ٤٣

(41) ضياء الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٧٠ قارن مع شراب، المصدر السابق، ص ٨٣

بلاد الشام ففي حديث منسوب إلى النبي بأنها كنانة الله من رماها بسهم رماه الله بسهم منه، وينسب إلى النبي أنه قال " أيها الناس، أريد الروم. لكن المنية فاجأته، فأكمل أبو بكر الصديق وصيته، وراح يستنفر العرب من أجل فتح الشام وليس بيت المقدس وحده، فجهز أربعة جيوش من أجل ذلك" (٤٢).

بهذا المعنى وضع المسلمون فتح القدس في إطار زمانٍ قدسي موصول بإرادة إلهية عليا. ولا ينفي هذا الزمن القدسي الزمن التاريخي وفاعلية البشر لكنه يضعه في إطاره. من هنا ما إن مرَّ شهر على فتح المسلمين لدمشق حتى جمع أبو عبيدة بن الجراح أمراء المسلمين للتشاور معهم عن الاتجاه القادم. فاتفقوا على سؤال عمر بن الخطاب، إن كانوا يتجهون أولاً إلى القدس أم إلى قيسارية. ووفق السردية الإسلامية، جمع عمر بن الخطاب بعض الصحابة، واشار عليه علي بن أبي طالب (الخليفة الراشدي الرابع لاحقا، وابن عم النبي) بالبدء بفتح بيت المقدس، فكتب عمر إلى أبي عبيدة كتاباً جاء فيه" ... قد أشار ابن عم رسول الله (ﷺ) بالسير إلى بيت المقدس، فإن الله سبحانه وتعالى يفتحها على يديك..."، وعندما وصل كتاب عمر إلى قادة المسلمين "فرحوا

(42) العارف، المصدر السابق، ص ٤٥

بمسيرهم إلى بيت المقدس، كما قال الواقدي" [٤٣] ، وأرسل من فوره خمسة من قادته يقود كل منهم خمسة آلاف فارس، وأشار عليهم ابو عبيدة إذا أشرفوا على القدس " أرفعوا أصواتكم بالتهليل والتكبير، واسألوا الله بجاه نبيه، ومن سكنها من الأنبياء والصالحين أن يسهل فتحها على أيدي المسلمين" [٤٤] . وبهذا المعنى كان السلاح الرمزي أساساً في السلاح الإسلامي، ويقول الواقدي، أنه ما نزل أحد من المسلمين على بيت المقدس، إلا وكبَّر وصلى ودعا بالنصر. ويرسم الواقدي حالة أمراء المسلمين قبالة أسوار القدس آنئذ " وكل أمير يريد أن يفتح على يديه (بيت المقدس) فيتمتع بالصلاة فيه، والنظر إلى آثار الأنبياء، ولما أضاء الفجر أذن، وصلت الناس صلاة الفجر، فقرأ يزيد لأصحابه، يا قوم، ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا، فيقال: أن الأمراء أجرى الله على ألسنتهم في تلك الصلاة أن قرؤوا هذه الآية كأنهم على ميعاد واحد" [٤٥] . ويشير ذلك إلى عمق القدس في وجدان المسلمين الذين توجهوا لفتحها، ورؤيتهم الدخول إليها على أنها قدر إلهي. من هنا نستطيع أن نفهم في

---

(43) أبو عبدالله بن عمر الواقدي، فتوح الشام، بيروت، دون تاريخ، ص ٢٢٩،

(44) المصدر نفسه، ص ٢٢٩،

(45) المصدر نفسه، ص ٢٣٠-٢٣١،

هذا السياق الذي يكتسب فيه الفتح أبعاد النظام الرمزي، أنه جرت في اليوم الخامس لحصار بيت المقدس، مواجهة بين يزيد بن أبي سفيان أحد قادة جيوش المسلمين الخمسة وبين المدافعين عن المدينة، وهم يشرفون عليه من على سورهم، حيث خاطبهم يزيد قائلاً " ماذا تقولون في إجابة الدعوة إلى الإسلام، وكلمة الإخلاص، وهي كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله... وإن أبيتم ولم تجيبوا فصالحوا عن بلدكم كما صالح غيركم، وهم أعظم منكم، وأشد، وإن أبيتهم هاتين الحالتين حلَّ بكم البوار... فإما الدخول في الإسلام، أو أداء الجزية، وإما السيف" (٤٦) .

ولعلنا نلاحظ هنا جمع يزيد ما بين المنطق الرمزي والمنطق الواقعي. غير أن المدافعين رفضوا عرضه، إلا أن يأس بطريرك القدس صفرونيوس من أي نجدة بيزنطية، وتناقص المؤن بعد أربعة أشهر من الحصار، والمنازلات حول الأسوار، أدت به إلى أن يقبل تسليم المدينة صلحاً، بعد أن ضمن خروج حاميتها البيزنطية إلى قيسارية الواقعة في مجال الحماية البحرية البيزنطية. بل تذهب إحدى الروايات الإسلامية، إلى أن صفرونيوس قد أدرج الفتح الإسلامي للقدس بعد يأسه من الدفاع عنها في مجاله الرمزي، إذ أن المنطق

---

(46) المصدر نفسه، ص ٢٣١

الديني هو منطق غائي بطبيعته، ويدرج كل شيء في إطار الإرادة بالنعمة أم بالنقمة، وتقول هذه الرواية أن صفرونيوس قد قال لأهل بيت المقدس بعد أن ألحوا عليه بتسليم المدينة " إننا نجد في العلم الذي ورثناه عن المتقدمين أن الذي يفتح الأرض في الطول والعرض هو الرجل الأسمر الأحور المسمى عمر صاحب نبيهم محمد، فإن كان قد قدم فلا سبيل لقتالهم... ولا بد لي أن أنظر إليه وإلى صورته، فإن كان إياه عمدت إلى مصالحته.. وإن كان غيره فلا نسلم إليه قط لأن مدينتنا لا تفتح إلا على يد من ذكرته .. "، وحين خرج البطريرك نحو السور ليتعرف على مدى اتصاف قائد المسلمين بتلك الصفات، خرج إليه أبو عبيدة، ونظر البطريرك إليه وقال " ليس هو هذا الرجل فأبشروا وقاتلوا " (٤٧) . من هنا دعا إلى القتال من جديد إلا أنه إزاء إلحاح المدافعين بالتسليم صلحاً، صعد مرة أخرى على السور وخاطب أبا عبيدة: ماذا تريدون منا في هذه البلدة المقدسة؟ فأجابه أبو عبيدة " نعم إنها شريفة ومنها أسرى نبينا إلى السماء، ودنا من ربه - كقاب قوسين أو أدنى - وأنها معدن الأنبياء وقبورهم فيها، ونحن أحق منكم بها...، فسأل البطريرك: فما الذي تريدون منا؟ قال أبو عبيدة: خصلة من

---

(47) المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

ثلاث: أولها أن تقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله لا شريك له، فإن أجبتم إلى هذه الكلمة كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا، أو تصالحونا وتؤدوا الجزية الينا... أو القتال.." فرفض البطريرك العرض، وقال لأبي عبيدة " أنا أقسم بالمسيح أنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة ما فتحتموها أبداً، وإنما يفتح هذه البلدة صاحب محمد اسمه عمر يُعرف بالفاروق، وهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم، ولسنا نرى صفته فيكم.." فسأله أبو عبيدة: " هل إذا رأيت الرجل تعرفه؟ فأجابة البطريرك: كيف لا أعرفه، وصفته عندي، وعدد سنينه وأيامه. فقال أبو عبيدة: هو والله خليفتنا وصاحب نبينا. فقال البطريرك: إن كان الأمر كما ذكرت... ابعث إلى صاحبك يأتِ فإذا رأيناه وتبينا، وعرفنا صفته ونعته فتحنا له البلد..". ولما كان هناك شبه كبير بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب، قرر القادة المسلمون تقديم خالد على أنه عمر، ليسهل ذلك أمر الفتح، وعندما رآه البطريرك قال: وحق المسيح كأنه هو ولكن باقي العلامات ما هي فيه، عندها قرر المسلمون الكتابة إلى عمر بهذا الشأن يطلبون إليه الحضور..." (٤٨).

(48) المصدر نفسه، ص ٢٣٣-٢٣٥.

لا ريب أن البطريرك صفرونيوس ما كان يرغب أن يسلم المدينة المقدسة صلحاً لمن هو دون منزلة الخليفة، بقد ما تذهب بعض الروايات إلى أن الخليفة عمر رغب أن يشرف بنفسه على توقيع عهد الصلح مع المدينة، نظراً لمكانتها المقدسة عند المسلمين الأوائل[٤٩]. إلا أن الوعي الرمزي الإسلامي وضع ذلك كله في إطار مروية رمزية تجعل المسلمين على موعد إلهي مسبق مع فتح القدس. ويعزز الأدب التاريخي العربي- الإسلامي هذا الوعي الرمزي، وهو ما نجد مثالاً له عند المؤرخ ابن كثير الذي يقول " إن عمر عندما كان شاباً، قدم في تجارة إلى دمشق، فجاء ديراً لراهب جلس عنده، وأدخله الراهب الدير، واطعمه وأسقاه، وجعل يحقق النظر فيه، ويتوسمه، ثم قال لعمر: " هل لك أن تكتب لي كتاب أمان على ديري هذا؟ ولم يزل بعمر حتى كتب له صحيفة بما طلب منه.. فلما قدم عمر لفتح بيت، أتاه ذلك الراهب، وهو بالجابية بتلك الصحيفة، فأمضاها له عمر" [٥٠]. بكلام آخر أدخل الوعي الإسلامي عملية فتح القدس بما هي حدث تاريخ في نظام رمزي فوق تاريخي يجعل فتح المسلمين للقدس تحقيقاً لإرادة إلهية عند المسلمين، ونبوءة تؤكد نفسها عند المسيحيين. من هنا يشير

(49) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٣٨٥

(50) ابن كثير، المصدر السابق، ج٧، ص ٥٩

المؤرخ الأزدي إلى أن البطريرك عندما رأى عمر أمامه قال " هذا والله الذي نجد صفته، ويكون فتح بلادنا على يديه، ثم قال لأهل بيت المقدس، انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة، هذا والله صاحب محمد بن عبدالله ففتحوا الأبواب، وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد والميثاق والذمة، ويقرّون له بالجزية" [٥١]. ولا ريب أن مظهر عمرالمتقشف والبسيط كان يجعله في إطار الوعي الرمزي واحداً من " رجال الله" إذ يصف لنا المؤرخ درابوبور المتعاطف مع اليهود، بأن أهل القدس الذين ألفوا الأبهة والفخامة في الثياب المذهبة للأباطرة البيزنطيين قد ذهلوا بعباءة عمر بن الخطاب المصنوعة من وبر الجمل، وبعيره الذي يحمل كل متاعه ومؤونته اليومية من التمر. " وما كان لهذا المشهد إلا أن يحدث أثراً حميداً في نفوس جمهور ساخط على حكومة اتصفت بالطغيان والوحشية" [٥٢].

عزّز العهد الذي قطعه الخليفة للبطريرك صفرونيوس هذا الأثر الحميد إلى حد بعيد. ويذكر المؤرخ العربي الكلاسيكي الطبري

---

(51) محمد بن عبدالله الأزدي، تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبدالمنعم عبدالله عامر، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٥٨

(52) غارودي، المصدر السابق، ص ١٢١

نصه كما يلي " بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، وأعطاهم أماناً لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أن لا تسكن ولا تهدم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منهم الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بَيعَهم وصُلُبهم فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع مع أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء، حتى يحصد حصادهم، ولى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذين عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان" [٥٣]. ويبدو أن التعهد بمنع اليهود من دخول القدس قد تم استجابةً لإلحاح البطريرك أكثر مما كان

---

(53) الطبري، المصدر السابق، ج٣،ص٦٠٩

يعكس موقفاً مسبقاً لدى الخليفة من اليهود، إذ عمل اليهود أدلاء له، في حين تنفي بعض الروايات الإسلامية صحة تعهد الخليفة بمنع اليهود من دخول القدس، ومهما يكن الأمر، فإن كلمات هذا العهد لم تكن جوفاء كما يقول غاسبار، فلم يحصل نهب ولا هدم، واحترمت ممارسة الطقوس الدينية، والأماكن المقدسة اليهودية والمسيحية احتراماً تاماً، وضمنت الحرية، وكان فتح القدس ألطف فتح عرفته هذه المدينة حتى أيامنا الحاضرة (٥٤).

ويذهب رابوبور بالاتجاه نفسه، حينما يقول " يجب أن نقر بأن إعلاناً كهذا يصدر في بداية القرون الوسطى، وتلتزم به جيوش المسلمين، يشهد على تسامح كبير مشوب بروح العدالة، فلم يسبق لأباطرة بيزنطة، ولا لأساقفة الكنيسة أن عبروا عن هذه المشاعر باسم المسيح، الذي بشر بدين المحبة، وكان لا بد لمثل هذه الدعوة الصادرة عن الخليفة أن تترك أعمق الأثر، لا في نفوس اليهود فحسب، وإنما في نفوس المسيحيين في سورية وفلسطين" (٥٥) فلقد كان فتحاً لم تشهد مثله المدينة خلال تاريخها الطويل والمأساوي في أغلب الأحيان، كما تشخصّ أرمسترونغ، وبالفعل

---

(54) غاسبار، المصدر السابق، ص ٥٦.

(55) غارودي، المصدر السابق، ص ١٢٢.

بمجرد استسلام المسيحيين لم يحدث قتل أو تدمير للممتلكات أو نزع للملكية، أو محاولة لإجبار السكان على اعتناق الإسلام" (٥٦).

إعادة اكتشاف المكان ودمغه بالقداسة

لا ريب أن القدس كانت حاضرة في مخيال كل مسلم شارك بحصارها حتى وإن لم يكن يعرف أي شيء فيها قبل ذلك. وينطبق ذلك على الخليفة عمر بن الخطاب الذي دخل المدينة المقدسة، مدينة الإسراء والمعراج والمسجد الأقصى في يوم اثنين وخرج منها في يوم جمعة، فكانت إقامته فيها عشرة أيام (٥٧). ولعل هيمنة الوعي الرمزي على إدراك المسلمين لوحدة جغرافيتهم المقدسة وترابط أطرافها، تتجلى أكثر ما تتجلى في أن أول عمل قام به الخليفة لم يكن إلا السعي لمعرفة مكان المسجد الأقصى والصخرة الشريفة التي يقول الإسلام إن النبي عرج منها إلى السماء. وبكلام آخر كانت إعادة اكتشاف المسلمين عبر خليفتهم لأماكنهم المقدسة في القدس هنا ذات أولوية تعلو على سائر الأولويات الأخرى. وقد رافقه - كما هو معروف - في استكشافه البطريرك صفرونيوس الذي أفنى عمره في خدمة العالم المسيحي،

(56) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص٣٨٦

(57) الأزدي، المصدر السابق، ص٢٥٩ قارن مع الواقدي، المصدر السابق،ص٢٤٢

وزار الخليفة برفقة البطريرك كنيسة القيامة، وبينما هو داخلها حانت الصلاة، فصلى في مكان على مقربة منها، وليس في داخلها كما دعاه صفرونيوس، وذلك خشية من أن يتخذ المسلمون صلاته داخل الكنيسة ذريعة لوضع أيديهم عليها، وقابل النصارى عمله بالعرفان والشكر [٥٨]. ثم تابع عمر سيره مع أربعة آلاف من أصحابه، حتى وصلوا جبل موريا الذي يقع عليه هيكل داوود المندثر، أو المسجد الأقصى أو مسجد داوود حسب المسلمين، إضافةً إلى الصخرة الشريفة. ولا ريب أن الصورة القدسية المسبقة التي كان يرى فيها الخليفة والمسلمون المسجد والصخرة مسبقاً قد اصطدمت بواقعٍ مقيت، إذ تحول المكان المقدس إلى موقع للزبالة بعد أن تم تخريبه، وتجمعت فيه الأقذار، فأصبح عبارة عن مزبلة ضخمة. غير أن هذا الوقع المقيت لم يؤثر أدنى تأثير على رسوخ تقديس مكانه. ويشير المؤرخ الحنبلي إلى ذلك قائلاً " فنظر عمر وتأمل ملياً، ونظر يميناً وشمالاً، ثم قال: " الله أكبر، هذا والذي نفسي بيده مسجد داوود عليه السلام، والذي أخبرنا رسول الله (ﷺ) أنه أسرى به إليه" ووجد على الصخرة زبلاً كثيراً مما طرحه الروم غيظاً لبني إسرائيل، فبسط عمر

---

(58) العارف، المصدر السابق، ص ٤٨،

رداءه، وجعل يكنس الزبل، وجعل المسلمين يكنسون معه الزبل، ثم مضى نحو محراب داوود، وهو الذي على باب البلد في القلعة، فصلى فيه ثم قرأ سورة (ﷺ) وسجد "[٥٩]. كان كعب الأحبار وهو يهودي أسلم أحد أدلة الخليفة في رحلته الاستكشافية، من هنا شرع الخليفة بعد أن أزال وأصحابه المزبلة من على الصخرة ببناء مسجد يصلي فيه المسلمون على أنقاض مسجد داوود، الذي هو هيكل داوود عند اليهود. ورغم أن الروايات تختلف حول مجريات ذلك إلا أنها تتفق في النهاية على أن الخليفة بنى مسجداً في المنطقة التي كانت مليئة بالتراب بجوار الصخرة المقدسة، وحول دور كعب الأحبار يذكر البكري أن عمر سأله " أين ترى أن نجعل المسجد؟ فقال (كعب الأحبار) خلف الصخرة، فتجمع القبلتين ، قبلة موسى وقبلة محمد، فقال عمر، لم تنس اليهودية يا أبا إسحاق، ويحدثنا ابن البطريق عن موضع المسجد، الذي بناه عمر بالنسبة للصخرة، فيقول، قال قوم، نبني المسجد، وتصير الصخرة في القبلة، فقال عمر: لا بل نبني المسجد وتصير الصخرة في آخر المسجد، فبنى عمر المسجد، وصير الصخرة في آخر المسجد، وعندما اكتمل بناء المسجد، وافق بلال

---

(59) الحنبلي، المصدر السابق، ص ٢٣٧

مؤذن الرسول على الأذان افتتاحاً لأول صلاة في المسجد" (٦٠).

كان بلال قد توقف عن أداء الأذان من يوم وفاة النبي، إلا أنه لم يستطع أن يردَّ طلب الخليفة بأداء الأذان، ولعل قدسية المكان في الوعي الرمزي الروحي الإسلامي هي التي تحكمت بذلك، إذ يشير بعض المؤرخين إلى أن بلالاً أجاب الخليفة " يا أمير المؤمنين، أما والله ما أردت أن أؤذن لأحد بعد رسول الله (ص)، ولكن سأُطيعك اليوم، في هذه الصلاة وحدها" (٦١)، ولعلنا نتعرف على الأثر الرمزي لذلك على المسلمين في المروية الإسلامية التي تشير إلى أنه لما قال بلال: الله أكبر " خشعت جلودهم، واقشعرت أبدانهم، ولما قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. بكى الناس بكاء شديداً " (٦٢).

(60) السيوطي، المصدر السابق، ص ١٧٧-١٧٨.

(61) الأزدي، المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(62) الواقدي، المصدر السابق، ص ٢٣٩.

من الديانات المانعة
إلى الديانة الجامعة
أو تعايش الرموز

كان وصول المسلمين إلى القدس موطن بعض أعظم الأنبياء وأولى القبلتين وآخرها في نهاية العالم، نوعاً من عودتهم إلى أصلهم المؤسس، أي العودة إلى مدينة آبائهم في العقيدة. وشكل ذلك فرصة ليجسدوا للإسلام وجوداً أرضياً في قلب تلك الموروثات القديمة المقدسة، بطريقة تمثل استمرارية رؤية الإسلام لتكامله مع الأديان التوحيدية وتتويجها. فإلى جانب تأكيد قداسة مكان المسجد الأقصى في الجغرافية الإسلامية المقدسة، واجهتهم مهمة إعادة الهيبة إلى تلك البقعة نفسها التي تم تدنيسها على نحو بشع بالقاذورات. من هنا رفض عمر بن الخطاب اقتراح كعب الأحبار بناء المسجد الأقصى في بقعةٍ شمال الصخرة، لن ذلك سيجعل الصخرة في مرمى سجودهم عندما يتوجهون إلى الكعبة. ولقد برهن في ذلك على تمسك المسلمين بمبدأ استقلال الإسلام عن العقائد التوحيدية السابقة ضمن تصور توحيدي لموقعه في خاتمتها. فقرر بناء المسجد عند الحافة الجنوبية للدكة. وكان مبنى المسجد خشبياً متواضعاً يتماشى مع مبدأ التقشف لدى المسلمين الأوائل (٦٣) . وقد ذكر الأسقف الفرنسي

(63) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٣٨٩.

أركوف الذي حج إلى القدس في عام ٦٧٠م، أن العرب المسلمين كانوا يترددون على مكان مربع الشكل مشيد بالحجارة، أقاموه بواسطة دعامات خشبية كبيرة ترتكز على بقايا خرائب. وهو ما يفترض أن الخليفة عمر بنى مكاناً متواضعاً للعبادة على ساحة الحرم، الذي يوافق المكان الحالي للمسجد الأقصى [٦٤]. ويصف أركوف القدس في حينها، فيقول " كان على سور بيت المقدس يومئذ ٨٤ برجاً، وله ستة أبواب ثلاثة فقط تستعمل للدخول والخروج. واحد منها غربي المدينة والثاني شمالها والثالث شرقيها. ويؤتى بالخشب إلى بيت المقدس من غابة كثيفة واقعة على بعد ثلاثة أميال من الخليل إلى الشمال "[٦٥].

رسخ عمر بن الخطاب في سلوكه في القدس الإسلام كديانة جامعة وليس كديانة مانعة لا تعترف بأي دين آخر غيرها. وفي ضوء ذلك نفهم ترسيخ الاعتراف الإسلامي الأصلي بأهل الكتاب المسيحيين واليهود بوصفهم منحدرين من الأصل الإبراهيمي التوحيدي الأول. من هنا إذا كان الطبري قد أورد في نصه للعهد، والذي سردنا نصه في الصفحات الآنفة الذكر، أن عمراً قد استجاب لطلب صفرونيوس في الاستمرار بالأمر الروماني بحرمان

(64) سولانج أوري، ومارغريت فان برشيم، المصدر السابق، ص ر٣١

(65) السيوطي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ر١٩٤

اليهود من دخول القدس، فإن الكثير من المؤرخين يذهبون إلى أن عمراً لما قدم القدس، قبل شروط البطريرك جميعها ما عدا الشرط الخاص بحرمان اليهود من دخول القدس " معتذراً بأن القرآن قد حدد ما لأهل الكتاب وما عليهم، وليس فيه شيء يسمح بهذا، لكنه تعهد له بألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حاراتهم"(٦٦). وبهذا المعنى كان الإسلام بوصفه ديانة جامعة مانعة يضمن عبر رؤيته التوحيدية للأصل الإبراهيمي للكتابيين بمن فيهم المسلمون التوازن ما بين المسيحيين واليهود الذين كانت العلاقة ما بينهم طيلة الحقبة البيزنطية، حقبة إقصاء واضطهاد متبادل. وكان عمر في ذلك يفتح المدينة أمام اليهود الذي يقدسونها بعد أن كانوا ممنوعين منذ مرسوم تيطس من دخولها. ولم يكن ذلك مكافأة براغماتية على مساعدة اليهود المسلمين كأدلاء بقدر ما كان يصدر عن المستوى العقيدي الإسلامي نفسه" لذا قام عمر بدعوة سبعين عائلة من طبرية للاستيطان في بيت المقدس، وخصصت لهم المنطقة الواقعة حول بركة سلوان في الركن الجنوبي من الحرم، وكانت تلك منطقة قد دُمرت أثناء الغزو الفارسي عام ٦١٤م... وسمح لهم أيضاً بتشييد معبد عرف " بالكهف" قرب الجدار المساند الذي يعتقد أنه كان موجوداً في

---

(66) شراب، المصدر السابق، ص ٩٢,

الأقبية أسفل الدكة. وتقول بعض المصادر إنه كما سمح للمسيحيين بالصلاة في مسجد المدينة، فقد سمح أيضاً لليهود بالصلاة على الدكة نفسها، وقد تم توظيف بعض الذميين من اليهود والمسيحيين حراساً، وخدماً في الحرم. وقد أتاح لهم ذلك الامتياز الإعفاء من دفع الجزية" (٦٧) . من هنا يشير رابوبور إلى أنه بعد الفتح الإسلامي " تحسن وضع اليهود على نحو ملموس، وزاد نشاطهم الثقافي .. وفي عهد الخلفاء المسلمين استطاعت أكاديمية طبرية أن تنتقل إلى القدس لتصبح مركز إشعاع ثقافي: فلقد جرى فيها تثبيت النصوص العبرانية للعهد القديم. وفي فلسطين تم آنذاك تأليف أجمل تراتيل الصلوات الدينية اليهودية" (٦٨). أما بالنسبة للمسيحيين، فلم يكن من المستغرب أن يرحب المسيحيون النساطرة واليعاقبة على حد سواء بالمسلمين، وأن يجدوا الإسلام أفضل من بيزنطة، وقد أشار المؤرخ ميخائيل السرياني المعروف باليعقوبي أن المسلمين" لم يضطهدوا أحداً بسبب إعلانه عن عقيدته، وذلك خلافاً لما فعله اليونانيون، الذي هم أمة من الهراطقة" . وتركزت الأماكن المسيحية المقدسة على التل الغربي، وظلت تلك المنطقة منطقة مسيحية. فلم يستوطن المسلمون هذا

---

(67) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٣٩٢ -٣٩٣.

(68) غارودي، المصدر السابق، ص ١٢٦.

الجزء، رغم أنه كان ذا مناخ ملائم، وأكثر برودة من منطقتهم في أسفل الحرم، وسمح للمسيحيين ببناء كنائسهم وترميمها دون قيود. وشهد القرنان السابع والثامن الميلاديان فيضاً من تشييد الكنائس في فلسطين والشام. أما المكان الوحيد الذي كان المسلمون يتعبدون به بأعداد كبيرة، فهو حرمهم الخاص في المسجد الأقصى (٦٩) . وقد تجلى تقدير عمر والمسلمين عموماً للقدس في نوعية القادة الذين بوأهم مواقع المسؤولية عن شؤون القدس، فأقام يزيد بن أبي سفيان عليها، على أن يأتمر بأوامر أبي عبيدة (٧٠) الذي وضعه على دمشق، وانتدب سلامة بن قيصر للصلاة من بعده بالمسلمين (٧١) ، كما وضع عمير بن سعد أحد قادة جيش الفتح على رأس الجند في فلسطين، وعرف عن هذا القائد معاملته الكريمة للذميين، وأصبح الصحابي عبادة بن الصامت وهو أحد خمسة من أهم المتخصصين في علوم القرآن في زمنه قاضياً لبيت المقدس(٧٢).

دفعت مكانة القدس في المنظومة الجغرافية الإسلامية الكثير من

---

(69) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٣٩٢-٣٩٣،

(70) العارف،المصدر السابق، ص،٥٠

(71) السيوطي، المصدر السابق، ص ،١٩٤

(72) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٣٩٥-٣٩٦،

الصحابة إلى زيارتها أو الإقامة فيها، وقد حرص البعض على أن يمضي بقية حياته فيها، طالما أن الرؤية الإسلامية تعتقد أن القدس أرض الحشر والنشور يوم القيامة، وأن الموت فيها يحمل لصاحبه أجراً كبيراً. وقد أضافت زيارة هؤلاء الصحابة، ودفن رفات بعضهم في القدس معانٍ إضافية على مكانتها، فنشأت حزمة من الموروثات والمرويات التي قدمت لائحة بأسماء الصحابة والتابعين الذي قدموا إلى القدس بقصد زيارتها والتبرك بها. ومنها أن عمر بن الخطاب زارها عند الفتح، وأن أبا عبيدة بن الجراح (ت١٨ هـ) قائد الجيوش الإسلامية أثناء دخول القدس قد مات وهو في طريقه إليها يريد الصلاة في المسجد الأقصى، وزارها بلال بن رباح (ت١٩هـ) وأذَّن فيها أول أذان له بعد وفاة النبي، ودخلها خالد بن الوليد (ت٢١هـ) ويزيد بن أبي سفيان (ت١٨هـ)، ومعاوية بن أبي سفيان الذي بويع خليفة في القدس، وعبادة بن الصامت (ت٣٤هـ) أول قاضٍ في فلسطين، سكن ببيت المقدس ودفن فيها، وشوهد يبكي على سور بيت المقدس الشرقي، وروى حديث بشأن " الساهرة" أرض المحشر، كما قدمت صفية بنت حيي (ت ٥٠ هـ) زوجة النبي بيت المقدس، وصعدت طور زيتا، وصلّت فيه، وقامت على طرف الجبل، وقالت: من ها هنا يتفرق الناس يوم القيامة إلى الجنة وإلى النار، ودفنت في البقيع. وسكن

أبو ريحانة في بيت المقدس وكان يعظ في المسجد الأقصى، كما زارها الصحابي سعد بن أبي وقاص (ت٥٦هـ) مع أبي الدرداء (عويمر) وعمرو بن العاص (ت٥١هـ) كما زارها الصحابي سليمان الفارسي (توفي ٣٦هـ)، وعياض بن غنم (ت ٢٠هـ)، أما الصحابي أبو هريرة (ت ٥٩هـ) فقد شهد فتح بيت المقدس، فهو الذي روى حديث " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد"، الذي جعل شد رحال المسلمين إلى القدس واجباً دينياً، كما زارها عبدالله بن عمر (ت ٥٦هـ) وعبدالرحمن بن سلام (ت٤٣٧هـ) وعبدالرحمن بن غنم الأشعري (ت ٧٠ هـ)، وقدم معاذ بن جبل الذي لازم النبي منذ أن أرسله إلى اليمن بيت المقدس، وفقّه فيها عامة التابعين، وأقام بها ثلاثة أيام ولياليها يصوم ويصلي، فلما خرج منها، أقبل على أصحابه فقال: أما ما مضى من ذنوبكم فقد غفر لكم، فانظروا ما أنتم صانعون فيما بقي من أعماركم. كما سكن بيت المقدس ومات فيها ودفن في مقبرة الرحمة شداد بن أوس ابن أخ حسان بن ثابت شاعر النبي (ت٥٨هـ)، وهو الذي روى عن النبي حديث " أن الشام ستفتح وبيت المقدس سيفتح"، كما أقام أثلة بن الأسقع (ت٨٥هـ) في القدس وتوفي فيها، وكذلك ذو الأصابع التميمي الذي قال له النبي: " عليك ببيت

المقدس" . ويروى أن الصحابي مسعود الأنصاري عقبة بن عمر الأنصاري (ت٣٩هـ) قد أتى بيت المقدس، فدخل المسجد الأقصى، ورآه ناس فاتبعوه لأنه صاحب رسول الله. كما يقال أن تميم الداري بن أوس (ت ٣٩هـ) هو أول من أسرج السراج في المسجد الأقصى، كما أن فيروز الديلمي سكن بيت المقدس ومات فيها [٧٣]. ويعني ذلك أن الجيل الأول للدعوة الإسلامية وهو جيل الصحابة قد رسخ العلاقة ما بين مكة والقدس عملياً، وغرس جذوره في القدس ليتبعه في ذلك ما يسمى إسلامياً بالتابعين اي الجيل الثاني الإسلامي وتابعي التابعين ومن تبعهم حسب سلسلة أجيال الدعوة الإسلامية. ويمثل المسلمون حالياً بهذا المعنى جزءاً من هذه السلسلة التي تعود إلى الجيل المؤسس الأول جيل النبي والصحابة الذي رسخ مكانة القدس في الوعي الإسلامي.

---

(73) الحنبلي، المصدر السابق، ص٢٣٤-٢٣٦, قارن مع شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٠١-٣٠٢، و٣١٠-٣١١و٣١٨،و٣٢٣-٣٢٥, وقارن مع شراب، المصدر السابق، ص ٣٥٥-٣٥٦,

الفصل الرابع

القدس في العصر الأموي

أبَّهة المقدس

آلت الخلافة في العهد الذي يسميه المسلمون بالعهد الراشدي إلى الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، الذي اهتم ببركة سلوان في القدس، وبنى حديقة عامة شاسعة حولها مخصصة لفقراء المدينة [1]، وحين قتل هذا الخليفة في عام ٦٥٤م فيما يعرف في التاريخ الإسلامي بـ" الفتنة الكبرى" انتقلت سلطة الخلافة إلى الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب. وقد قتل هذا الخليفة بدوره لتنتهي بذلك دورة الخلفاء الراشدين في التاريخ الإسلامي، ويبدأ دور الخلافة الأموية بمبايعة معاوية بن أبي سفيان خليفة للمسلمين في سنة ٤٠هـ[2]. وما يهمنا من ذلك أن هذه المبايعة قد تمت وفق ما يذكره الطبري والمسعودي وأبو الفداء في القدس[3]. ولعل مكانة القدس لدى الخليفة الأموي الأول تتجلى في أنه كان دائم التردد عليها والتبرك بها، إذ قام في سنة مبايعته

---

(1) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٣٩٦.

(2) الطبري، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦١.

(3) علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، السفر الثاني، دمشق ١٩٨٨، ص ٢٨٠ – ٢٨١. قارن أبو الفداء، المصدرالسابق، ج١، ص ١٨٤.

بالصلاة عند جبل الجلجلة (أو جبل الصلبوت)، ثم ذهب إلى الجسمانية وصلى عند قبر السيدة مريم، وهما من أقدم الآثار المسيحية في المدينة [٤]. وسيكون ذلك فاتحة اهتمام الخلفاء الأمويين بالقدس، والحرص على زيارتها، وعمارة أماكنها في سياق عمارة الأمكنة الإسلامية المقدسة في مكة والمدينة والقدس. وإذا كان البعض يرى أن الأمويين قد نقلوا عاصمة الخلافة إلى دمشق لأن أرض الحجاز كانت لا تزال هاشمية الولاء [٥] أي تدين بالولاء لعلي بن أبي طالب وأسرته، فإن هذا النقل في المنظور التاريخي كان متسقاً مع توسع الامبراطورية الإسلامية، التي امتدت في حكم معاوية من جبل طارق إلى جبال همالايا، ومع أن تكون العاصمة أقرب إلى نقطة المركز وعقدة طرق المواصلات في الامبراطورية. غير أنه كان يلبي في الآن ذاته رغبة معاوية في أن تكون العاصمة في الشام حيث القدس، إذ أن معاوية الذي تولى الخلافة بعد انشقاق كبير في الأمة الإسلامية، قد فكر في أن يجد بركة القدس سنداً رمزياً لخلافته، وليجعلها تشمل الشام[٦].

---

(4) الحسيني، المصدر السابق، ص ٥٠.

(5) شوفاني، المصدر السابق، ص ١٦٨-١٦٩.

(6) عبدالعزيز الدوري، فكرة القدس في الإسلام، مجلة شؤون عربية، بيروت، عدد ٢٤، ١٩٨٣، ص ١٤١.

ولعل هذا ما يفسر توسعه في تفسير مفهوم الأرض المقدسة كي تشمل الشام كلها، إذ قال لصعصعة بن صوحان وقد قدم عليه " قدمت خير مقدم، قدمت أرض الحشر"، وفي رواية له عن خالد بن معدان عن أبي فتيلة أن الرسول قال " عليك بالشام فإنها خير الله من بلاده ويجتبي إليها خيرته من عباده"(٧). وتشمل قداسة الشام هنا القدس وتخصها، إذ صار ممكناً في ضوء ذلك أن يشمل تقديس الشام كلها، وأن تكون الشام المجال الذي تشع فيه قداسة القدس. من هنا تم إعادة بناء عشرات الأحاديث المنسوبة إلى النبي التي تبجل الشام كي تؤكد هذه المكانة في أصول الوعي الإسلامي. ومن هذا القبيل ما يرويه عمير بن هانىء أنه قال" خطبنا معاوية بن أبي سفيان فقال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: لا تزال طائفة من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس، فقام مالك بن يخامر، فقال: سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم بالشام، فقال معاوية: هذا مالك بن يخامر زعم أنه سمع معاذ بن جبل يقول: وهم أهل الشام"(٨). والحديث الذي يروى عن

---

(7) ابن العديم،بغية الطلب في تاريخ حلب، ج١،حققه سهيل زكار، دمشق ١٩٨٨،ص٣٣٧.

(8) ابن عساكر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٥٦-٥٧.

زيد بن ثابت والذي يقول " طوبى للشام، إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه "(٩) .وفي إطار هذه المركزية الشامية للامبراطورية العربية الإسلامية حرص الخلفاء الأمويون على منح القدس مكانة خاصة، فولُّوا الأمراء الأمويين عليها، مثل عبدالملك بن مروان وسليمان بن عبدالملك اللذين سيغدوان خليفتين، أو مثل عمر بن سعيد الأنصاري وابن مجدل الكلبي اللذين يعتبران من أميز القادة الأمويين. ومن هنا يمكننا فهم ما تشير إليه بعض الروايات من أن الأمويين حرصوا على أن يكون للقدس والٍ وقاضٍ خاصان بها، كما حرصوا على تعريبها " لحرمتها وقداستها"(١٠).

قبة الصخرة :
أبهة المقدس ودلالاته الرمزية

شهدت عمارة القدس أزهى أيامها في زمن الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) وأبنائه من بعده. وقد كان هذا الخليفة مهاباً و" معدوداً من فقهاء المدينة، ويُقرن بسعيد بن

---

(9) الإمام المنذري، الترغيب والترهيب، ج٤ ،حققه مصطفى محمد عمارة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٦٩، ص ٥٩-٦٣, حيث يذكر ثمانية عشر حديثاً عن فضائل الشام.

(10) الدوري، المصدر السابق، ص ١٤٧-١٤٨,

المسيب وعروة بن الزبير [١١] ,وبالتالي كان بحكم علمه الفقهي على دراية تامة بمكانة القدس في المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة، ولعل هذا ما يفسر أنه بدأ ببناء جامع الصخرة بعد عام واحد من توليه الخلافة، فابتدأ بإصلاح أسوار القدس، وبوابات المدينة، وشيد دار الإمامة، أي مقر الحاكم بجوار الحرم [١٢]. غير أن أعظم إسهاماته المقدسية سيكون دون أي شك في بناء مسجد قبة الصخرة. وقد حرص عبدالملك على أن يشرك المسلمين بذلك و" كره أن يفعل ذلك دون رأي رعيته" على حد قول الحنبلي " فكتب الرعية إليه برأيهم فوردت الكتب عليه من شتى عمال الأمصار، ترى رأي أمير المؤمنين موفقاً رشيداً " [١٣]. وبذلك حرص عبدالملك على تكريس قداسة القدس في الوعي الإسلامي كله، إلا أنه لغايات التشرف والتبرك أعطى نفسه حق الإشراف على بدء العمل بنفسه، فقدم من دمشق إلى بيت المقدس، و" جمع الصناع، وأمرهم أن يصفوا له صفة القبة من قبل أن يبنيها، فكرست له في صحن المسجد... فأشحن بالأموال، ووكل على

---

(11) الشيخ محمد الخضري بك، محاضرات في تاريخ الأمة الإسلامية، ط٦ ،القاهرة، ١٣٧٦هـ، ص ,١٣٨

(12) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ,٣٩٩

(13) عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص ,٢٤١

ذلك رجاء بن حيوة، ويزيد بن سلام، وعلى النفقة عليها، والقيام بأمرها، وأمرهم أن يفرغوا المال عليها أفراغاً دون أن ينفقوا إنفاقاً"[١٤]. وخصص " خراج مصر على مدى سبع سنين "[١٥] لخدمة بناء قبة الصخرة وحدها. لا ريب أن عبدالملك قد أراد بهذا العمل " أن يؤكد حرمة القدس، وأن يكسب نفوذاً بين المسلمين"[١٦]، إلا أن حماسه لذلك المؤسّس على مكانة القدس الروحية والرمزية إسلامياً، قد تجاوز العامل السياسي الوقتي، المتعلق ببراغماتيات السياسة الأموية في المجال الإسلامي، فليس صحيحاً ما ذهب إليه اليعقوبي، من أن غرض عبدالملك من هذا البناء هو نقل الحج من مكة إلى بيت المقدس، بسبب وقوع مكة تحت سيطرة منافسه عبدالله بن الزبير. إذ أراد اليعقوبي بحكم نزعته الشيعية النيل من سمعة بني أمية، فقد دلت الوقائع التاريخية أن الحج استمر مع سيطرة عبدالله بن الزبير على مكة، " ففي عام ٦٨ هـ وافت جبل عرفات أربعة ألوية للحج: ابن الحنفية في أصحابه في لواء، وابن الزبير في لواء، ونجدت الحروري في لواء، وبني أمية في لواء، وبعد مقتل عبدالله بن الزبير كان يقيم الحج

(14) شهاب الدين مقدسي، المصدر السابق، ص ,١٧٢

(15) المصدر نفسه، ص ,٧٢ قارن مع الحنبلي، المصدر السابق، ج١،ص,١٤١

(16) الدوري، المصدر السابق، ص ,١٤٢

عمال بني أمية"[١٧]، كما أن اليعقوبي نفسه يذكر أن عبدالملك قد حج في سنة ٧٥هـ/ ٦٩٤م، فكيف يقوم نفسه بالحج ويمنعه عن الناس؟ فضلاً عن أن حكم بن الزبير على مكة قد انتهى في سنة ٧٢ هـ وهو نفس العام الذي اكتمل فيه بناء القبة.

لا يتعلق الأمر إذن بغاية سياسية ترمي إلى استبدال الحج من مكة إلى القدس، لكن يمكن القول إن عبدالملك أراد بهذا العمل أن يؤكد حرمة القدس، وأن يكسب نفوذاً بين المسلمين على حد تقدير عبدالعزيز الدوري، إلا أن حماسه لذلك كان يتجاوز العامل السياسي الوقتي، يفهم من رواية لشهاب الدين المقدسي، أن عبدالملك أراد أن يواجه روعة الكنائس المسيحية التي كانت تمتلىء بها القدس، بتشييد معلم معماري على الصخرة يكرس الوجود الإسلامي في القدس، وربما كي يبرهن للمسيحيين الذين اعتادوا أن يسخروا من مسجد المسلمين الخشبي المتواضع في منطقة الحرم[١٨] كما جاء في شهادة أركوف، أن لدى المسلمين رؤية مقدسة يمكن التعبير عنها بشكل مهيب. فشيد القبة التي تجلّل الصخرة، والتي تحيط بها كنائس شهيرة مقامة حول صخور وكهوف، مثل كنيسة القيامة، وكنيسة الجلجثة، وأيضاً كنيسة

(17) الخضري بك، المصدر السابق، ج٢، ص ١٦٤.

(18) الدوري، المصدر السابق، ص ١٤٢.

الميلاد، وكنيسة الصعود. وتعد كل تلك المواقع تخليداً للتجسد.
ثم ارتفع بناء عبدالملك الفخم ليتحدى كل هذا[19]. ويقول بريكز " هناك غاية واحدة كانت تواكب التفكير العربي، وهي الرغبة في تمجيد وحماية صخرة أورشليم المقدسة، التي سبقت فحظيت بالتقديس من اليهود والمسيحيين على حد سواء، بل كان يحدوهم كذلك الشوق إلى إقامة بناء ينافس، بل يفوق الكنيسة المسيحية الشهيرة القريبة، والمعروفة باسم كنيسة القبر الأقدس، وجعل " المشهد " الجديد في وسط هضبة صخريه عظيمة عرفت بالحرم الشريف"[20]. ولا ريب أن عمل عبدالملك قد أكسب الخلافة الأموية هيبة خاصة حتى من خصومه العباسيين الذين سيطوحون بالدولة الأموية، إذ يذكر الجهشاني (توفي ٩٤٢م) أن سليمان بن عبدالملك قال " أن أمير المؤمنين عبدالملك بنى مسجد بيت المقدس على هذه الصخرة، فعرف ذلك له" " واعترف العباسيون فيما بعد بمأثرته"[21].

امتازت قبة الصخرة بتصميمها الفريد في تاريخ العمارة

---

(19) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٠٢.

(20) مارتن. س. بركنز، الهندسة المعمارية، (جمهرة من المستشرقين بإشراف سر توماس أرنولد، ط٢، تعريب جرجس فتح الله، بيروت ١٩٧٢، ص ٢٣٦.

(21) الدوري، المصدر السابق، ص١٤٣-١٤٤.

الإسلامية، ومزجت ما بين جمال الهندسة المعمارية والذوق العربي مع الاستفادة من الأسلوب البيزنطي، إذ شارك في بنائها صناع من العرب والبيزنطيين بإشراف: رجاء بن حيوة أحد علماء الإسلام من بيسان، ومن جلساء عمر بن عبدالعزيز، ويزيد بن سلام من القدس. وقد روعيت أمور عدة في بناء القبة، فقد بنيت فوق قبة الصخرة الشريفة، وروعي اختيار الشكل الثماني، وهو أقرب الأشكال إلى الخط الدائري، المعبر عن اللانهائية، والقبة المركزية المزدوجة، إذ كان يمثل أسلوباً معمارياً شائعاً في بلاد الشام، والأبواب في الاتجاهات الأربعة، واستخدام الحرف العربي، لغة القرآن في الزخرفة، زخارف الفسيفساء "الأرابيسك"، تدفع إلى الصفاء الروحي، فضلاً عن استعمال النسب الهندسية في التصميم والزخرفة، كما هي الحال في السقف والداخل[22]. وقد ارتفع البناء على ساحة الحرم الشريف فوق صخرة مسطحة تثير ذكرى مقدسة مرتبطة بإبراهيم الخليل والنبي محمد معاً، من دائرة مركزية تحمل قبة محاطة بمجازين محددين بجدار مثمن[23]. فيحيط بناء مثمن بالقبة، وفي داخله مثمن أوسط، له ثماني دعائم، وستة عشر عموداً، ويبلغ طول الدعائم ثلث ارتفاع

(22) العاقل، المصدر السابق، ص ٣٢٥-٣٢٦.

(23) جورج مارسيه، الفن الإسلامي، ترجمة عفيف بهنسي، دمشق ١٩٦٨، ص ٣٥.

القبة[٢٤]. وأما القبة فتتألف من قبة خشبية يبلغ قطرها أكثر من عشرين متراً، وترتكز على قبة عالية قليلاً تتخللها ست نوافذ، وتقوم القبة على أربع ركائز، واثني عشر عموداً مرتبة على شكل دائري حول الصخرة المشرفة، يحيط بها المثمنان المتوازيان. ويبلغ محيط الأولى ٢٤,٤٥ متراً في حين يبلغ الثاني ٢٠,٦٠ متراً. حيث يؤلفان رواقين يستخدمان للطواف حول الصخرة حسب التقاليد الإسلامية [٢٥]. واحتلت القبة الموقع المركزي من البناء، وتم عمل ممرين مستديري الشكل للسير حولها، وأنشيء عليها أربعون عموداً [٢٦]. من هنا يقوم البناء على حائط خارجي مثمن الأضلاع، تليه دائرة وسطية من الدعائم والأعمدة تحيط بالصخرة التي تتوسط المبنى، وترتكز عليها قبة خشبية، ويفصل بين التثمينة الخارجية ودائرة القبة الداخلية تثمينة وسطية من الدعائم تعلوها عقود دائرية مدببة، وقد نجم عن التثمينة الوسطية رواقان خارجي وداخلي غطيا بسقف خشبي[٢٧]. وكي يعالج المعمار مسألة الإضاءة، والتهوية في بناء القبة المسقوف، فإنه استحدث نافذة في كرسي القبة، كما فتح في كل ضلع من أضلاع المثمن

(24) غاسبار، المصدر السابق، ص,١٧

(25) فان برشيم وأوري، المصدر السابق، ص,٤١

(26) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ,٤٠٢

(27) العاقل، المصدر السابق، ص٣٢٦ -,٣٢٨

الخارجي خمس نوافذ تعلو الطاقات الوسطى التي تتخلل الوجه الخارجي لتلك الأضلاع. والغاية من استخدام الطاقات الصماء المذكورة هي إحداث نوع من الانسجام الفني بين الأضلاع لتكون نوعاً من التجسيم بفعل تفاوت الظلال التي تحدثها(٢٨). وقد اقتضت ضرورات معمارية ودينية هذا التصميم الثماني، فالتخطيط المضلع المثمن زاد في عناية البناء، في حين أن التخطيط الدائري سهل عليه ارتكاز القبة ذات السقف الدائري، أما الرواق الخارجي، فقد حقق غرض الطواف حول الصخرة للتبرك بها، كما أن الرواق الداخلي استخدم للغرض نفسه، علاوة على إقامة الصلاة فيه. من هنا رأى كثير من الباحثين أن تصميم قبة الصخرة لم يكن مشابهاً لتصميم الكنائس المحلية والأجنبية، وأن هذا التصميم كان ملائماً للغرض العبادي الذي أنشيء من أجله(٢٩).

ترجع الكسوة الفسيفسائية التي تزين قبة الصخرة، وواجهات جدرانها، وأعلى الأعمدة المثمنة والدائرية، والتي تبلغ مساحتها أكثر من ألف ومائتي متر مربع، إلى زمن إقامة البناء في عهد عبدالملك. وليس مبالغة القول إن هذه المجموعة الزخرفية تعتبر فريدة من نوعها في تمثيل الفن التصويري في العصر الأموي،

---

(28) فان برشيم وأوري، المصدر السابق، ص٥٢-٥٣.

(29) العاقل، المصدر السابق، ص ٣٢٦-٣٢٨.

والذي لم يصلنا منه إلا القليل. فالجدران الداخلية للبناء، مزينة بألواح من الرخام المعرَّق، إلى جانب زجاج النوافذ المعشق، والسقوف ذات اللون الذهبي، وزخرفة القبة التي تمت في وقت متأخر، إلا أنه بقي منها على ما كان عليه، فسيفساء الأعمدة المثمنة والأسطوانية. ولعل النعومة والدقة اللتين نجدهما في فسيفساء قبة الصخرة لا نجدهما كما تقول برشيم في فسيفساء الغرب. فاستخدام عروق اللؤلؤ مثلاً مقابل الضوء يجعلها تحتفظ بقيمتها الكاملة، وعند استخدام المكعبات المذهبة لتحديد الزخارف البارزة، لأوراق الأقنت فإنها توضع مسطحة، وعند حواف الأوراق، وكي تتناقض النتوءات استبدلت الكتل المذهبة بكتل فضية، أما الألوان السائدة فهي الأخضر والأزرق والذهبي، ويستعمل اللون الأخير غالباً في الرسوم الزخرفية، أو في المناظر الطبيعية من أجل ضمان مستوى فني مؤثر، كما يذكرنا اللونان الأزرق والأخضر، بالقاشاني الفارسي، ونرى ثمانية ألوان خضراء، وثمانية ألوان زرقاء، وهي تتدرج من اللون النيلي إلى الأزرق التراكوزي. أما الألوان الأخرى فتستخدم بكميات ضئيلة جداً، في حين تتلألأ الكتل الفضية المائلة في محيط تملؤه الجواهر. وتتميز الرسومات الفسيفسائية للقبة بثراء كبير وتنوع مذهل. إذ يكاد لا يوجد منظران طبيعيان متشابهان، مع أن الاحتفاظ

بالوحدة تحيط المجموع[30]. لقد شاعت الرسومات الفسيفسائية في العصر الأموي، ولا سيما في المسجد الأموي بدمشق، والمسجد النبوي في المدينة، حين جدده الوليد بن عبدالملك. فقد امتزجت فيها فصوص الزجاج بالحجر مع الصدف، وكان بعضها مفضضاً والآخر مذهباً، ثبِّتَ على طبقة من الجص[31] مصطبغة بتلك الألوان المتدرجة الثمانية التي تحدثنا عنها، حيث يوحي اللون الأزرق في الفن الإسلامي، أي لون السماء باللاتناهي، بينما يدل اللون الذهبي على المعرفة، والتي هي طبقاً للقرآن، الملكة التي يصل من خلالها الإنسان إلى إدراك الخالق، أما القبة ذاتها فهي رمز التحليق المتسامي في اتجاه السماء، كما تعكس التوازن الكامل للتوحيد، فسطحها الخارجي والذي يتجه صعوداً نحو لا نهايات السماء، هو نسخة مطابقة تماماً لبعدها الداخلي[32]، ونظراً لتنزيه المسلمين لله، ولإزاحة أي مظهر للشرك أو للوثنية، فإنهم حرموا في فنونهم التشكيلية في أماكنهم المقدسة الصور البشرية، غير أنهم سمحوا بالنماذج والأشكال الهندسية، لأنها تعكس عالم المخيلة المثالي، فهي تشير إلى البيئة التحتية للوجود، والتي يجب

(30) فان برشيم واوري، المصدر السابق، ص ٥٢-٥٣.

(31) العاقل، المصدر السابق، ص ٣٢٨.

(32) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٠٥-٤٠٦.

على المسلمين أن يتناغموا معها، إن هم ابتغوا التوافق والسلام والوحدة الإلهية. فقد مثلت الصخرة، والكهف المنحوت تحتها، أصل ونقطة بداية رحلة السعي. ويحيط بالصخرة شكل مثمن الزوايا، اعتقد المسلمون أنه أولى الخطوات بعيداً عن ثبات المربع. وبذلك يصبح بداية الصعود باتجاه التمام والكمال والأبدية، الأمر الذي يتكرر في دائرة القبة الكاملة[٣٣]. وبالإضافة إلى هذا العنصر الهندسي فقد غلبت على الزخرفة، العناصر النباتية، كأشجار النخيل والزيتون، وأوراق الأكانتاس والعنب، والأوراق اللوزية، وفاكهة الرمان، والوريدات[٣٤]. وهي من نباتات الجنة التي ذكرها القرآن.

اعتاد العرب المسلمون منذ ذلك الوقت على استعمال الحرف العربي للكلمة القرآنية في التزيين، وفي إبراز جمالية الحرف العربي، وجلاله، فيلاحظ المرء المكان الذي احتلته الكتابة على الجدران الداخلية والخارجية للمثمن، التي يبلغ طولها ٢٤٠ متراً، بطول يصل إلى ضعف محيط المبنى[٣٥]. وقد كُرِّست كل النقوش تقريباً داخل القبة، والتي تعلو الأقواس والأروقة الداخلية للآيات

(33) المصدر نفسه، ص ٤٠٥.

(34) العاقل، المصدر السابق، ص ٣٢٨.

(35) مارغريت فان برشيم وسولاغ أوري، المصدر السابق، ص ٥٣.

القرآنية التي تنكر الفكرة القائلة بأن الله اتخذ ولداً، وهي آيات موجهة لأهل الكتاب، وتحذرهم من الأقوال غير الدقيقة في المنظور الإسلامي عن الله ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وكلمته القاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلا﴾(النساء: ١٧١)[٣٦] وهي نفسها الآيات التي تعكس أجواء الحوار مع المسيحيين، وتؤكد على وحدانية الله وقدرته، وتوضح النظرة الإسلامية للسيد المسيح رسول الله وكلمته وعبده، وأن الله إله واحد، سبحان أن يكون له ولد، وفيها التأكيد على ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾(آل عمران: ١٩) وفيها الإقرار بنبوة الأنبياء السابقين، فهي تتضمن تأكيداً على التوحيد، وعلى شمول رسالة الإسلام، وعلى أنها جوهر الرسالات وخاتمتها، وفيها توضيح للنظرة الإسلامية وتأكيد لها[٣٧].

لقد جسدت القبة في النهاية الهوية الإسلامية وأكدتها، ولم تكن بأي حال من الأحوال محاولة من عبدالملك لصرف الناس عن

(36) ارمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٠٣.

(37) الدوري، المصدر السابق، ص ١٤٢-١٤٣.

الحج إلى مكة. فكما تقول أرمسترونغ، أن ممرات القبة شديدة الضيق بحيث لا تسمح بأداء شعيرة الطواف المعقدة. كما أن عبدالملك لم يظهر سوى شعور الورع العميق تجاه مكة والكعبة. ولو كانت القبة مجرد خدعة سياسية لما استحوذت على أفئدة المسلمين، فحينما كان المتعبدون والحجاج يدخلون ذلك المبنى كانوا يجدون فيه رمزاً كاملاً للطريق الذي كان عليهم أن يسلكوه ليجدوا الله. وأعان المسلمين على أن يبدأوا رحلتهم تجاه الله، فضلاً عن أن رموز القبة أرشدت إلى المراحل التي تتبع في سبيل العودة إلى الحقيقة الجوهرية، وأن تلك العودة كما اكتشف الصوفيون هي صعود ينطوي أيضاً على الباطن[٣٨]. ومن هنا يسخر روجيه غارودي من إرجاع بناء قبة الصخرة إلى دوافع سياسية مؤقتة، ويرى أن " إنجاز تلك الصيغة الجمالية الرائعة الرائدة، التي ستوجه على مدى ألف عام الفن والعمارة الإسلامية في ثلاث قارات، لا يمكن أن تفسر انطلاقاً من غرور تافه مضحك، ومطامح وحيل يمارسها حاكم زائل"[٣٩]. ويذهب غارودي إلى أن المعنى الروحي لهذا الصرح يعبر عن جوهر العقيدة القرآنية، بالموقع الذي بنيت عليه، وفق بناء الصرح، وأبعاده وما فيها من تناسب،

---

(38) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٠٦.

(39) غارودي، المصدر السابق، ص ١٢٥.

وتشكيـــلاته، والألوان التي تزينه، ومنظره الخـــارجي، وتناغم فسحته الداخلية، ينبع من الإيمان الذي أوحى بهذا البناء. وأما بصدد التأثيرات والاقتباسات، فمن السهل علينا -لكن دون جدوى - أن ننطلق من خارج هذا البناء للبحث عن أصول بيزنطية وفارسية أو هلينية أو رومانية، وأن نتلمس فيه بعض الأساليب الفنية المعمارية، من هنا وهناك، أو نرى بعض العناصر التزيينية أو ملامح الانسجام الهندسي المتوازن المجلوب. وقد يكون ذلك صحيحاً، إذ شارك ببناء هذا الصرح فنانون وبناؤون وحرفيون من شتى أصقاع الامبراطورية. لكن التوقف عن [هذا التحليل الخارجي دون الانطلاق من الداخل، أي من ذلك المحرض الجوهري الذي سيتم بفضله تحقيق التركيب الجديد، يصرفنا عن الأمر الأساسي، أي عن المبدأ المنظم لكل شيء، والذي يخلع على المعطيات الوافدة، ألقاً وحياة جديدة، يصبها في قالب بكر، وليعبر عن عقيدة واحدة وسط تنوع الثقافات، عقيدة تبعث الحياة في هذه الثقافات وتستخدم لغتها[٤٠].

ومن هنا فإن المظهر الخارجي لمسجد الصخرة إذا ما قُرىء في ضوء ذلك الإيمان العارم الذي دفع إلى بنائه يدل على الرسالة

---

(40) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

الجوهرية للإسلام، فمدخل المسجد ذو القاعدة الثمانية الأضلاع، بقبته الدائرية، يبدو كأنه يمثل العبور من الأرض إلى السماء. أما قبة المسجد المكسوة بالذهب، والتي نفذها صناع أتقياء كابن حيوة ويزيد بن سلام.. فيشبهها الحجاج والمسافرون بجبل من نور علوي أو شمس ساطعة، وذلك حينما يتلألأ ذهب القبة، ويلمع في الشروق والغروب بتلك التموجات والألوان اللامتناهية. وكل ما في هذا البناء المغمور بالضياء، ينتقل بالإنسان إلى حياة أرفع وأسمى من الحياة اليومية. إن هذا الرمز المصنوع من الحجارة كان يذكّر الإنسان بأن هناك عالماً آخر ممكناً يحرر الإنسان من عالم المادة، ليدعوه إلى عالم جديد، يوحي إليه بوحدة الله الأزلية(٤١).

لقد عكست أبَّهة قبة الصخرة ورموزها الداخلية الدفينة الخريطة الروحية للمسلمين، فاستعملت تصاميمها الرئيسية بكثرة في أضرحة الرجال والنساء من أصحاب البركة والنعمى، أو الذين تم تبجيلهم " أقطاباً" يصلون بين الأرض والمراقي العليا (٤٢).

استمر القائمون على قبة الصخرة بعد بنائها في وسط الحرم بالعناية الفائقة بها، ويروي لنا عبد المجير الحنبلي صورة من صور تلك العناية، فيذكر أن رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام كانا يأمران

---

(41) غارودي، المصدر السابق، ص ١٢٥.

(42) ارمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٠٦.

كل خميس واثنين بإحضار الزعفران، فيطحن ثم يعمل من الليل بالمسك والعنبر والماورد الجوري، فيخمر. وفي الصباح يدخل الخدم الحمام يغتسلون، ثم يلقون ثيابهم ويخرجون أثواباً جديدة، ومناطق محلاة يشدون بها أوسطهم، ثم يأخذون الخلوق فيأتون به إلى الصخرة، فيلطخونها، ثم يأتون بمجاحير الذهب والفضة، والعود القماري، والند، ويمزجونه بالمسك والعنبر، ثم يأخذون البخور ويدورون حولها، عندها ينادي منادٍ، أن الصخرة قد فتحت للناس، فمن أراد الصلاة فيها، فليأت. فتقبل لمبادرة الصلاة في الصخرة.. ثم تغسل آثار أقدامهم بالماء، وتمسح بالآس الأخضر، وتنشف بالمناديل، وتغلق الأبواب، وعلى كل باب عشرة من الحجبة، ولا تفتح إلا يوم الاثنين والخميس، ولا يدخلها في غيرها إلا الخدم[43]. من هنا جذبت الصخرة بوصفها إسلامياً رمزاً للصلة بالسماء، ورمزاً لإمكانية استعادة هذه الصله منذ أن جسدها المعراج المحمدي للمؤمنين، وبدأ الصوفيون بالتوافد للعيش جوارها، مثل رابعة بنت إسماعيل أم الخير(العدوية) (توفيت ١٣٥هـ/ ٧٥٢م) التي كانت تقول في مناجاتها الإلهية" إلهي لا تحرق قلباً بالنار يحبك" وقد حرصت العدوية على أن تموت في

(43) عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ص ٢٤٢-،٢٤٣

القدس، ودفنت في ظاهر القدس على رأس طور زيتا، ويزور الناس ضريحها تبركاً بتقواها[44]. كما قصدها مقاتل بن سليمان المفسر (ت ١٥٠هـ/٧٦٧م) ولازمها مدة من الزمن، ويذكرون عنه أنه اجتمع إليه ناس كثُر، يسمعون منه، وعند قدومه صلى وجلس عند باب الصخرة القبلي، ورأى بدوياً يطأ بنعليه على بلاط مسجد قبة الصخرة وطأ شديداً، فزمجر به: " أرفق بوطئك فوالذي نفس مقاتل بيده، ما تطأ إلا على أجاجين الجنة"[45]، كما أتاها سفيان الثوري (ت ١٦١هـ/٧٨٨م) ودخل قبة الصخرة وختم فيها القرآن (٤٦)، فضلاً عن عشرات المحدثين والفقهاء وأصحاب الفنون والمقرئين الذي كان الخليفة الأموي يرسل لهم بـ " قصاع الفضة لتوزيعها عليهم"[47]. وبهذا المعنى لم يكن بناء عبد الملك للقبة بكل هذه الأبهة الممتلئة بالرموز الروحية الكبرى إلا تجسيداً لجلال الصخرة القدسي وترسيخاً له في طقوس المؤمنين وأنظمتهم الرمزية المقدسة.

---

(44) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٥٠.

(45) المصدر نفسه، ص ٣٥١.

(46) المصدر نفسه، ص ٣٥٢.

(47) العاقل، المصدر السابق، ص ٣٢١.

المسجد الأقصى ومباركة ما حوله :

واصل الوليد بن عبدالملك (٤٨-٩٦هـ/٦٦٨-٧١٥م) اهتمام والده بعمارة بيت المقدس، وإكسائه بمظاهر الهيبة. وشكل اهتمام الوليد بذلك جزءاً من أولوياته بالاعتناء بالأماكن الإسلامية المقدسة، حيث بنى المسجد الأقصى ومسجد دمشق، كما بنى " مسجد النبي في المدينة ووسعه حتى دخلت الحجرة التي فيها القبر النبوي فيه"(٤٨). ولقد أنجز بناء المسجد الأقصى في عهد الوليد، وتم البناء على نفس الهضبة القدسية التي أقيمت عليها قبة الصخرة، وعلى جوارها جنوباً، وعلى الطرف الجنوبي من الحرم، الذي بناه أيضاً ليحضن داخله المسجد وقبة الصخرة(٤٩). وقد عانى المسجد الأقصى بعد ما بناه الوليد من عاديات الزمن، ومن التعديات الخطيرة التي جرت له على يد الصليبيين، كما عانى من تعديلات المسلمين ليجعلوه ملائماً لعباداتهم، لكن يعتقد أن القسم الأوسط احتفظ بترتيبه الأصلي، والمسجد مؤلف من جناح مركزي عريض تحده أقواس ترتكز على أعمدة، وعلى جانبيه جناحان، وفي صدر المسجد جناح مصالب ضخم يحمل قبة في وسطه. ثم أضيف إليه اثنا عشر جناحاً على طرفي الأجنحة

---

(48) شراب، المصدر السابق، ص ٣٦٣ -٣٦٤.

(49) فان برشيم وأوري، المصدر السابق، ص ٨٣.

المركزية الثلاثة[٥٠]. وينفتح عمودياً على الرواق المصلب، والرواق الموازي لجدار القبلة، باتجاه مكة المكرمة، وترتكز قبة المسجد على أعمدة عند مفترق الأروقة الثلاثة المتفرعة من الجناح المصلب، وأوسع الصحون المسقوفة الثلاثة للجناح المحوري[٥١]. وقد نفذت تزييناته النباتية بدرجة عالية من الإتقان تصل إلى المستوى الرفيع الذي نفذت به فسيفساء قبة الصخرة. وهناك تشابه كبير بين الأعمال المنفذة في المسجد الأقصى وتلك الأعمال المنفذة في قبة الصخرة، لا سيما في استدارة الزخارف النباتية للكرمة والأقنت والزهور والفواكه والعنب والرمان الموضوعة على أوراق الكرمة. وتختلط هنا التزيينات النباتية مع التزيينات الهندسية[٥٢]. وهي زهور وفواكه لا تقوم على تمثيل نفسها بل تتعداه إلى تمثيل مقامها القرآني بوصفها من زهور الجنة. ويحيط بالمسجد وقبة الصخرة وغيرها من القبب والمنشآت، الحرم القدسي الذي أقيم في جنوب شرقي المدينة المقدسة. ويشرف على سهول اللطرون من جهة الشرق، ويتألف من مساحة واسعة تأخذ شكلاً شبه منحرف، تبلغ أطواله ٢٨٠ متراً في الجنوب، و ٣١٠ متراً في الشمال و٤٦٢

(50) مارسيه، المصدر السابق، ص ٣٥ - ٣٦.
(51) فان برشيم وأوري، المصدر السابق، ص ٨٣.
(52) المصدر نفسه، ص ٨٩.

متراً في الشرق و ٤٩١ متراً في الغرب، ويلامس ضلعه الشمالي في الصخرة، في حين أن ضلعه الجنوبي رفع فوق الصخور والوديان، وهو يقوم على رواق ذي عقود، يرتكز على أعمدة مربعة الشكل، يولج إليه عبر سلسلة من الأبواب. ولم يبق من أبوابه الخمسين التي ذكرها الحنبلي سوى خمسة عشر باباً، منها الباب الذهبي في الشرق (وهو مغلق) والباب البسيط، والباب المزدوج، والباب المثلث في الجنوب. أما في الغرب فتوجد ثمانية أبواب، هي: باب المغاربة، باب السلسلة، باب المتوضأ، باب المطهرة، باب القطانين، باب الحديد، باب الناظر، باب السراي، باب الغوانمة. وفي الشمال توجد ثلاثة أبواب هي باب العتم، باب حطة وباب الأسباط. ويعتبر الحرم الشريف بأكمله مسجداً، أي مكاناً للعبادة، مما يفسر وجود المحاريب المتعددة التي تسمح لألوف المؤمنين المجتمعين في الأعياد بالصلاة في الهواء الطلق[٥٣]. ولعل الوصف الإسلامي التاريخي للمسجد الأقصى يبرز أبهته، فقد روى الحافظ بهاء الدين بن عساكر أنه كان فيه في ذلك الوقت خمسون باباً، وعدَّد القرطبي منها أبواباً تعبِّرُ أسماؤها عن الرؤية الإسلامية الجوهرية لتكامل الرسالات السماوية واستمرارها في الإسلام، ومن هذه

---

(53) المصدر نفسه، ص ٣٧,

الأسماء: باب داوود وباب سليمان وباب حطة وباب محمد وباب التوبة وباب الرحمة وستة أبواب للأسباط، وباب الوليد وباب الهاشمي وباب الخضر وباب السكينة، فليس الباب محايداً بل محلاً لسبغ المشاعر المقدسة الدفينة عليه. ومن هنا كان في المسجد الأقصى ستمائة عمود من الرخام، وسبعة محاريب، وأربعمائة سلسلة للقناديل، منها مائتان وثلاثون في المسجد الأقصى والبقية في قبة الصخرة، وذرْع السلاسل أربعة آلاف ذراع، كما كان فيها خمسة آلاف قنديل، وكان يسرج مع القناديل ألف شمعة إضافية في ليلة الجمعة وفي ليلة النصف من رجب وفي ليلتي العيدين. وأما القباب فكان عددها خمس عشر قبة سوى قبة الصخرة، وعلى سطح المسجد من شقف الرصاص سبعة آلاف شقفة . ووزن السقف سبعون رطلاً بالأوزان الشامية، غير الذي على قبة الصخرة، ومن هنا كان عدد خدامه ثلاثمائة خادم، وعدد صهاريجه أربعة وعشرون صهريجاً كبيرة، وعدد منابره أربعة، فضلاً عن الثريات[٥٤]. ولعل أبهة أبواب المسجد تأخذ معناها في الإدراك الدنيوي للأبهة، من أنها وفق ما يرويه عبدالرحمن بن منصور كانت ملبسة كلها بصفائح الذهب والفضة[٥٥]. ومن هنا

---

(54) عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(55) شراب، المصدر السابق، ص ٣٨١-٣٨٢.

لم يعد المسجد الأقصى هو ذلك الجامع المبني في صدر المسجد من جهة القبلة، الذي فيه المنبر والمحراب الكبير. بل غدا اسماً لجميع المساجد، مما دار عليه سور الحرم. فهذا البناء في صدر المسجد وغيره كما يقول عبد المجير الحنبلي، من قبة الصخرة والأروقة وغيرها محدثة، والمراد بالأقصى ما دار عليه السور، الذي كان طوله من الشمال إلى الجنوب، أي من السور القبلي للحرم عند باب المحراب إلى صدر الرواق الشمالي عند باب الأسباط ستمائة وستين ذراعاً، وأما عرضه شرقاً بقرب من السور الشرقي المطل على مقابل باب الرحمة إلى صدر الرواق الغربي، فأربعمائة ذراع وستة أذرع(٥٦) .ومن هنا يشير الدباغ إلى أن الحرم القدسي يتألف من المسجدين: الصخرة والأقصى، وما بينهما وما حولهما من منشآت حتى الأسوار، وأن مساحة المسجد (الحرم) البالغ ١٤٠٩٠٠ م٢ لم يطرأ عليها تبديل منذ أيام الخليفة الوليد بن عبدالملك(٥٧) . من هنا نرى الفارق الهائل على حد تعبير غاسبار ما بين المساحة التي أخذها المسجد الأقصى وبين مساحة هيكل داوود، أما في عهد الوليد بن عبدالملك فتم إزالة المناطق السكنية جوار الحرم لتشييد بعض المباني الملكية الفخمة تبركاً بقدسية

(56) عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤.

(57) شراب، المصدر السابق، ص ٣٥١.

المكان. وشيدت مجمعات من أبنية عامة كان أكثرها روعة قصر ضخم مكون من طابقين تدور جدرانه حول فناء يتوسطه. وتم بناء جسر يصل دور القصر العلوي بالحرم الشريف، الذي يفضي مباشرة إلى داخل المسجد، كما امتدت سلسلة من المباني ذات الأعمدة إلى الغرب والشمال بطول الجدار الغربي للحرم، وجرى تهيئة نزل للحجيج، وحمام عام، ومعسكرات، وأبنية عامة أخرى، وشيد الجسر القديم الذي يؤدي إلى الحرم من طريق يعرف اليوم بطريق السلسلة.

لقد عكست فخامة هذه الأبنية واتساعها وجلالها اهتمام الأمويين والمسلمين عموماً بالقدس، مما يدفع أرمسترونغ للتساؤل: " عما إذا كان الوليد قد اعتزم جعل بيت المقدس عاصمة للامبراطورية الإسلامية"(٥٨). ولا ريب أن الخلفاء الأمويين قد تبركوا باستمرار بالقدس وكانوا يجدون في الجلوس قرب الصخرة الشريفة مصدراً للتسامي. ومن هذا القبيل، ما يروى عن عبدالملك بن مروان أنه في إحدى زياراته للقدس، جلس قرب الصخرة بجوار الصحابية أم الدرداء، فنودي بالمغرب للصلاة، فقامت فتوكأت على عبدالملك، حتى أدخلها المسجد إلى جناح

(58) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٠٨،

النساء، ومضى وصلى بالناس[٥٩]. ولم يفرض جلال القدس نفسه على الأمويين وحسب، بل وعلى خصومهم، وبالتالي على عامة المسلمين، واستثمرت الأطراف السياسية الإسلامية المتصارعة جلال القدس في رؤيتها. فقد شاع في الوسط الإسلامي عشية قتل الأمويين للحسين بن علي (٦١هـ) ابن فاطمة ابنة النبي محمد، والإمام الثالث للشيعة الاثني عشرية، أن الدماء صارت تُرى تنزف تحت أحجار القدس، تعاطفاً مع الحسين. وروى البيهقي عن ابن شهاب أنه في صبيحة قتل الحسين بن علي لم يُرفع حجر في بيت المقدس إلا وجد تحته دم. وكذلك يوم قتل والده علي بن أبي طالب ابن عم النبي[٦٠]. مع أن الحسين بن علي قتل في كربلاء في العراق.

استمر اهتمام الخلفاء الأمويين بالقدس حتى بعد الوليد بن عبدالملك، إذ ولى الوليد أخاه سليمان بن عبدالملك على فلسطين، فاختطَّ فيها مدينة الرملة قرب اللد كعاصمة للجند، ونقل عاصمته إليها، وبنى فيها قصراً ومسجداً، وحفر آباراً، وبنى قنوات تُجرّ إليها المياه[٦١]. وقد حرص سليمان عندما آلت إليه الخلافة

(59) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٤٠.

(60) الحنبلي، المصدرالسابق، ص ٢٥٢.

(61) شوفاني، المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٩٦-٩٩هـ/ ٧١٥-٧١٧م) أن تتم مبايعته في القدس، واعتاد فيما بعد أن يطيل الجلوس في صحن مسجد بيت المقدس، مما يلي الصخرة. ولعلها القبة المعروفة بقبة سليمان عند الدويدارية، ويبسط البسط والنمارق عليها، والكراسي، فيجلس ويأذن للناس في الجلوس على الكراسي، وأعوانه إلى جانبه، وكتاب الدواوين، فيدخل وفد الجند، ويتقدم صاحبهم ليتلقوا أوامر سليمان[٦٢]. ولعل هذا ما يفسر أن بعض المصادر تشير إلى أن سليمان قد همَّ بالإقامة نهائياً في بيت المقدس، فجمع الأموال والناس بها[٦٣]. ويعني ذلك أنه قد بدرت عنه نوايا لتحويل القدس إلى عاصمة له، حيث ترك في دمشق أخاه الأصغر وحضر إلى القدس[٦٤]. أما خليفته عمر بن عبدالعزيز (توفي ١٠١هـ) الذي عرف بالتقوى ولقبه المسلمون بالخليفة الراشدي الخامس، فقد كان يستحلف العمال الذين يحاسبهم على أدائهم عند الصخرة، وتكررت زيارته لبيت المقدس، مثل بقية الخلفاء الأمويين[٦٥].

(62) الحنبلي، المصدر السابق، ج١،ص ٢٤٩ قارن مع شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٤٥-٣٤٦ ومع محمد أسعد طلس، عصر الاتساق: تاريخ بني أمية، بيروت ١٩٥٨، ص ١٢٨

(63) الحنبلي، المصدر نفسه، ص ٢٤٩-٢٥٠

(64) السيوطي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ١٩٥

(65) الدوري، المصدر السابق، ص ١٤٨

ورغم أنه أظهر التزاماً كبيراً بالتعاليم الإسلامية التي تشدد على احترام استقلال أهل الكتاب بعبادتهم وأماكنهم المقدسة، إلى درجة أنه فكر بإعادة المسجد الأموي إلى مسيحيي دمشق، لأن جزءاً منه قام على حساب كنيسة مسيحية، فإنه حرصاً منه على الاستقلال الإسلامي للمسجد الأقصى، قد أبطل استخدام أهل الذمة اليهود والمسيحيين في خدمة المسجد الأقصى وقبة الصخرة كبديل عن الجزية (ضريبة الحماية)، وأمر بفصل اليهود المكلفين بإنارة المسجد الأقصى، وجعل خدم الحرم جميعاً من المسلمين[٦٦].

لقد انتشرت في العصر الأموي كثرة كاثرة من الأحاديث النبوية والأخبار وقصص أهل الكتاب حول حرمة المسجد الأقصى والأرض المقدسة عموماً، وفسرت بعض الآيات القرآنية على أنها تشير إليها. وليس مهماً هنا مدى دقة نسب هذه الأحاديث أو صحة تفسير الآيات بقدر ما أن المهم هو الوظيفة التي كانت تؤديها في ترسيخ الارتباط الوجداني والروحي بالقدس. ولعل الخلفاء الأمويين شجعوا هذا الاتجاه، لما فيه من دعم لكيانهم المتمركز في الشام. فيروي نصر بن مزاحم أن معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول قد قال: " الحمد لله الذي جعل الدعائم

(66) السيوطي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص١٩٥

للإسلام أركاناً.. يتوقد قبسه في الأرض المقدسة التي جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده، فأهلها أهل الشام، ورضيهم لها ورضيها لهم"، ولعل الخليفة عبدالملك بن مروان كان يذكّر دائماً بحديث " شد الرحال" وإن لم يكن في سياق مختلف عن كلام اليعقوبي، خاصة وأن عبدالملك كان ممن تعمقوا في دراسة الحديث في المدينة. وينسب المهلبي إلى الوليد بن عبدالملك أنه شدد على حديث أن الناس يحشرون إلى بيت المقدس، ويحاسبون فيها(٦٧). ومن قبيل ما شاع في العصر الأموي، ما يذكره الواسطي من أن الزهري(توفي ١٢٤هـ) قد جاء بيت المقدس، فأخبره خالد بن حازم: ها هنا شيخ يحدّث عن الكتب، يقال له عقبة ابن أبي زينب، فلو جلسنا إليه " وعندما جلسوا إليه " جعل يحدّث بفضائل بيت المقدس، فلما أكثر، قال الزهري: "أيها الشيخ لن تنتهي إلى ما انتهى إليه الله، الذي قال: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً .."، فغضب الشيخ وقال: لا تقوم الساعة حتى تنقل عظام محمد (ﷺ) إليها(٦٨).

---

(67) الدوري، المصدر السابق، ص١٤٤

(68) محمد بن أحمد الواسطي، فضائل البيت المقدس، القدس ١٩٧٩، ص١٦٥ قارن مع السيوطي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص٩٦

قداسة القدس/ قداسة الشام :

لقد وسع المخيال الإسلامي الروحي والذهني في العصر الأموي قداسة بيت المقدس لتشمل الشام داخل دائرته، بما فيها دمشق. وقد ارتكز جانب من ذلك على تفسير "الذي باركنا حوله" في سورة الإسراء ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾، أي حول المسجد الأقصى، الذي فسر على أنه يشمل الشام، وهو ما يتسق مع رؤية العرب منذ العصر ما قبل الأموي على النظر إلى القدس وفلسطين كجزء من الشام. وفي هذا السياق روي أن الشام اشتكت إلى الرحمن، فقالت أي ربي جعلتني أضيق الأراضي وأوعرها، وجعلتني لا أشرب الماء إلا عاماً إلى عام، فأوحى الله إليها أنكِ داري وقراري وأنتِ الأنذر، وأنت منبت الأنبياء، وأنت موضع قدسي، وأنت موطأي إليك أسوق خيرتي من خلقي، وإليك محشر عبادي، وأنزل عليك من أول يوم الدهر إلى آخر يوم منه بالطل والمطر. وإذا يعجز أهلك المال لم يعجزهم الخبز والماء[٦٩]. وقد ذهب ذلك المخيال إلى حد اعتبار الشام نوعاً من أرض قديمة بالمعنى الإلهي، إذ يروى عن عوف بن مالك أن الأرض تخرب قبل الشام بأربعين سنة. كما قال كعب الأحبار ذلك، وأما الحسن بن

---

(69) ابن عساكر، المصدر السابق، ج١، ص ٤١.

القاسم الأزرقي فروى أن الرسول وقف على ثنية تبوك، فقال: ها هنا يمن وأشار إلى جهة المدينة، وها هنا شام وأشار بيده إلى جهة الشام. وسئل أبو الأعيس القرشي، وكان من التابعين عن الأرض المباركة، وأين حدودها، فقال: حدودها عريش مصر، والحد الآخر طرف الثنية والحد الآخر الفرات، والحد الآخر جبل فيه قبر هود عليه السلام(٧٠)، أي ما يشمل الرؤية التاريخية العربية لحدود بلاد الشام كمنطقة متميزة. من هنا جرت عملية إعادة بناء بعض المرويات بشكل تبرز فيه قداسة الشام، وأن عيسى بن مريم(المسيح المخلص) يخرج منها، فقال ابن عباس الحضرمي: " يخرج عيسى بن مريم عند المنارة عند الباب الشرقي، ثم يأتي مسجد دمشق حتى يقعد على المنبر، ويدخل المسلمون المسجد والنصارى واليهود كلهم يرجوه، ويأتي مؤذن المسلمين فيقوم، ويأتي صاحب بوق اليهود ويأتي صاحب ناقوس النصارى، فيكتب سهم المسلمين، وسهم النصارى، وسهم اليهود، ثم يقرع الثالثة، فيخرج سهم المسلمين"(٧١). وهو ما يعني أن ظهور المسيح المخلص يبدأ في دمشق، وهو ما عززه مخيالياً حديث مروي عن أبي هريرة أن النبي قال: " لاتزال عصابة يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها، وعلى أبواب القدس، وما حولها لا يضرهم خذلان من خذلهم، ظاهرين

(70) المصدر نفسه، ص ٤٤

(71) المصدر نفسه، ص٤٩

على الحق إلى يوم القيامة [٧٢].

يغدو أهل الشام في هذه الرؤية المخيالية جزءاً من سلالة مختارة منحها الله مقاماً خاصاً في أرضه المباركة، فعن أبي الدرداء أن أهل الشام وأزواجهم وذراريهم وعبيدهم وإمائهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون في سبيل الله.. وقال كعب أهل الشام سيف من سيوف الله ينتقم الله بهم ممن عصاه في أرضه، وقال قرأت فيما أنزل الله على الأنبياء أن الله تعالى يقول الشام كنانتي، فإذا غضبت على قوم رميتهم منها بسهم [٧٣]. إن حماية الملائكة للشام تعكس في الرؤية المخيالية الإسلامية تلك القداسة التي اكتسبتها بوقوعها حول المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله حسب الكلام الإلهي في سورة الإسراء. وعن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: طوبى للشام، يا طوبى للشام، يا طوبى للشام. قالوا يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطو أجنحتهم على الشام [٧٤]. وعن كعب الأحبار قال: " جاء إليه رجل، فقال :إني أريد الخروج أبتغي فضل الله عز وجل. فقال: عليك بالشام، فإنه ما نقص من برك الأرضين يزاد في الشام" [٧٥].

(72) المصدر نفسه، ص ٥٦ (73) المصدر نفسه، ص ٥٩ - ٦٠

(74)ابو الحسن المالكي، فضائل الشام ودمشق، تحقيق صلاح المنجد، دمشق ١٩٥٠، ص ٢٠

(75)المصدر نفسه، ص ٧

خاتمة

لقد كرس العصر الأموي أبهة القدس وجلالها بما تم بناؤه على جبل موريا أو الأكمة من ذلك الصرح المعماري – الروحي العظيم قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، والحرم، حيث تهيأ إبراهيم أبو الأنبياء للتضحية الكبرى بابنه الوحيد.. وعرج منه محمد (ﷺ)، ,وامَّ فيه الأنبياء جميعاً.

الفصل الخامس

تكريس مكانة القدس في المخزون الرمزي الإسلامي

المرحلة العباسية

فقدت بلاد الشام مع قيام الدولة العباسية في (٧٥٠هـ)، موقعها كمركز للامبراطورية العربية الإسلامية، بعد أن نقل العباسيون العاصمة إلى العراق. وغدا الإقليم الشامي بما فيه القدس ولاية ثانوية، يشك العباسيون بولائها. إلا أن هذا لم يمنع العباسيين من أن يمحضوا فلسطين باهتمام خاص، حيث ولُّوا عليها أمراء البيت العباسي أو بعض الشخصيات المقربة منهم، وألحقوا غالباً حكم فلسطين بدمشق أو مصر[1]. إلا أن التهميش العباسي السياسي لفلسطين لم يؤثر ابداً على المركز الديني الثابت لبيت المقدس، بل حاول العباسيون أن يستثمروا الموقع المبجل للقدس، لمنح عهدهم شرعية قدسية، فأشاعوا حديثاً نبوياً عن أبي هريرة يقول: " يخرج من خراسان رايات سود لا يردها شيء حتى تنصب بإيلياء"[2]، والمراد بالرايات السود هنا رايات الدعوة العباسية، كما روى البيهقي في سياق هذا الالتحام العباسي

(1) العاقل، المصدر السابق، ص ٣٠٥ر

(2) الدوري، المصدر السابق، ص ١٤٨ر

بالقدس عن كعب أن النبي قال: " تظهر رايات سود لبني العباس حتى ينزلوا الشام، ويقتل الله على أيديهم كل جبار وعدو لهم"[٣]. ويمثل ذلك إشارات ذات دلالة بالغة الأهمية لخلق أسطورة البدايات المقدسة، التي تعطي لأصحابها المسوغ الديني، وللمحكومين" إشارة" للرضى بـ" المكتوب"، فتكون علاقة العباسيين بالقدس منصوصاً عليها نبوياً ما قبل توليهم للسلطة. ولا ريب أن العباسيين قاموا في هذا السياق بمحاولة إعادة بناء الحديث النبوي كي ينسجم مع مركزيتهم الإسلامية الجديدة، إذ يروي أبو جعفر الرازي عن الربيع، أنه "لما أسري برسول الله (ﷺ) رأى فلاناً، وهو من بعض بني أمية، على المنبر يخطب الناس، فشق ذلك عليه. فأنزل الله ﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾[٤] من هنا لم يكن مفارقة أن يتخطى العباسيون عقدهم من الأمويين ومن بلاد الشام، وأن يوجهوا في عصرهم المعروف تاريخياً بالعصر الأول عناية خاصة بالقدس، إذ زارها الخليفة العباسي الثاني المنصور مرتين في عام (١٤١هـ/٧٥٧م) وفي عام(١٥٤هـ/ ٧٧١م)، وأعاد بناء الحرم بعد أن تهدم شرقي المسجد الأقصى وغربيه إثر زالزال وقع عام (١٣١هـ/٧٧٦م)،

(3) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠، ص ٥١.

(4) المصدر نفسه، ص ٤٩.

ولعله فعل ذلك بعد زيارته الثانية[٥]. ويذكر المؤرخ العربي ابن كثير أن الخليفة المنصور اختار أن يمر في طريق عودته من الحج إلى الكوفة ببيت المقدس[٦]، وهو ما يشير إلى تبركه بها، وتصادفت زيارته الثانية لبيت المقدس، بعد أن أصيب المسجد الأقصى بخراب شديد، إثر زلزال حدث في عام ٧٤٧م، ويروي عبد المجير " فقيل يا أمير المؤمنين قد وقع شرقي المسجد وغربيه من الرجفة (= الزلزال) في سنة ثلاثين ومائة(٧٤٧م)، ولو أمرت ببناء هذا المسجد، فقال ما عندي شيء من المال، فأمر بقلع صفائح الذهب والفضة، التي كانت على الأبواب، فقلعت وضربت دنانير ودراهم، وأنفقت عليه حتى فرغ"[٧]، فتمت عمارته في عام ٧٧١م [٨]. ويشير ابن كثير إلى أن المسجد كان طويلاً، فأمر المنصور أن يؤخذ من طوله، ويزاد في عرضه، وكان طول المسجد من القبلة إلى الشمال ٧٦٥ ذراعاً وعرضه ٤٦٠ ذراعاً[٩]. إلا أن هذا البناء الذي أقامه المنصور تعرض سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٤م إلى زلزال

---

(5) الدوري، المصدر السابق، ص ١٤٨-١٤٩،

(6) ابن كثير، المصدر السابق، ص ٧٥،

(7) الحنبلي، المصدر السابق، ص ٢٥٠، قارن مع شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٥٦،

(8) العارف، المصدر السابق، ص ٥٤،

(9) ابن كثير، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٨١،

جديد في عهد ابنه الخليفة محمد المهدي بن المنصور، فزار المهدي القدس عام ٧٨٠م، وأمر بتعمير ما خربه الزلزال. فبني المسجد هذه المرة بعناية كبيرة، وأنفقت عليه أموال طائلة، وكان يتكون من رواق أوسط كبير يقوم على أعمدة رخام، وتكتنفه من كل جانب أروقة موازية له، وأقل منه ارتفاعاً [١٠]. واستحدث فيه البلاط الأوسط، بعد أن استغنى عن صف الدعامات الذي يتوسط بيت الصلاة، وغطاها بسقف جملوني ضخم يعلوه منور لإدخال الضوء، وفيه خشبية مزدوجة مغلفة بصفائح الرصاص من الخارج ومزينة بالجبس من الداخل. وهي سمات معمارية رأى بعض الباحثين أنها تقوم على المزايا المعمارية لقبة الصخرة [١١]. ولعل الخليفة المهدي كان مدفوعاً في ذلك بمحاولة أن يثبت للمسلمين حرص الخلافة العباسية على أن تهب القدس اهتماماً معمارياً لا يقل عن اهتمام الأمويين، ويروي المؤرخون العرب واصحاب كتب " فضائل القدس" بهذا الصدد، أن الخليفة المهدي لما قدم يريد بيت المقدس، دخل مسجد دمشق، ومعه كاتبه أبو عبيدالله الأشعري وقال له: " يا أبا عبدالله، سبقنا بنو أمية بثلاث، فقال (الأشعري)، وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: بهذا البيت (يعني

---

(10) شراب، المصدر السابق، ص ٢٨٦.

(11) العاقل، المصدر السابق، ص ٣٢٩.

مسجد دمشق) ولا أعلم على ظهر الأرض مثله، وبنبل الموالي، فإن لهم موالي ليس لنا مثلهم، وبعمر بن عبدالعزيز، ولا يكون فينا والله مثله أبداً. ثم أتى بيت المقدس، فدخل الصخرة، فقال: يا أبا عبدالله: وهذه رابعة"[١٢].

١- القدس في الرؤية العباسية كمدينة مفتوحة وجسر ما بين الإسلام والغرب

تميزت السياسة العباسية بتسامحها مع أهل الذمة عموماً ومع المسيحيين خصوصاً، وتعبر سياسة الخليفة هارون الرشيد (ت٧٨٦-٨٠٩م) والد الخليفة العظيم المأمون الذي ارتدت في عهده بغداد حلة عقلية "ارسطية"، عن ذلك بشكلٍ نموذجي، مما جعل هارون الرشيد يدخل في مرويات الأدب الشعبي العربي وحكايات " ألف ليلة وليلة" الشهيرة. وخصص الرشيد تسامحاً خاصاً مع نصارى القدس، بل سمح للإمبراطور شارلمان امبراطور الامبراطورية الرومانية في الغرب بترميم الكنائس، كما أرسل مع الرسول الذي بعثه إلى شارلمان هدية قيمة هي الساعة الدقاقة،

(12) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٥٦ قارن مع عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص ٢٥١

وشطرنجاً نحتت قطعه من العاج على شكل أفيال، وعلباً من خشب الصندل المطعم بالصدف والأواني المعدنية المكفتة بالفضة والذهب، وأقمشة نفيسة من منسوجات الديباج الدمقس، وهو ما يعبر أكمل تعبير عن تألق الحضارة الإسلامية. وعزز الرشيد ذلك بمنح شارلمان عهداً بحمايته للحجاج المسيحيين عند زيارتهم للقدس، وقدم مثلاً كبيراً على التصور الإسلامي للقدس كمدينة مفتوحة. وقد عبر شارلمان عن امتنانه لهذه المبادرة الحسنة، فأخذ يرسل في كل عام وفداً يحمل الهدايا إلى الخليفة، فما كان من الرشيد إلا أن أرسل إليه مفاتيح كنيسة القيامة[١٣]. وفي سياق هذه الرؤية الإسلامية العميقة للقدس كمدينة مفتوحة، كان بإمكان الخليفة أن يبارك إرسال بطريرك القدس إلى شارلمان هدية رمزية مقدسة من بقايا ذخائر القديسين، كما كان بإمكانه أن يسمح لتشارلز ببناء نُزل ديني" تكية" قبالة كنيسة القيامة، وتشييد كنيسة جديدة ومكتبة فخمة، كما أمر بإقامة مبنى يضم اثنتي عشر غرفة للحجاج، بالإضافة إلى حقول وضيعات وكروم وحديقة للسوق[١٤] وتذكر المصادر الغربية بصدد التبجيل العباسي للقدس، وجلال مكانتها في وعيهم الذي دفعهم لإجلال

(13) السيوطي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ١٨٢.

(14) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٢٠.

كل المرتبطين قدسياً بها أنها " نعلم أن علاقات شارلمان مع العباسيين ممتازة حتى أنهم وعدوا البطريرك جورج (بطريرك القدس) بتقديم مفاتيح القبر المقدس إلى الملك العظيم، وأيضاً مفاتيح المدينة والجبل، مع العلم، فأرسلت الملكة الفرنجية مساعدات سخية إلى القدس، حيث أقيمت الأبنية اللاتينية العديدة والجديدة في أوائل القرن التاسع"[١٥]. ولا ريب أن هذه العلاقة ما بين الرشيد وشارلمان قد تحكمت بها بعض العوامل السياسية، إذ أرادها الرشيد للضغط على الخلافة الأموية الناهضة والمنافسة له في الأندلس، في حين أرادها شارلمان للضغط على الامبراطورية البيزنطية المنافسة لطموحه في أن يكون رأس العالم المسيحي، بعد أن باركه البابا ليو الثالث وتوّجه عام ٨٠٠م. غير أن العاهلين العظيمين اختارا لهذه السياسة أن تعبر عن نفسها في الحقل الرمزي المقدس لكل من الإسلام والمسيحية وهو الحقل المرتبط بالقدس، وخلف تلك العوامل السياسية نهضت رؤية حضارية مبكرة للاحترام المتبادل الذي يمكن أن ينهض ما بين الإسلام والغرب. ومع أن امبراطورية شارلمان انتهت بوفاته، فإنه ظل في أوروبا من يقول أن شارلمان كان مسؤولاً عن جميع

(15) غاسبار، المصدر السابق، ص ٥٨

الأماكن المقدسة، وأخذ يترسخ مع الأيام في الوعي المسيحي الغربي الاعتقاد بأن الخليفة جعل شارلمان مالكاً لكنيسة القيامة. وبالتالي أصبح ذلك المكان المقدس ملكاً للغرب. وستلهب هذه الفكرة في القرن الحادي عشر الميلادي مع عدة عوامل أخرى روح الحروب الصليبية، وستشكل القدس محوراً للحروب مع الإسلام بعد أن شكلت في الرؤية الإسلامية العباسية محوراً للسلام والتواصل مع المسيحية الغربية.

المامون ينقش اسمه في القدس :

يرتبط اسم الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد (١٩٨-٢١٨هـ ٨١٣-٨٣٣م) بحقبة من أزهى حقب الحضارة الإسلامية، يوم كانت بغداد المدينة الإسلامية المتمازجة العروق والثقافات واللغات والأفكار" عين العالم". وقد واصل هذا الخليفة المستنير سياسة أبيه في العناية الخاصة بمسيحيي القدس. وكفلت هذه العناية السلام في القدس، إذ يشير برنار الحكيم الذي زار القدس في سنة ٨٧٠م إلى أن المسلمين والمسيحيين يعيشون فيها بتفاهم تام، وأن الأمن مستتب للغاية، حتى أن المسافر ليلاً لا يجب أن يحمل بيده وثيقة تثبت هويته، وألا يزج به في السجن

حتى يحقق في أمره ويتضح قصده[١٦]. لقد كانت القدس في عهد المأمون مدينة مستقرة، وتوج اهتمامه الخاص بها بزيارتها في أواخر عام ٢١٦هـ/ ٨٣١م، أو في أوائل ٢١٧هـ/ ٨٣٢م، قادماً من دمشق في طريقه إلى مصر[١٧]. ولعله حاول أن يفعل شيئاً قريباً مما فعله الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان حين أشرك قادته في أمر بناء الصخرة، فأمر بتوزيع تبعات إعادة بناء المسجد الأقصى بعد أن تعرض للزلزال الثالث، على أمراء الأطراف وسائر قواده، ليتكفل كل منهم ببناء رواق، على أن يتم البناء بإشراف أخيه أبو إسحاق، وعلى يد عامله صالح بن يحيى، كما قام واليه عبدالله بن طاهر على ما يبدو، مقتدياً بسيده الخليفة ببعض البناء، وينسب إليه ياقوت الحموي بناء أعمدة الرخام[١٨]. من هنا نقش العمال اسم الخليفة المأمون على المسجد مكان اسم الخليفة عبدالملك بن مروان،إلا أنهم لم يغيروا التاريخ الأصلي لبناء القبة [١٩].

---

(16) السيوطي، المصدر السابق، ص ,١٨٢

(17) الطبري، المصدر السابق، ج٨، ص ,٦٥٧

(18) الدوري، المصدر السابق، ص ,١٤٩ قارن مع شراب، المصدر السابق، ص ,٣٨٧

(19) محمد كرد علي، خطط الشام، ج٥ بيروت ١٩٧١،ص ,٢٠١

ابن طولون يعين حاكماً مسيحياً للقدس :

لقد ظلت القدس على المستوى السكاني في العهد العباسي مدينة عربية– إسلامية بشكل أساسي، إذ لم ينقطع تدفق القبائل العربية من الجزيرة إلى بلاد الشام، في حين كان أكثر الأطباء والكتبة من النصارى[٢٠] الذين تمتعوا بمكانة محترمة. وفي نهاية القرن التاسع الميلادي استقل أحمد بن طولون (ت٨٨٤م) والي مصر عن مركز الخلافة في بغداد، فأصبحت بلاد الشام بما فيها القدس في إطار ولايته، غير أن هذا الاستقلال كان إدارياً وليس سياسياً، إذ أقر الخليفة العباسي الموفق في عام ٨٨٦م ابنه حمارويه على مصر[٢١] وكانت سلطة الخليفة العباسي في علاقته مع الوزراء أو السلاطين المتغلبين قد أصبحت في هذا الطور قريبة نوعاً ما من العلاقة ما بين سلطة البابا وسلطة الامبراطور الروماني في الغرب. وما يهمنا هنا أن *ابن طولون وابنه حمارويه قد استطاعا* رغم تفكك الامبراطورية العباسية الإسلامية أن يحافظا على القانون والنظام والسلام في القدس، مما أدى إلى تحسن الوضع الاقتصادي، وانتعاش التجارة. وبلغ من كياسة ابن طولون في احترامه للذميين

(20) العاقل، المصدر السابق، ص ر٢٩٩

(21) شوفاني، المصدر السابق، ص ١٨٥–ر١٨٦

أنه عيَّن على القدس حاكماً مسيحياً رغم أن معظم سكانها مسلمون، وأمر بإعادة بناء وإصلاح ما تهدم من كنائس، كما سمح أيضاً لأعضاء أحد المذاهب اليهودية بإرساء قواعدهم بالقدس[٢٢]. لقد ظلت القدس هنا هدفاً للزيارات الدينية ولغايات التبرك بها[٢٣] فقد ظلت قيمتها المقدسة راسخة وفوق أي تبدلات سياسية طارئة.

الإخشيديون يوصون بان يدفنوا في القدس :

انتهى حكم أسرة بن طولون في عام ٩٠٤م، حين تمكن العباسيون من استعادة سيطرتهم المركزية على فلسطين، إلا أن السلطة ما لبثت أن آلت في إطار ضعف الخلافة المركزية في بغداد إلى العائلة الإخشيدية التي تولت السلطة في مصر وبلاد الشام بما في ذلك القدس، مع بقاء تبعيتها الاسمية للخلافة في بغداد. وقد دخلت القدس في حكم الدولة الإخشيدية (٩٣٥-٩٦٩م) حين أقام الخليفة العباسي القاهر بالله ابن المعتضد محمد بن طغج والياً على مصر والشام[٢٤] فاتخذ هو وخلفاؤه من بعده اللقب الملكي الآسيوي " الإخشيد". أظهر سلاطين هذه الأسرة تعلقاً روحياً

(22) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٢٥.

(23) العارف، المصدر السابق، ص ٥٩.

(24) المصدر نفسه، ص ٥٩-٦٠.

خاصاً بالقدس، إلى درجة أنهم أوصوا جميعاً بأن يدفنوا في جوار حرمها الشريف[٢٥]. من هنا حُمل جثمان الإخشيد في عام ٩٤٥م بناءً على وصيته من دمشق إلى القدس حيث دفن فيها، كما تم دفن ابنه أنوجور بن الإخشيد في ٩٦٠م تلبية أيضاً لوصيته جوار قبر أبيه، وحين تولى كافور السلطة ولقب بالإخشيد، وخطب له على منابر مصر والشام والحجاز فإنه رسخ هذا الارتباط الإخشيدي بالقدس، حيث أوصى بدوره أن يدفن بالقدس، وتم في عام ٩٦٦م ذلك[٢٦]، وشكل ذلك كله لدى الإخشيديين تقرباً من مرقى الإسراء والمعراج، ومن دار الحشر والنشر، ومن الأرض التي باركها الله.

لعل هذا التعلق الإخشيدي المميز بالقدس يفسر تصلب الإخشيديين بالدفاع عنها في وجه الادعاءات والضغوطات البيزنطية، إذ حول البيزنطيون السلام ما بين المسلمين والمسيحين إلى حرب حين استغلوا صراعات الأسر الحاكمة، وسيطروا على كيليكية وطرسوس وقبرص، وأعلنوا أنهم يهدفون إلى استعادة السيطرة على القدس. وأدت الدسائس البيزنطية إلى زعزعة السلام الإسلامي – المسيحي الذي كان يتجلى في مشاركة المسلمين

---

(25) شراب، المصدر السابق، ص١٠٣

(26) العارف، المصدر السابق، ص ٦٠-٦١

للمسيحيين احتفالاتهم، وتقبلهم حقيقة أن المسيحيين وجدوا في القدس كي يبقوا. إذ أثارت تلك الدسائس، والضغط البيزنطي المتزايد حفيظة المسلمين بعد الانتصارات البيزنطية في عام ٩٦٦م، فقد دعا بطريرك القدس حنا الامبراطور البيزنطي لمواصلة تقدمه نحو القدس، فأعقب ذلك مباشرة قيام اليهود والمسلمين بالهجوم على كنيسة القيامة، وإشعال النيران في سقف مبنى الشهداء، وفي كاتدرائية صهيون المقدسة، ولم يتوقفوا إلا حين تمكنوا من قتل البطريرك حنا[٢٧]، لقد حاول الإخشيد أن يمنع هذه الاعتداءات على المسيحيين في القدس، وأبدى للامبراطور البيزنطي استعداده لإعادة بناء ما دمر، غير أن الامبراطور قال أنه سيعيد بناء المدينة بحد السيف. وبذلك اتسعت دائرة الشر، وغدا موقف المسلمين في الدفاع عن القدس شديد التصلب. ولقد كان طبيعياً كما تقول أرمسترونغ أن يتخذ المسلمون موقفاً دفاعياً عن مدينتهم المقدسة " فلم يكن من المتخيل أنه في حال انتصار اليونانيين (البيزنطيين) أنه يمكن معاملة السكان (المسلمين) بشهامة ورحابة صدر كما سبق أن فعل عمر بن الخطاب" حين تم الفتح الإسلامي للقدس في عهده. من هنا نرى أن المسلمين بدؤوا

(27) غاسبار، المصدر السابق، ص ٥٨

لأول مرة يتطلعون إلى تجاوز نطاق الحرم، كي يؤكدوا في جو التهديد البيزنطي مكانتهم الراسخة في القدس، فقاموا في أجواء انهيار السلام الإسلامي- المسيحي بتشييد مسجد جديد على التل الغربي قرب كنيسة القيامة، وسموه باسم الخليفة عمر، وكان أول مبنى للمسلمين يقام في المنطقة المسيحية المقدسة[٢٨]. وتفسير ذلك بسيط، إذ أن الخطر الذي استشعره المسلمون على القدس قد دفعهم إلى مزيد من التصلب تجاه الآخر فيها.

وصف المسجد الأقصى في هذه الفترة :

أبهة المقدس

يفصِّل ابن الفقيه في كتابه " مختصر كتاب البلدان ـ الذي ألفه في عام ٩٠٣م وصف المسجد الأقصى في هذه الفترة، بأن طوله ألف ذراع وعرضه سبع مئة ذراع، وفيه أربعة آلاف خشبة، وسبع مئة عامود، وخمس مئة سلسلة نحاس، ويُسرج في كل ليلة ألف وست مئة قنديل وفيه من الخدم مئة وأربعون خادماً. وفي كل شهر له مئة قسط زيت، وله من الحصر في كل سنة ثماني مئة ألف ذراع، وفيه خمسة وعشرون جباً للماء. وفيه ستة عشر تابوتاً

(28) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٢٨.

للمصاحف المسبلة، وفيه مصاحف لا يستقلها الرجل، وفيه أربع معابر للمطوعة وواحدة للمرتزقة. وله أربعة مياضيء (من الوضوء) وعلى سطوح المسجد مكان الطين خمسة وأربعون ألف صحيفة رصاص، وعلى يمين المحراب بلاطة سوداء مكتوب فيها: خلقة محمد (ﷺ)، وفي ظهر القبلة في حجر أبيض كتابة: بسم الله الرحمن الرحيم، محمد رسول الله. وداخل المسجد ثلاث مقاصير للنساء، طول كل مقصورة سبعون ذراعاً، وفيه خمسون باباً داخلاً وخارجاً، ووسط المسجد دكان (=دكة،مرتفع) طوله ثلاثمائة ذراع في خمسين ومئة ذراع، وارتفاعه تسعة أذرع، وله ست درجات إلى الصخرة وسط هذا الدكان. وهي مائة ذراع في مائة ذراع ارتفاعها سبعون ذراعاً، ودورها ثلثمائة وستون ذراعاً. يُسرج فيها كل ليلة ثلثمائة قنديل. وبها أربعة أبواب مطبقة على كل باب أربعة أبواب. وعلى كل باب دكانة مرخمة. وحجر الصخرة ثلاثة وثلاثون ذراعاً في سبعة وعشرين ذراعاً، تحتها مغارة يصلي فيها الناس سعتها تسعة وستون نفساً، وفرش القبة رخام أبيض، وسقوفها بالذهب الأحمر، وفي دور حيطانها وفي أعلاها ستة وخمسون باباً مزججة بأنواع الزجاج. والباب ستة أذرع في ستة أشبار. ومن شرقي قبة الصخرة قبة السلسلة على عشرين

عمود رخاماً ملبسة بصفائح الرصاص، وأمامها مصلّى الخضر، وهي وسط المسجد. وفي الشامي قبة النبي (ﷺ) ومقام جبريل عليه السلام، وعند الصخرة قبة المعراج، وفيه من الأبواب، باب داوود وباب حطة، وباب النبي، وباب التوبة، وفيه محراب مريم، وباب الوادي، وباب الرحمة، ومحراب زكريا، وأبواب الأسباط، ومغارة إبراهيم، ومحراب يعقوب، وباب دار أم خالد، ومن خارج المسجد الأقصى على باب المدينة في الغرب محراب داوود، ومربط البراق في ركن مغارة القبلة"(٢٩). ويذهب الاصطخري الذي توفي في سنة ٩٥٧م أن " في بيت المقدس مسجد ليس في الإسلام مسجد أكبر منه، له بناء في قِبليّة، مسقوف في زاوية في غربي المسجد، ويمتد هذا التسقيف على نصف عرض المسجد. والباقي من المسجد خال لا بناء فيه، إلا موضع الصخرة، فهناك حجر مرتفع كالدكة عظيم كبير غير مستور. وعلى الصخرة قبة عالية مستديرة الرؤوس. وقد غُشيت بالرصاص الغليظ السميك، وارتفاع هذه الصخرة من الأرض إلى صدر القائم، وطولها وعرضها متقارب، وينزل إلى باطن هذه الصخرة بمراق، من باب يشبه السرداب إلى بيت يكون طوله نحو خمسة أذرع في عشرة لا

(29) شراب، المصدر السابق، ص ٣٨٩–ر٣٩٠

بالمرتفع ولا بالمستدير ولا بالمربع، وسمكه فوق القامة. وإذا وصلت إلى بيت المقدس من الرملة، فهو (أي المسجد الأقصى) أول ما يلقاك، وتراه من بيت المقدس. وبمسجدها آثار لعامة الأنبياء ومحاريب معروفة"(٣٠).

الترسيخ الإسلامي لرموز الديانات التوحيدية:

وضع الإسلام نفسه في خط الديانات التوحيدية (السماوية) بوصفه استمراراً وخاتمة لها. من هنا لم يكن ديناً مانعاً لا يستطيع أن يعيش مع أي دين آخر غيره بل ديناً جامعاً يقبل الديانات التوحيدية. من هنا جمع المسلمون بين جنبات الحرم المقدسي، وفي المسجد الأقصى وحوله، وفي بيت المقدس عموماً، كل ما يذكّر برموز الديانتين اليهودية والمسيحية. وحسب تعابير غاسبار" تنتشر في الحرم الشريف الأماكن التذكارية لحوادث العهد القديم والعهد الجديد. فنرى مدى ارتباط الإسلام باليهودية والمسيحية. نمر من معبد زكريا وإيلياء إلى محراب مريم (مكان البشارة حسب

(30) أبو إسحاق الاصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال، دمشق ١٩٦١، ص ٤٤.

القـرآن) وإلـى مـهـد المسـيح"[٣١]. من هنا حـافظ المسلمـون على جميع ما عفا عليه الزمن من آثار الديانات التوحيدية، ثم أطلقوا أسـمـاء تذكـر بالأنبـيـاء والرسل الأقـدمين على أمـاكن إسـلامـيـة . ويذكر الحسيني " أن معظم الآثار الموسوية في بيت المقدس قد درس، وأضحى بحق كباقي الوشم في ظاهر اليد . على أن الإسلام حافظ على ما بقي منها بعد أن عدَّها من آثار أنبياء الله المرسلين" وبالتالي من آثار الإسلام نفسه، الذي يرجع بأصوله إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل. ومما يسترعي النظر في صحن الحرم أن فيه السلسلة المجاورة لقبة الصخرة من جهة الشرق. وهذه السلسلة ينسبها المسلمون إلى سليمان بن داوود، لذا كتبوا فوق محرابها الآية القرآنية ﴿ يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ﴾، وأبلغ من ذلك دلالة أن المسلمين أنشؤوا مسجداً في مكان يسمى "مقام النبي داوود" على ربوة جبل صهيون، سدنته أسرة مسلمة من آل الداوودي تعرف بالدجاني، إلى أن وضع الإسرائيليون يدهم عليه بعد احتلالهم القدس عام ١٩٦٧, أما داخل الحرم – الذي يضم المسجدين الأقصى والصخرة– جامع موسى، وجامع يسمى كرسي سليمان، تؤدى فيها الصلاة. هذا عدا الآثار التي تقع خارج بيت المقدس. ومن أشهرها مقام النبي

(31) غاسبار، المصدر السابق، ص ٥٨,

إبراهيم في المدينة التي سماها المسلمون باسمه " الخليل " وفيه مسجد كبير(٣٢).

لقد رسخ المسلمون القادمون إلى القدس تقليداً إسلامياً يقوم على تعلم تبجيل الرجال والنساء الذين عاشوا وتعبدوا وعانوا في المدينة قبلهم. فقيل إن قبة السلسلة التي تقع شرقي قبة الصخرة هي المكان الذي كان الملك داوود يصدر منه أوامره. وفي نهاية الحرم الشمالية كان هناك حسب المسلمين مقعد أو كرسي سليمان حيث صلى بعد انتهائه من بناء المعبد. كما تم الربط بين بعض بوابات الحرم وذكريات عن أنبياء اليهود. كما يذكر القرآن بالمقابل عن مواضع عديدة، ترتبط بمولد المسيح، فيذكر أن زكريا رعى مريم حين حملت، وكان الطعام يأتيها من الله. وكلم عيسى الناس بالمهد. لذا اعتاد المسلمون الذي يزورون القدس الصلاة عند موضع "معجزة زكريا" في الركن الشمالي الشرقي من الدكة، وفي أقبيتها حيث محراب مريم ومهد المسيح. ثم يطل الزائرون المسلمون على وادي جهنم وجبل الزيتون، حيث مكان يوم الحساب. وعلى هذا أطلقوا اسم " باب الرحمة" على باب الحائط الشرقي للحرم، لأن الصراط المستقيم سيكون هناك، كما قيل إن

(32) الحسيني، المصدر السابق، ص ٤٧-٤٨,

الحرم نفسه سيصبح الجنة بعد الحساب. أما الجحيم فسيكون مكانه وادي جهنم. لذا أنشأ الصوفيون في الغرف التي تعلو بوابة الحرم خلوة ألحق بها مسجد يمكنهم منه تأمل النهاية القادمة. وفي القرن التاسع في عهد العباسيين شيدت بعض الأضرحة والمساجد الصغيرة في منطقة الحرم، فقامت على شمال قبة الصخرة قبة الرسول، وأيضاً مبنى في موضع نزول جبريل. وبعض الأبنية التي تدل على الأماكن التي صلى فيها النبي وجبريل أو التي أمَّ فيها النبي الأنبياء جميعاً، وقريباً من هذا الموقع، شيدت قبة المعراج التي يقال أن النبي بدأ عليها عروجه إلى سدرة المنتهى. وكان المسلمون يحبون الصلاة عند البوابة الغربية للحرم المسماة" بوابة النبي" حيث يقال أن النبي دخل إلى المدينة، كما يذهبون إلى المكان الذي يقع في الجنوب الغربي للحرم حيث يوجد مربط البراق، حيث ربط النبي به براقه [٣٣]، وهو الحائط الذي يرى اليهود أنه بقايا هيكل سليمان.

---

(33) ارمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤١٦-٤١٧.

تكرار الإسراء النبوي إلى القدس
في السلوك الإسلامي وفي وعي المتصوفة

تم في القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي في الفترة العباسية تدوين العلوم الإسلامية بطريقتها الكاملة، إلا أن تدوين الأحاديث النبوية تم منذ القرن التاسع الميلادي، مما سمح بظهور طائفة من أئمة الحديث، اشتهر منهم الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) والإمامان محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) ومسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ) صاحبا الصحيحين الذائعي الصيت في بلاد الإسلام حتى اليوم، وأبو داوود (ت٢٧٥هـ) صاحب السنن، والترمذي (ت ٢٧٨هـ) صاحب الجامع، والنسائي(٣٠٣هـ)، وابن ماجه (٢٧٥هـ) صاحب السنن. وهي أشهر كتب السنة، التي يقف في مقدمتها، صحيح البخاري ومسلم. وقد احتلت تلك الكتب مكانة مرجعية سامية في التشريع الإسلامي الذي يعتبر السنة مصدراً ثانياً أساسياً من مصادر التشريع[٣٤]. وقد دونت هذه الكتب "أخبار" النبي وأقواله، وكان في عدادها الأحاديث التي تعرضت لمكانة القدس، وفضائلها وفضائل الشام، ووقائع الإسراء والمعراج، وحسنات الصلاة في المسجد الأقصى. واضطلعت الأحاديث بوظيفة إرشاد

(34) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٢، ط٧، القاهرة ١٩٦٤، ص ٣٣٠.

المسلمين إلى كيفية محاكاة سلوك الرسول، والاقتداء به، ومحاولة استعادته. ليصبح ذلك الفعل التكراري في محاكاة الرسول حلقة وصل بين المسلمين وبين النموذج الكامل لديهم، أي النبي الذي يمثل للمسلمين البشرية كما أرادها الله أن تكون.

تحتل العمرة إلى بيت المقدس ومسجده الأقصى مكانة مهمة في "السنة" الإسلامية، إذ تغدو العمرة تكراراً من الدرجة الثانية لإسراء النبي، كما يصبح السكن في بيت المقدس والصلاة في جامعه، بل الرغبة والموت والدفن في ترابه، فعلاً محبباً للمسلمين، بعد أن أصبحت مدينة القدس مرتبطة بالرسول الرجل الكامل، الذي وطّد إسراؤه من مكة إلى بيت المقدس الصلة بين المدينتين، فقد حمل الرسول في شخصه القداسة الأولية إلى مكة ونقلها إلى المسجد الأقصى، وارتفعت قداسة المسجد الأقصى، مثلما ارتفعت قداسة مكة والمدينة بحضور الإنسان الأسمى الذي أوجد صلة جديدة بين السماء والأرض، كما بينت ذلك بوضوح قصة المعراج[٣٥]. إن اندغام القدس في تقاليد " السنة" الإسلامية يفسر أن المسلمين كانوا يقصدون القدس استجابة للأحاديث النبوية التي تغلغلت في لا شعورهم الإسلامي السلوكي والروحي حول

(35) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ر٤١٤

فضائلها، وكان بعض هؤلاء يوصي بأن يدفن فيها طالما أنها مكان الحشر والنشر. فلقد سبق لابن اسحاق في بداية العهد العباسي أن كتب مدونته الكبرى عن السيرة النبوية التي حولها المسلمون إلى سيرة رسمية تناقلها علماء الدين والعامة على حد سواء. وتروي هذه المدونة الرحلة النبوية " الإسراء والمعراج" بواسطة جبريل الذي نقل النبي على البراق من مكة إلى جبل موريا مكان المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السماء حتى سدرة المنتهى. وقد اكتسبت هذه الرواية إيحاءاتها الأكثر تجسيداً بعد إتمام بناء قبة الصخرة حيث أعطت صورة قوية للتعالي الروحي. ولقد ألهمت بقوة الصوفيين وجذبتهم للاقتراب من تلك النقطة، التي بدت لهم نقطة التلاقي بين الأرض والسماء، عبر القطب " النبوي" أو الإنسان الكامل. وبدأ المتصوفة يتقاطرون إليها من كل صوب من العالم الإسلامي، فكما أذهلت فكرة أن القرآن " كلام الله" المتصوفة الذين خاضوا محاولات استرجاع روحية للحظة التي بلّغ فيها جبريل هذا الكلام للنبي، عبر قراءة عميقة روحية لكلام الله، تذهل فيها " نفس" الصوفي عن الزمان الرمادي لتعبر بها إلى الزمن القدسي، فإن المتصوفة هنا بحثوا أمام قبة الصخرة، وما ترمز إليه من الارتقاء النبوي عن لحظة المعراج تلك، وحاولوا أن يقوموا باسترجاع من الدرجة الثانية لهذا الارتقاء المقدس. ونظراً إلى أن "

موتيفة" العودة إلى الوحدة الأولية كانت حاسمة في فهم المتصوفة للمسعى الروحاني، فإن الاسراء والمعراج أصبح النموذج الأصلي لخبرتهم الروحانية الخاصة. حيث رأوا كيف فقد النبي ذاته منتشياً في الحضرة الإلهية، ورأوا في ذلك "الفناء" مقدمة فقط لـ"بقاء" تسمو فيه الإنسانية سمواً تحقق فيه ذاتها. فأخذ الصوفيون يتقاطرون حول الحرم، إلى درجة أنهم اتخذوا من أروقة الأعمدة حول الرصيف سكناً كي يتاح لهم تأمل رموز القبة، والصخرة التي بدأ منها النبي معراجه[٣٦].

ويعتبر إبراهيم بن أدهم (ت١٦١هـ) أحد أبرز المتصوفة الكبار الذين زاروا القدس بعد المتصوفة الإسلامية الكبيرة رابعة العدوية. وما يزال يحتل حتى اليوم مكانة سامية في الوعي الشعبي الإسلامي، وأصله من بلخ وتقول القصة الرمزية التي تروي حياته أنه كان ابن ملك من ملوك خراسان، وأنه كان محباً للصيد، فسمع في إحدى رحلات صيده وهو راكب على فرسه صوتاً يقول له: ما لهذا خلقت ولا بهذا أموت، فوقف وقال: انتهيت انتهيت، جاءني نذير من رب العالمين. فتخلى عن فرسه، وأخذ من بعض رعاة أبية جبة وكساء، ثم ألقى ثيابه. وتروي القصة أنه قال:"

---

(36) المصدر نفسه، ص ٤١٣

سألت بعض المشايخ عن الحلال فأرشدني إلى بلاد الشام، فأتيت طرسوس، فعملت بها أياماً أنظر البساتين، وأحصد الحصاد " وكان يقول " ما تهنيت بالعيش إلا في بلاد الشام، أفر بديني من شاهق إلى شاهق، ومن جبل إلى جبل، ومن يراني يقول هو موسوس" وكان لا يأكل إلا من عمل يديه، مثل الحصاد وعمل الفاعل وحفظ البساتين(٣٧). ولقد قدم ابن أدهم بيت المقدس وأقام فيه، ويروى أنه خرج ذات مرة منه " فمر بطريقه وصادف المسلحة(= الجنود)، فقالوا له: أنت عبد؟ (أي رجل غير حر) فقال: نعم. قالوا: آبق؟ قال: نعم، فسجنوه. وبلغ أهل بيت المقدس خبره فجاؤوا برمتهم إلى نائب طبرية، وقالوا: علام سجنت إبراهيم بن أدهم؟ فقال: ما سجنته، قالوا: بل هو في سجنك. فأحضره فقال له: علام سجنت، قال: سل المسلحة. قالوا: أنت عبد فقلت: نعم، وأنا عبد، وقالوا: آبق، قلت نعم، وأنا عبد آبق من ذنوبي، فخلي سبيله"(٣٨). ومما يسترجعه المؤمنون عن ابن أدهم أنه كان ينام عند الصخرة(٣٩) تبركاً بها.

وقدم السري بن المغطس السقطي (ت٢٥٣ هـ-٨٦٧م)، وهو

(37) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠، ص ١٣٦.

(38) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(39) محمود إبراهيم، المصدر السابق، ص ٣٩٣.

من كبار متصوفة بغداد إلى بيت المقدس، خارجاً من الرملة. ويذكر أنه مر في طريقه بغدير ماء وعشب، فجلس وأكل العشب وشرب ماء، فقال في نفسه " إن كنت أكلت أو شربت في الدنيا حلالاً فهو هذا" فسمع هاتفاً يقول له " يا سري فالنفقة التي بلغتك هنا من أين"[٤٠]. وأتاها المتصوف الشهيد سفيان الثوري (ت ٢٦١هـ) الذي اشتهر بزهده وورعه، حيث صلى في المسجد الأقصى بموضع الجماعة، وروي أنه أتى الصخرة فقرأ فيها خاتمة (أي ختمة القرآن)، ويذكر الوليد بن مسلم عن بيرقة بن زيد أنه لقي سفيان الثوري في مسجد الجمان ببيت المقدس، فسأله هل أتى القبة، أي قبة الصخرة، فأجابه نعم، وختمت فيه القرآن[٤١]. وقال أبو عقبة فيه: رأيت ببيت المقدس شيخاً كأنه محترق بنار، عليه مدرعة سوداء، عمامته سوداء، طويل الصمت، كريم المنظر، كثير الشعر، شديد الحزن، فقلت له : يرحمك الله لو غيرت لباسك هذا.. فبكى وقال: هذا أشبه بلباس المصاب، وإنما نحن في

---

(40) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ,٣٥٨ قارن مع محمود إبراهيم، المصدر نفسه، ص ,٣٩٨

(41) السيوطي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص,٤٦ قارن مع الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص ,٢٦١

الدنيا في حداد[٤٢]، كما أقام في بيت المقدس محمد بن كرام (ت٢٥٥هـ) الذي تنسب إليه الطريقة الكرامية الصوفية، وقد اعتاد الجلوس ببيت المقدس عند العامود عند مهد عيسى، وبقي فيه إلى أن توفي فيه، ودفن هناك[٤٣]. وسكن ثور بن يزيد بيت المقدس، وكان يلازمه رجل من قرية مقدسية يأتي إليه مع الفجر، فيصلي الصلوات كلها معه ببيت المقدس، وينصرف بعد العشاء إلى قريته، وهو ما يشير إلى اندغام المؤمنين مع المتصوفة في إقامتهم التي تتبرك ببيت المقدس. كما يروى في هذا الصدد أن خالد بن معدان سمع حديثاً مرفوعاً إلى النبي يقول: " من رأى شيئاً يهوله أو يفزعه فليقل أن اللهّ هو الذي ليس كمثله شيء، وهو الواحد القهار،فما قالها إلا فرَّج الله عنه.."[٤٤]. وأتى بيت المقدس أيضاً المتصوف الشهير ذو النون المصري (ت ٢٤٥هـ)، فقال: وجدت على صخرة بيت المقدس كل عاص مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف هارب، وكل راجٍ طالب، وكل قانع غني، وكل محب ذليل[٤٥]. وليس مهماً في المنظور الأنتروبولوجي

---

(42) السيوطي، المصدر نفسه، ص ٤٦.

(43) الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص ٢٦٢.

(44) السيوطي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦-٤٧.

(45) محمود إبراهيم، المصدر السابق، ص٣٩٨ قارن مع الحنبلي، المصدر السابق، ص٢٦٢.

للرموز الدينية إخضاع المرويات أو الأحاديث إلى قانونية صحة الإسناد ودقته، بل إن المهم هنا هو كيفية تحول القدس بما هي جزء من الجغرافية الإسلامية المقدسة إلى مروية رمزية ذات آليات خاصة بها.

إن تأثير مروية الإسراء والمعراج ورمزية قبة الصخرة المشبعة بالدلالات لم يقتصر على المتصوفة بل تغلغل في لاوعي المسلمين عموماً في تلك المروية الصورة النموذجية الأصلية للعودة إلى أصل الوجود. من هنا طور الزوار المسلمون للقدس من خارجها أسلوباً رمزياً يحاكي الأحداث الخارجية (الظاهرية) للإسراء والمعراج، كوسيلة للمشاركة في تلك الرحلة الروحانية النبوية، لا سيما أن البنايات أو القبب التي شيدت في قلب الحرم، تذكر الزائر المشبع بالمروية المقدسة الإسلامية عن القدس بالرموز الدالة على تلك الرحلة. من هنا لم يكن مفارقة أن يبدأ الكثير من المسلمين حجهم إلى مكة بزيارتهم أو حرمهم إلى القدس أولاً، ومما يذكر هنا أن صالح بن يوسف أبو شعيب (ت ٢٨٢هـ) قد حجَّ سبعين حجة راجلاً، وفي كل حجة منها كان يحرم من صخرة بيت المقدس، لينتقل بها ليؤدي مناسك الحج في مكة[٤٦].

(46) إبراهيم، المصدر نفسه، ص ٣٩٨-ر٣٩٩

كما يروى أن وكيع ابن الجرّاح (أبو سفيان الرواسي الذي توفي سنة ١٩٩ هـ) قد قدم بيت المقدس ليحرم منه إلى مكة، ويذكر ذلك أبو داوود في " سننه"، بعد أن ساق حديث أم سلمة في فضل الإحرام من بيت المقدس، بقوله: رحم الله وكيعاً، أحرم من بيت المقدس إلى مكة[٤٧]. ورغم أن الفقهاء المسلمين بحكم تمسكهم بظاهر النص القرآني، وتشددهم في نفي ما يسمى بالبدع التي تشكل جزءاً من المخزون الرمزي للمقدس، فإنهم لإدراكهم مكانة القدس في الجغرافية الإسلامية المقدسة، كانوا يزورونها، مثل زيارة فقيه الشام عبدالرحمن بن عمر الأوزاعي(ت٢٥٧هـ) الذي تجنب أن يقصد المزارات، وصلى ووراءه الصخره الشريفة، وقال: هكذا فعل عمر بن عبدالعزيز[٤٨]. وقد حرص هنا مثل الفقهاء الآخرين على التمسك بحرفية التعاليم الإسلامية وتجنب أي شطط رمزي في ذلك مع معرفته بفضائل القدس.

لقد شكلت القدس باستمرار موقعاً مقدساً يغني المخزون الرمزي الإسلامي بشعرية عليا جليلة، فهذا هو المتصوف بشر بن الحارث

(47) المصدر نفسه، ص ٣٩٦-٣٩٧, قارن مع شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٥٧,

(48) الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص ٣٥٨-٣٥٩,

الحافي (ولد ٢٢٦هـ) يزور بيت المقدس، ويجيب عن سؤال : لِمَ يفرح الصالحون ببيت المقدس؟ بـ: لأنها تذهب الهم، ولا تستعلي النفس بها، ثم قال: ما بقي عندي من لذات الدنيا إلا أستلقي على جنبي تحت السماء بجامع بيت المقدس[٤٩]. ولقد كان المسلمون يعرفون جيداً التراتبية الإسلامية لأولويات فضائل الصلاة في مكة ثم القدس، إلا أن شعرية القدس العليا لديهم كانت تتدخل وتعطي للصلاة في بيت المقدس فضيلة خاصة من دون أن يتناقض ذلك مع أولويات تلك التراتبية، وهو ما يدخل في باب الرؤيا الإسلامية بمعناها الداخلي الحدسي الذي يتميز عن الرؤية أو المشاهدة الحسية. ولا أدل على ذلك ما يروى من أن " أحمد بن يحيى البزاز البغداي قدم من مكة إلى بيت المقدس، فندم على مجيئه. إذ قال: تركت الصلاة بمكة بمائة ألف صلاة، وهنا في بيت المقدس بخمس وعشرين ألف صلاة، وبمكة ينزل عشرون ومائة رحمة للطائفين والمصلين وللناظرين. فأراد الخروج إلى مكة، فرأى النبي (في الرؤيا)، وذكر له ما خطر له من الفضل، فقال له النبي في الرؤيا: نعم هناك (أي في مكة) الرحمة تنزل نزولاً وهنا (أي في بيت المقدس) تصب الرحمة صباً. فلو لم يكن هذا الموضع

(49)السيوطي، المصدر السابق، ج٢، ص ,٥١

محل عظيم (واشار بيده إلى موضع الإسراء والمعراج عند قبة المعراج) لما أسري إليه بي. فأقام الرجل بالقدس إلى أن مات ودفن هناك. وكانت رؤيته في رجب ٣٤١هـ"[٥٠]. وبذلك ترسخ في الوعي الإسلامي الرمزي في المرحلة العباسية موقع القدس كبنية مولِّدة لشعرية رمزية دينية رؤيوية عليا، تشكل فيها نوع من الحدس الجماعي الإسلامي بوصف أن القدس كمكان مقدس قد أخذت تعرف معرفة داخلية أي روحية مباشرة، تحضر فيها العلاقات الميتافيزيقية للمكان بكل إشراقاتها العليا.

---

(50) المصدر نفسه، ص ٥٢.

الفصل السادس

بين المرحلة الفاطمية والمرحلة السلجوقية

أدت وفاة كافور الإخشيدي في ٣٥٧هـ-٩٦٨م إلى اضطراب الحالية السياسية في مصر، إذ هاجم القائد الفاطمي جوهر الصقلي مصر، وحين وصل إلى الإسكندرية استقر رأي الوزير العباسي ابن الفرات في بغداد على الصلح معه، مقابل أن يصدر كتاب أمان للمصريين ينص على استمرار إقامة شعائر الحج، وإصلاح الطرقات، واستتباب الأمن، وتوفير الأقوات، وإصلاح السكة (العملة)، ونشر العدل، وترميم المساجد وتأثيثها، وأن يبقى المصريون على أنفسهم وأموالهم وأهاليهم[1]. وبهذا الشكل باتت مصر خاضعة للخلافة الفاطمية في وقت تمزقت فيه سلطة الخلافة الإسلامية إلى ثلاثة مراكز في بغداد العباسية والأندلس الأموية والقاهرة الفاطمية. وما لبث الفاطميون في ٩٦٩م أن بسطوا سيادتهم على دمشق ثم فلسطين بما فيها القدس، مستغلين الصراعات ما بين الأسرتين الحمدانية والإخشيدية والقرامطة والقوى القبلية، التي كانت فلسطين مسرحاً لها لمدة ثلاثين

(1) محمد جمال الدين سرور، مصر في عصر الدولة الفاطمية، ج١، القاهرة ١٩٦٠، ص٣٢-٣٥.

عاماً[٢]. وبتأثير هذه الصراعات فإن عدد سكان القدس حين استولى عليها الفاطميون لم يتجاوز ٢٥ ألف نسمة[٣]. غير أن تلك الصراعات لم تتوقف قط، واستمر بها المرداسيون الذين ورثوا الحمدانيين في حلب والسلاجقة الذين قضوا على المرداسيين، وتمثل محور هذه الصراعات في السيطرة على بلاد الشام، مما جعل السلطة الفاطمية على القدس مضطربة وقلقة[٤]. غير أن الفاطميين تمكنوا من الحفاظ على سيطرتهم على القدس من عام ٩٦٩م إلى عام ١٠٧٣م، إلى أن ظهر السلاجقة بأعداد كبيرة في شمال العراق وسورية، ودخلوا بغداد في عام ١٠٥٥م، ثم بسطوا سيادتهم على بلاد الشام، وانتزعوا القدس من الفاطميين في عام ١٠٧٣م[٥].

الفاطميون
من التسامح إلى التشدد

اتسمت سياسة الفاطميين تجاه " أهل الذمة" (المسيحيين واليهود) بالتسامح، وهو ما يفسر أن الخليفة الفاطمي المعز لدين

(2) شوفاني، المصدر السابق، ص ١٨٦.
(3) العارف، المصدر السابق، ص ٦٢.
(4) العاقل، المصدر السابق، ص ٢٨٩.
(5) شوفاني، المصدر السابق، ص ١٨٧.

الله قد استعان بكثير من الأطباء اليهود، وارتقى يعقوب بن كلس إلى أعلى المناصب، حتى أصبح وزيراً للخليفة العزيز بن المعز الذي عبّر عن تسامحه مع المسيحيين بالتزوج من مسيحية، وبمشاركة المسيحيين أعيادهم، كما اتبع السياسة نفسها تجاه اليهود، وعيّن منشا بن إبراهيم العزار اليهودي والياً على الشام[٦] كما عيّن أورست شقيق زوجته المسيحية بطريركاً للقدس، وشقيقاً آخر لها بطريركاً على القاهرة ومصر. واستمر الحاكم بأمر الله بن الخليفة العزيز بتطبيق الشروط العمرية(نسبة إلى عمر بن الخطاب) على أهل الذمة قبل أن يتصلب موقفه منهم[٧]، إذ حين توفي الخليفة العزيز في ٩٩٦م في القاهرة خلفه ابنه الحاكم بأمر الله المعروف بورعه وتقشفه، وكانت أم الحاكم مسيحية، فأظهر في البداية تعاطفاً كبيراً مع المسيحيين، وعيّن خاله أريستس بطريركاً، وعقد في عام ١٠٠١م هدنة مع امبراطور بيزنطة، ظهرت وكأنها فاتحة علاقة جديدة ما بين الإسلام والمسيحية. ولكن موقف الحاكم من المسيحيين أخذ يتغير لأسباب يحددها البعض بنوازعه الشخصية، وسيطرة دوافع غامضة عليه. غير أن التفسير التاريخي المقنع

(6)سرور، المصدر السابق، ص ٥٤-٥٥،

(7)شاكر مصطفى، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، القسم الثاني، المصدر السابق، ص ٤٩٠،

يسمح بالقول إن هذا التغير تجاه المسيحيين الذين كان يسكن كثير منهم القدس كان مرتبطاً بالضغط البيزنطي من جهة، وبالجو الاحتفالي الصاخب الذي صار يصاحب الطقوس المسيحية، وقد مثَّل هذا الجو تحدياً واستفرازاً للمسلمين في شروط الضغط البيزنطي. ومن قبيل هذا الجو الطقسي الاحتفالي أن الكنيسة كانت تحتفل سنوياً بالطقس السنوي للنار المقدسة في كنيسة القيامة، في المساء السابق لأحد القيامة ,حيث تتجمع الحشود في الكنيسة المستديرة، ومصلى الشهداء، في ظلام دامس، منتظرة إشارة البطريرك الذي يكون مستغرقاً في تلاوة الصلوات من خلف المقبرة، ثم تبزغ فجأة شعلة بيضاء صاخبة، وكأن مصدرها السماء، فتطلق الحشود المسيحية صرخة بهيجة صاخبة، ثم تنشد النصوص بصوت مرتفع، وبعدها يتفرق الحشد، ويحمل كل منهم النار المقدسة إلى بيته، مندفعين في الأزقة وهم يصرخون: سارعوا إلى دين الصليب. من هنا بدا الأمر برمته وكأنه تحدٍ لعقيدة المسلمين، بإظهار سمو العقيدة المسيحية بتلك المظاهر، وفي الوقت نفسه كان صغار العقول يتخيلون أن هذه النار تهبط من السماء. وكانوا يحصلون على النار بإشباع الخيوط الحريرية الناعمة بالطيب، بعد دهنها بمهارة بالكبريت وبمواد قابلة للاشتعال. ولقد وصل للحاكم بأمر الله تقرير تفصيلي بهذا

الوضع[٨] في القدس. غير أن ذلك لم يكن ليغير سياسته تجاه المسيحيين لولا أن الدعوة الاحتفالية المسيحية إلى دين الصليب كانت تتم وسط شائعات عن وقوف المسيحيين والبيزنطيين خلف التوترات والاضطرابات في فلسطين، وتشجيع العدو على شن غاراتهم عليها.

تعقد الأمر حين لاحظ الخليفة الحاكم بأمر الله في أحد أعياد القيامة في القدس، أن مجموعة كبيرة من الاقباط المسيحيين المصريين تتوجه إلى القدس في *استعراض استفزازي، كما كانت* تقارير مخبريه تشير إلى أن الأباطرة البيزنطيين يزورون القدس سراً حاملين معهم كميات هائلة من الفضة والأردية الكهنوتية، والأقمشة المصبوغة، والأنسجة المطرزة، والسجاجيد. مما أثار حفيظة الحاكم بأمر الله، فصدرت عنه عدة إجراءات تحد من مكانة المسيحيين في القدس، وتضعف دورهم الذي سبق للخلفاء الفاطميين أن عززوه إلى درجة تدفع المقدسي إلى الإشارة في "أحسن التقاسيم" " أن القدس أصبحت مكان الذميين، الذين أصبح لهم فيها اليد العليا في الأمور كلها، فانقلبت سياسة الحاكم رأساً على عقب، وبدأ ينهج سياسة عدائية تجاه غير المسلمين،

(8) غاسبار، المصدر السابق، ص ٥٩.

فاشار بهدم الكنائس المسيحية في القدس، وبأن يلبس أهل الذمة النصارى السواد، ومنعهم من الاحتفال بعيد الشعانين"[٩]. بل ذهبت سياسته العدائية في طريق أبعد، فأصدر في عام ١٠٠٣م أمراً بهدم كنيسة القديس مرقوريوس في الفسطاط(مصر)، وأعقبه في عام ١٠٠٩م بأمر آخر يقضي بإزالة كنيسة القيامة ومبنى قسطنطين للشهداء إزالة تامة. ثم صدرت تشريعات جديدة اشتملت على فصل الذميين عن الأمة، وأُجبر المسيحيون على ارتداء الصلبان الثقيلة حول أعناقهم، وكان ذلك فعلاً لا يتمشى مع المعهود من قبل حاكم إسلامي، حتى أنه تسبب في قلق رعايا الخليفة من المسلمين. غير أن سخط الخليفة الحاكم بأمر الله سرعان ما تحول في عام١٠١٦م من الذميين إلى المسلمين أنفسهم. فألغى القرارات المناهضة للمسيحيين اليهود، وأعاد للمسيحيين ممتلكاتهم، فأعيد في عهد ابنه الظاهر بناء الكنيسة المهدمة، وشرع في بناء سور القدس[١٠].

(9) العارف، المصدر السابق، ص ٦٢,

(10) المصدر نفسه، ص ٦٣-٦٤,

١- القلق السني من المذهبية الفاطمية :

كان الفاطميون في الواقع قد أخذوا يتبنون الدعوة إلى مذهبهم الفاطمي بين المسلمين، وأيدوا ذلك بتنظيم " القضاء" وأحكامه، عبر النفوذ الرسمي، فتكوّن أتباع لهم في الساحل الفلسطيني، كما وجد المعتزلة فرصة للجدل والمناظرة، وصارت لهم حلقات تُعقد في غير موضع، كما صار لأحياء الملل الأخرى من نصارى ويهود وسامرة حلقاتهم[11]. ولقد لاحظ المقدسي الذي الف كتابه " أحسن التقاسيم" في بداية العهد الفاطمي، أن المواقع الثقافية في القدس قد أخذت تتراجع في العهد الفاطمي المبكر، غير أن بعض المدارس السنية ظلت محيطة بالمسجد الأقصى، تكرس نفسها للعبادة والتعلم في بيت المقدس تبركاً بالمكان، ويصف المقدسي ذلك بأن إقليم فلسطين" قليل العلماء، مذاهبهم مستقيمة، أهل جماعة وسنة، ولا ماء فيه لمعتزلي، إنما حنفية. وفي بيت المقدس خلق من الكرامة لهم خوانق ومجالس، ولا نرى به مالكاً (نسبة إلى مذهب الإمام مالك بن أنس) ولا داوودياً (نسبة إلى ابن داوود) وللأوزاعية (نسبة إلى الإمام الأوزاعي) مجلس بجامع دمشق. والعمل في الإقليم على مذهب أصحاب الحديث، والفقهاء شفعوية (نسبة إلى الإمام الشافعي)، وأقل بلد

(11) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ٤٨٩،

أو قصبة ليس فيه حنفي. وربما كان القضاء منهم، ولهم في المسجد الأقصى مجلس ذكر يقرؤون في دفتر، وكذلك الكلامية (نسبةإلى أهل الكلام) في خوانقهم، ويجلس الفقهاء بين الصلاتين، وبين العشائين، وللقراء مجالس في الجوامع، وأقل ما ترى فيه فقيهاً له بدعة أو مسلماً له كتاب"(١٢). ولا ريب أن المقدسي الذي كان مذهبه سنياً ينظر إلى موقع القدس الثقافي هنا في ضوء مذهبه، فإلى عهد قريب كان المفكرون المسلمون من أمثال الإمام الشافعي مؤسس علم أصول الفقه (علم أصول القانون الإسلامي) والذي ينسب إليه مذهب فقهي خاص هو المذهب الشافعي، كثيري التردد على القدس، مجذوبين بقداسة المدينة. أما في العهد الفاطمي فقد أخذ عدد زوارها من رجال الدين السنة يتضاءل بسبب التشدد الفاطمي المذهبي، إذ كان هناك حرس عند كل بوابة، وقيود شديدة على التجارة. كما تراجعت الحوارات الفكرية في القدس، وأضحى أهل العلم قلة، وتراجع حضورهم في المدارس للتدريس، وإن بقي هناك بعض المراكز التي استمرت في ممارسة التعلم والعلم. فقد كانت لدى قارئي القرآن دوائرهم في بيت المقدس، وكانت لدى المدارس

(12) أبو عبدالله البشاري المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٤، ليون ١٩٦٧، ص ١٨٢-١٨٣.

الحنفية حلقة دارسين في المسجد الأقصى، وكان الصوفيون يلتقون في خوانقهم، غير أن العلم ازدادت ميوله المحافظة، وتبنى موقعاً دفاعياً، وكرس نفسه للتأويل الأكثر حرفية للقرآن الكريم(١٣).

لقد كان السنة رغم منهجهم الحرفي البياني في تأويل النص القرآني شديدي التشبع بالقيمة المقدسة الخاصة للقدس، ويعطينا المقدسي نفسه فكرة عن ذلك ويقول" ... سألني القاضي أبو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها (ببيت المقدس) فقلت سجْسَجٌ لا حر ولا برد شديد، قال: هذه صفة الجنة. بنيانها حجر لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها... وكنت يوماً في مجلس القاضي المختار أبي يحيى بن بهرام بالبصرة، فجرى ذكر مصر إلى أن سئلت: أي بلد أجلّ؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيهما أطيبُ؟ قلتُ بلدنا. قيل: فأيها أفضلُ؟ قلت بلدنا. قيلَ: فأيها أحسن؟ قلت بلدنا. قيل: فأيها أكثر خيرات؟ قلت: بلدنا. قيل: فأيها أكبر؟ قلت: بلدنا. فتعجب أهل المجلس من ذلك، وقيل: أنت محصل، وقد ادعيت ما لا يقبل منك.. قلت :أما قولي: أجلُّ، فلأنها بلدة

---

(13) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ر٤٣٠

جمعت الدنيا والآخرة، فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها، ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وجدها. وأما طيب الهواء فإنه لا سُمَّ لبردها ولا أذى لحرها، وأما الحسن، فلا ترى أحسن من بنيانها، ولا أنظف منها، ولا أنزه من مسجدها. وأما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكة الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادة كالأترج والرُّطب والجوز والتين والموز. وأما الفضل فلأنها عَرصة القيامة ومنها المحشر وإليها المنشر، وإن فُضلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي. ويوم القيامة تزفان إليها، فتحوي الفضل كله. وأما الكِبر فالخلائق كلهم يحشرون إليها. فأي أرض أوسع منها؟ فاستحسنوا ذلك وأقروا به"[١٤]. ونلاحظ هنا أن الأفضليات التي ينسبها المقدسي إلى القدس على مختلف المستويات من ناحية الطيب والأفضلية والخير الكثير والكبر والجلال هي برمتها أفضليات مبنية على جلالها القدسي، وحتى أن الصفات المناخية المعتدلة للهواء هي صفة مقدسة تعود مرجعياً إلى هواء الجنة.

(14) البشاري المقدسي، المصدر السابق، ص ١٦٥-،١٦٨

٢- القدس الفاطمية

إعادة تعمير المسجد الأقصى :

غير أن المذهبية الفاطمية المضيقة نسبياً على المذهبية السنية السائدة في القدس وعلى مراكزها العلمية، لم تمنع الخلفاء الفاطميين من تكريس التقليد الرسمي الإسلامي في احترام القدس، والذي أخذ يعكس تماما قداستها في الوعي الإسلامي العام. ولقد كانت العمارة بنداً ثابتاً في ذلك التقليد حرص عليه الخلفاء والولاة المسلمون، من هنا قام الحاكم بأمر الله بتعمير الأجزاء التي سقطت من قبة المسجد الأقصى، ومن الحرم في زلزال ٤٠٧هـ/١٠١٦م وأكمل ابنه الظاهر لإعزاز دين الله ذلك[١٥] حيث أمر وزيره علي بن أحمد بإصلاح وترميم ما تصدع من المسجد الأقصى، وقد سجل هذا الترميم في شريط من الكتابة ما تزال تحتفظ به رقبة القبة التي تعلو الرواق الأول أمام المحراب. كما سجل تجديده لبناء الأجزاء المهدمة من المسجد الأقصى بشريط الكتابة المرسَّم على الواجهة الشمالية لمربع القبة، والذي جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، قد جدد المسجد الأقصى سيد الأنام الأمير علي أبو الحسن الإمام الظاهر لإعزاز دين الله أمير المؤمنين ابن الحاكم بأمر الله" . والحق أن الاهتمام الفاطمي المركَّز بتجديد

---

(15) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ٤٩١-٤٩٢،

المسجد الأقصى وعمارته لن يتوقف قط، إذ جدد الخليفة المستنصر بالله (٤٤٨هـ/١٠٦٦م) الحائط الشمالي من المسجد، وكذلك الأروقة المنضدة. وقد أثبتت الدراسات المعمارية التي أجريت للمسجد الأقصى حديثاً، أن البناء الموجود حالياً، يرجع في جزئه القديم إلى عهد الخليفة العباسي المهدي، وأن ما تم التجديد به في العهد الفاطمي هو إضافة رواقين من الجانبين، فأصبح المسجد يحتوي على سبعة أورقة، هو ما استقر عليه وضعه الحالي[١٦].

ينفي بعض الباحثين سقوط القبة، ويذكرون أن الترميم المزعوم للمسجد الأقصى لا يثبت أمام البحث التاريخي، فليس في مصادرنا العربية القديمة أية إشارة إلى حدوث انهدام للمسجد الأقصى، وكل ما هناك إشارة إلى حدوث زلزال في عام (٤٢٤هـ/١٠٤٢م وفي عام ٤٢٥هـ/١٠٣٣م، وان قطعة من المسجد الأقصى سقطت، غير أن الباحث المعاصر عبدالقادر الريحاوي يذكر بشكل مغاير أن الظاهر لم يجدد بناء المسجد، إنما بنى القبة فقط وهو ما أشار إليه المؤرخ الهروي[١٧]. أما الباحث السوري محمد كرد علي فيؤكد وقوع زلزال عام ٤٠٧هـ حيث تهدمت قبة الصخرة وبعض الجدران، فجددها الخليفة الفاطمي

(16) السيوطي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ١٨٢–ر١٨٣

(17) العاقل، المصدر السابق، ص ر٣٣٠

الظاهر في ٤١٣هـ كما زيد في المسجد الأقصى في زمن الفاطميين البناء المسمى بجامع النساء، حيث كان في مسجد بيت المقدس ثلاث مقاصير للنساء، طول كل منها سبعون ذراعاً[١٨]. ونستنتج من ذلك أن أغلب الباحثين يؤكدون وقوع الزلزال عام ٤٢٥ هـ/١٠٣٣م، وقيام الفاطميين بإصلاحات قبة المسجد الأقصى، وعلى الحوائط المساندة للحرم، التي كانت في حاجة إلى إصلاح. كما أمر الظاهر أيضاً ببناء سور جديد للمدينة. واستمر العمل في هذا المشروع الأخير لمدة تربو على جيل. وقد غدا عرض المسجد الجديد أقل من سابقه، وتم إنشاء صحنٍ مكان الممرات بعلو سبعة أقواس، وفُرش سجادٍ جميل، وصفها الرحالة مع المائتين وعشرين عموداً من الرخام، وزخارف القبة الرائعة المطلية بالميناء[١٩].

لقد ميز الباحثون بين آثار زلزالين، ففي عام ٤٠٧هـ سقطت القبة المبنية على صخرة بيت المقدس، ثم أعيد بناؤها في عهد الظاهر في ١٠٢٢م، وفي عام ٤٦٠هـ كانت الزلزلة المدمرة التي أدت إلى انشقاق صخرة بيت المقدس. وفي سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٢م تخرب المسجد الأقصى خراباً كبيراً بسبب زلزال، فعمره الخليفة الفاطمي الظاهر، وضيَّقه من الغرب والشرق بحذف أربعة أروقة

(18) كرد علي، المصدر السابق، ج٥، ص ,٢٥١

(19) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ,٤٣٧

من كل جانب. من هنا يمكن القول إن الأبواب السبعة التي في شمال المسجد اليوم هي من صنع الظاهر، كما أن جزءاً كبيراً من بناء المسجد الأقصى الحالي يرجع إلى الظاهر. وقد زيد في المسجد في زمن الفاطميين البناء المسمى بجامع النساء. وبكلام آخر إن القسم الأعظم من المسجد الأقصى الحالي هو من إنجازات الخليفة الفاطمي الظاهر[٢٠].

لم يكتفِ الفاطميون بالاهتمام بالأبنية المقدسة كالمسجد الأقصى والقبة والحرم في القدس، بل بنوا الكثير من العمائر والمباني الأخرى مثل البيمارستان والفرع المقدسي لدار الحكمة القاهرية[٢١].

٣- وصف ناصر خسرو للقدس الفاطمية :

ما يهمنا من وصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو للقدس هو ما يتعلق من هذا الوصف بالجغرافية المقدسية الإسلامية، وبالمعاني التي تظهر الطريقة التي نظر فيها المسلمون إلى القدس، والوظائف الروحية لبعض الأبنية. وقد زار خسرو القدس في عام

(20)شراب، المصدر السابق، ص ٣٩٢,

(21)السيوطي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ١٩٦-١٩٧,

٤٣٨هـ/١٠٤٧م، أي بعد سنوات من إجراء الإصلاحات على المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ويشير إلى أنه يقع بعد المسجد الأقصى سهل كبير مستو يسمى" الساهرة" يقال أنه سيكون ساحة القيامة والحشر، ومن هنا يحضر إليه خلق كثيرون من أطراف العالم، ويقيمون به حتى يموتوا، فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد(٢٢). يصف خسرو بإسهاب مدينة القدس، أسواقها وشوارعها وبساتينها، ثم ينكب على وصف مساجدها بدءاً من المسجد الأقصى والصخرة والدكة وقبة السلسلة، وقبة جبريل وقبة الرسول، راصداً جمال المباني المقدسة، والأضرحة والمصليات، متأملاً ومسترجعاً ذكر الأنبياء والصالحين. وتخيل النبي وهو يصلي جوار الصخرة قبل معراجه، واضعاً يده عليها حتى تحركت للقائه، وبذلك تكوَّن الكهف الذي يقع أسفلها، كما تذكر داوود عند باب التوبة، وسجد عند مهد المسيح، وتأمل الأثر الذي تركته مريم عندما لامست الأعمدة الرخامية عند المخاض، ولم ينسَ أن يجوب في أبنية العبادة المسيحية التي رمِّمت للتو بعد أن قوضها الحاكم بأمر الله. إن استذكار ناصر خسرو لقدسية الأمكنة المقدسية يقدم مثلاً على كيفية توسط قدسية القدس لأية رؤية إسلامية لها، ويعود ذلك ببساطة إلى أن القدس قد غدت جزءاً لا يتجزأ من اللاشعور الرمزي الإسلامي الجماعي. ومن هنا لا يصف

(22) ناصر خسرو، سفرنامة، القاهرة ١٩٤٥، ص ر٢٠

خسرو مسجد قبة الصخرة بوصفه مكاناً فيزيقياً بل بوصفه مكاناً شعرياً، ويقول " وقد بني المسجد في هذا المكان لوجود الصخرة به، وهي الصخرة التي أمر الله عز وجل موسى (ع) أن يتخذها قبلة، فلما قضي هذا الأمر، واتخذها موسى قبلة له، لم يعمر كثيراً، وظلت الصخرة قبلة حتى عهد نبينا المصطفى(ع)، فكان المصلون يولون وجوههم شطر الكعبة" وبهذه الطريقة يصف خسرو عمارة المسجد الأقصى، وأبوابه التي تحمل أسماء قدسية، والمعنى الرمزي الروحي لأبهة تزييناته. فيشير إلى أمكنة المتصوفة المسلمين بأنه " في عرض المسجد(مسجد الصخرة) رواق في حائطه باب، خارجه صومعتان للصوفية. وهناك مصليان ومحاريب جميلة يقيم بها جماعة منهم. ويصلون ولا يذهبون للجامع إلا يوم الجمعة، لأنهم لا يسمعون التكبير حيث يقيمون"، كما يشير إلى أنه "عند الركن الشمالي للمسجد رواق جميل، وقبة جميلة لطيفة مكتوب عليها: هذا محراب زكريا النبي(ع) ويقال إنه كان يصلي هناك دائماً ..."، كما يحدثنا عن مسجد عيسى، وهو مسجد بهيئة السرداب، فيه مهد عيسى، وفي هذا المهد أمضى عيسى طفولته، وتكلم منه. وفي الجانب الشرقي منه يوجد محراب مريم، وفيه محراب آخر لزكريا. وعلى هذين المحرابين آيات قرآنية نزلت في حق زكريا ومريم. ويستعيد

خسرو في وصفة شعرية الصخرة العليا، ويصفها" والصخرة حجر أزرق لونه، لم يطأه أحد برجله أبداً، وفي ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض، كأن إنساناً سار عليها، فبدت آثار اصابع قدميه فيها، كما تبدو على الطين الطري. وقد بقيت عليها آثار سبعة أقدام. وسمعت أن إبراهيم عليه السلام كان هناك، وكان إسماعيل طفلاً، فمشى عليها وهذه هي آثار أقدامه. ويقيم في بيت الصخرة جماعة من المجاورين والعابدين، وقد زينت أرضه بالسجاد الجميل من الحرير وغيره. وفي وسطه قنديل من الفضة معلق بسلسلة فضية فوق الصخرة. وهناك قناديل كثيرة من فضة، أمر بصنعها سلطان مصر (الفاطمي). ورأيت هنا أيضاً شمعة كبيرة جداً طولها سبع أذرع وقطرها ثلاثة أشبار، ولونها كالكافور الزباجي وشمعها مخلوط بالعنبر، يقال أن سلطان مصر (الفاطمي) يرسل إلى هناك كل سنة كثيراً من الشمع، منه هذه الشمعة الكبيرة، ويكتب عليها اسمه بالذهب"[٢٣]. ولعل هذا ما يفسر أنه يصف لنا بإعجاب مبهر المسجد الأقصى، والمائتين وعشرين عموداً من الرخام، والزخارف الرائعة المطلية بالمينا. فكل ما هو جميل في عمارة المسجد يشكل تعبيراً بشرياً دنيوياً عن الجمال الأعلى السماوي المطلق.

---

(23) المصدر نفسه، ص ٦٣-٧٥,

٤- رد فعل المذهبية السنية على المذهبية الفاطمية : استحداث طقوس تبرك جديدة

كان رد الفعل السني موارباً على التهديدات الخارجية للمدينة المقدسة وعلى السيطرة الفاطمية عليها التي أثرت على نشاط المراكز الثقافية السنية في المدينة، وقد بقي المتصوفة محافظين على صوامعهم ومصلياتهم ومحاريبهم حول قبة الصخرة، غير أن ما حدث على المستوى السني، هو الميل لتحصين المذهبية السنية في مواجهة المذهبية الفاطمية بمفاهيم شعرية عليا جديدة لقداسة المدينة، تعتبر في منظور الفقه السني المتشدد من باب " البدع" و " المحدثات" . غير أن علينا ألا ننظر إلى هذه المفاهيم الطقسية المضافة فقهياً بل رمزياً أو سيميولوجياً بوصفها منظومة إشارية (علامية) دلالية، تقوم بالضرورة على بنية بلاغية خاصة بها. ومن هذا القبيل ما يذكره أبوبكر الطرطوشي عن " صلاة الرغائب" والتي لم تكن معروفة قبل سنة ١٠٥٦م، وقد أوجدها في القدس رجل تقي يدعى أبو الحمراء، كما استحدثت بعد سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م "صلاة رجب" . لقد برزت بين هذين الاستحداثين، اللذين يعكسان القيم الطقسية المضافة إلى جلال

المكان وقدسيته، عملية تقديس جماعي إسلامي للقدس على أساسها. حيث صار أهل القدس وقراها يجتمعون يوم عرفة، فيستقبلون القبلة ويجهرون بالدعاء. وسرى الاعتقاد: بأن أربع وقفات من مثل تلك الوقفات، تعدل حجة إلى البيت الحرام[٢٤].

ولقد تم في إطار القيم الطقسية القدسية المضافة، الربط ما بين الحج إلى مكة وشد الرحال إلى بيت المقدس، فكان من عادة أهل القدس ومحيطها، أن احدهم إذا حج إلى بيت الله الحرام، وعاد يشد الرحال إلى بيت المقدس ليصلي فيه، يقال: قدس فلان حجته. وهو تعبير رمزي كثيف الدلالة. كما كان من عادات الحجاج المغاربة أن يمروا على المسجد الأقصى في عودتهم من الحج إلى البيت الحرام[٢٥]. من هنا يشير البعض إلى أن المسلمين الفلسطينيين الذين لم تتح لهم إمكانية الحج إلى مكة، كانوا يتجمعون خلال أيام الحج في القدس، لما ترسخ في لاوعيهم من تقاسم مكة والقدس نفس القدسية. وكان أهل القدس وحشود من أريافها يتجمعون على رصيف الحرم، وفي المسجد الأقصى ليلة وقوف الحجيج بعرفة. وتستمر الحشود واقفة طوال الليل، تدعو بأصوات مرتفعة كما لو كانت في عرفات.

(24) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ٤٨٩.

(25) شراب، المصدر السابق، ص ٣٦٥.

وفي يوم عيد الأضحى آخر أيام الحج، كان الأفراد يقومون بذبح الأضاحي في الحرم، كما لو كانوا في مكة. وكان بعض الحجاج يجمعون بين الحج إلى مكة، وبين زيارة القدس وهم يرتدون ملابس الإحرام التقليدية، ويؤدون في حالة من الصفاء والنشوة الروحية الشعائر المتطلبة[٢٦]. وما زال اللاوعي الإسلامي الجماعي حتى اليوم يعتبر أن المرور بـ" المسجد الأقصى" فضيلة كبرى بعد الحج إلى مكة، وحتى فترة قريبة كان الحاج الذي يزور القدس بعد الحج يوصف بأنه " قدَّس".

ظهور " أدب الفضائل" ووظيفته :

يرتبط ظهور أول مجموعة مدونة عن " فضائل القدس" باسم الواسطي في الفترة الفاطمية. وقد وضعت هذه المدونة بعد سقوط قبة الصخرة والمباشرة في عملية تجديد بنائها. وقد قرأ الواسطي كتابه على الناس في منزله في القدس في سنة ٤١٠هـ، أي بعد ثلاث سنوات من سقوط قبة الصخرة. وقد حدد البعض وظيفة هذه المدونة بحض المسلمين على المساهمة في إعادة بناء القبة، والتبرك بذلك، عبر تأكيد فضائلها. إلا أن بعض الباحثين العرب- المسلمين يعيدون تأخر صدور أول مدونة عن "فضائل القدس" إلى

(26) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٣٦.

القرن الحادي عشر، إلى ما تفردت به القدس من خصائص وأوضاع لم تكن قائمة في مدن إسلامية أخرى. وإذا كانت قداسة مكة قد اقترنت بالكعبة، والمدينة بالرسول ومسجده والحياة الإسلامية الدعوية الأولى، فإن مدينة القدس التي اقترنت بالإسراء والمعراج، وبقداسة المسجد الأقصى، وبالمعاني الشعرية القدسية المحيطة بالصخرة، واعتبار المسجد الأقصى أحد المساجد الثلاثة التي تشد الرحال إليها. وقد تمثلت خصوصية القدس في أنها كانت مقصداً للأديان الثلاثة التوحيدية، التي اضطلع فيها الإسلام بوظيفة الدين الجامع لا الدين المانع.

من هنا لم يحظر المسلمون على النصارى واليهود العيش في المدينة وممارسة طقوسهم وشعائرهم الخاصة. ويعني ذلك أنه قد اجتمع للقدس من الأوضاع المتشابكة ما لم يجتمع لأي مدينة من المدن الإسلامية. فهي مقدسات للديانات الثلاث وخاتمتها حسب الفهم الإسلامي هو الإسلام، الذي اعتبر نفسه وريثاً للديانتين اليهودية والمسيحية، وإجلال أنبيائهما، وجعلهم في موضع الحرمة والقداسة. وبدءاً من القرن الحادي عشر الميلادي أخذ أدب الفضائل ومدوناته بالانتشار، وقد شمل مادة غزيرة تضمنتها أنواع مختلفة من المؤلفات التاريخية والجغرافية والأدبية وفي كتب

الحديث والتفسير[٢٧]. وبصرف النظر عن الدوافع التي وقفت وراء تاليف الواسطي لكتابه " فضائل بيت المقدس "، فإنه قدم لنا لأول مرة بين دفتي كتاب واحد، كل ما ذكر عن القدس في الأحاديث المنسوبة إلى النبي، وأقوال الخلفاء والصحابة. وأصبحت هذه المجموعة في متناول عدد كبير من الناس. ولقد تم في أدب الفضائل هذا تكريس موقع القدس في المنظومة الجغرافية الإسلامية الثلاثية المقدسة، وهو ما يدل عليه حديث نبوي يورده الواسطي، ويقول مضمونه إن الملائكة أحاطوا بمكة قبل ألف عام من خلق كل شيء على الأرض، ثم ألحق الله بها المدينة، ووحد المدينة بالقدس، ثم خلق بقية العالم بعد ألف عام، وأن الجنة ستنزل إلى القدس كعروس يوم القيامة، وستأتي الكعبة والحجر الأسود من مكة والمدينة إلى القدس لتلتقي المدن الثلاثة على صعيد واحد[٢٨]. لقد غدت القدس هنا بالتالي محور تركز كل أطراف المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة وعقدة ترابطها النهائي الوعي الإسلامي.

(27) محمود إبراهيم، المصدر السابق، ص ٧٦-٧٧.

(28) المصدر نفسه، ص ٨٥.

عودة المركزية السنية :
القدس بين الرؤية الفقهية
والرؤيا الشعرية العليا

ارتبطت عودة المركزية السنية إلى القدس بانتصار السلاجقة السنة الذين عملوا بإسم الخلافة العباسية السنية على الفاطميين. حيث استولى أتسز الخوارزمي السلجوقي على القدس في عام ٤٦٥هـ/١٠٧٣م. وقد استمرت السيادة السلجوقية على القدس إلى أن عاد الفاطميون إليها قبل ثلاث سنوات من استيلاء الصليبيين عليها. ومنذ خضوع القدس للسيادة السلجوقية أقيمت الدعوة للخلافة العباسية مكان الدعوة للخلافة الفاطمية[٢٩]. وهو ما أحدث انقلاباً في الوضع الديني للقدس، إذ تزايدت أعداد العلماء السنة الذي تقاطروا لإزالة آثار ما اعتبروه " هرطقة " فاطمية. وقد قدم هؤلاء من شتى بقاع العالم الإسلامي. فتغيرت بسرعة الصورة المذهبية الإسلامية للقدس، حيث كثر فيها العلماء واتسعت حلقات الجدل والمناظرة، أما مراكز الحديث النبوي وطلابه فعادت وانتعشت من جديد[٣٠]. في حين كان العلماء السنة قبل ذلك مضطرين لترك القدس إلى مناطق السيطرة

---

(29) عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص ١٧٢.

(30) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ٢٩١.

العباسية تجنباً للمضايقات المذهبية الفاطمية. لقد شهدت القدس في ظل السلاجقة فورة حيوية سنية، ارتبطت برعاية السلاجقة لما يمكن تسميته بمعاهد السنة على مختلف مذاهبهم الفقهية، فوصل عدد حلقات الدرس في القدس إلى ثماني وعشرين حلقة درسية فضلاً عن حلقات الذكر، والمعتزلة. وكانت هذه الحلقات مفتوحة أمام النصارى واليهود والسامرة. كما كثر عدد الزهاد والمتصوفة والمجاورون المعتكفون جوار المسجد الأقصى طلباً للبركة، وتقرباً للسماء من بابها القدسي، واشتركت النساء المسلمات في هذه الحركة الموارة. وقد أعطانا ابن عربي في كتابه " العواصم والقواصم" صورة عن هذه الحركة الناشطة[٣١]. وإذا كان المقدسي قد أشار إلى انحسار الحيوية الثقافية السنية عن المدينة وخلو المسجد الأقصى من " الجماعات والمجالس" فإن ابن عربي الذي أتت رحلته إلى القدس في أواخر الفترة السلجوقية يشعرنا بتبدل الجو الديني المقدسي، ويقدم لنا صوراً حية عن الحيوية الثقافية، وسعة مجالسها وآفاقها، وتنوع اختصاصاتها الكلامية والأصولية والبحث في مسائل الخلاف، ونشاط الفقهاء الشافعيين والحنبليين، والجدال بين الكرامية والمعتزلة، وبين المسلمين وأهل الديانات الأخرى[٣٢].

---

(31) المصدر نفسه، ص ٤٩٢

(32) الدوري، المصدر السابق، ص ١٥٣

إن بناء السلاجقة للمدارس وتوسعهم فيها كان مظهراً مؤسسياً من مظاهر تلك الحيوية، فقد تم بناء مسجد جديد، وبناء مدرستين للشافعية والحنفية، وإعادة بناء الكنيسة التي تخلد مكان ميلاد مريم إلى جوار بركة بيت ميسدا، وتحويلها إلى مدرسة شافعية تحت إشراف الشيخ نصر الطوسي أحد ألمع أسماء العلماء السنة، وهو ما أدى إلى ازدهار دراسات الحديث والفقه في بيت المقدس مرة أخرى[٣٣] كما كثر عدد المتصوفة الذين لهم منهج حدسي داخلي في التعامل مع قداسة المدينة تختلف عن منهج السنة، وبسبب كثرة إقامة المسلمين المغاربة فيها والذين كانوا مالكيين في المذهب الفقهي، أي من أتباع مذهب الإمام مالك بن أنس، فإن المذهب المالكي قد غدا في عداد الهيكل المذهبي المقدسي[٣٤]. وقد حمل المذهب الحنبلي إلى القدس أبو الفرج عبدالواحد بن محمد الشيرازي الفقيه (ت٤٨٦هـ/١٠٩٣م) الذي سكن بيت المقدس، وتقاطر إليه المستمعون للاستفادة من دروسه[٣٥] كما حمل عبء المدرسة الشافعية كثير من العلماء المقيمين والزوار، وفي مقدمتهم أبو الفتح نصر إبراهيم المقدسي المشار إليه بالعالم الزاهد

---

(33) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ر٤٤٦

(34) مصطفى، المصدر السابق، ص ر٤٩١

(35) المصدر نفسه، ص ٤٩١–ر٤٩٢

(ت٤٩٠هـ/١٠٩٧م)، وصاحب تصانيف في علم الحديث. وقد أقام المقدسي في القدس مدة طويلة، في الزاوية التي تقع على باب الرحمة والمعروفة بالناصرية نسبة إلى الشيخ نصر الطوسي، ثم عرفت فيما بعد بالغزالية لإقامة أبي حامد الغزالي فيها[٣٦]. ولعل إقامة الغزالي فيها تستوجب وقفة قصيرة، لما لعبه هذا الإمام من دور مركزي في ترسيخ المذهبية السنية الأشعرية التي ما زالت تميز الوعي الإسلامي السني حتى اليوم. ويذكر المؤرخ ابن الأثير حادثة ذهاب الغزالي من بغداد إلى القدس في سياق حوادث سنة ٤٨٨هـ في إطار المنهج الحولي للمؤرخين المسلمين، فيقول " وفيه توجه الإمام أبو حامد الغزالي إلى الشام، وزار القدس، وترك التدريس في النظامية(أي المدرسة التي أسسها نظام الملك السلجوقي في بغداد كمعهد لتخريج الفقهاء السنة)، واستناب أخيه، وتزهد، ولبس الخشن، وأكل الدون، وفي هذه السفرة صنف " إحياء علوم الدين" وسمعه منه الخلق الكثير، وعاد إلى بغداد بعد ما حج في السنة التالية، وسار إلى خراسان"[٣٧]. ولا ريب أن " إحياء علوم

---

(36) عبدالجبير الحنبلي، ج١، المصدر السابق، ص ٢٦٤

(37) أبو الحسن على بن أبي الكرم بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشيباني ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ط٢، بيروت ١٩٦٧، ص ١٧٨

الدين" الذي صنفه الغزالي في القدس[٣٨] يحتل إلى اليوم موقعا مرجعيا أساسيا في المصادر السنية، لما شكله من برنامج مرجعي للمذهبية السنية الأشعرية تاريخياً. غير أن الغزالي سيصنف أيضا في القدس كتبا أخرى مثل " القسطاس" و"محك النظر" وغيرها[٣٩]. ولعل الحيوية الثقافية للمدينة تظهر أيضا من خلال إقامة الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي (ت٥٠٧هـ/١١١٣م) صاحب " معجم البلدان"، والذي كان جوالا في الآفاق، ويجمع بين الذكاء والحفظ وحسن التصنيف. وقد أتى بيت المقدس من بغداد، وكان أول من سمعه الفقيه نصر المقدسي، ثم اجتمع بالشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وحرص على أن يعود إلى القدس ليحرم منها إلى مكة. كما قدم القدس من الأندلس في ظل هذه الحيوية الجاذبة الطرطوشي وهو الإمام محمد بن الوليد الأندلسي (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م)، وهو مالكي، قرأ الأدب على ابي محمد بن حزم، ثم حج إلى البيت المقدس، ثم قدم القدس وتفقه على الإمام ابي علي الشاشي المستظهري[٤٠].

---

(38) المصدر نفسه، ص ٢٦٤-٢٦٥، قارن مع شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٦٣ .

(39) محمود إبراهيم، المصدر السابق، ص ٤٠٣ .

(40) المصدر نفسه، ص ٤٠٢-٤٠٣، قارن مع شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٦٥ .

وقد أثارت كثافة تقديس المسلمين للمسجد الأقصى، وإسقاطهم لكثير من القيم المضافة عليه ، ريبة الفقهاء السنة الذين يبجلون القدس ويعرفون فضائلها، إلا أن منهجهم لا يذهب إلى إقرار طقسيات تبرك تدخل لديهم في باب "البدعة" ، وينوه الطرطوشي إلى مظهر من مظاهر تلك القيم الطقسية المضافة، حيث يقول" وقد كنت ببيت المقدس، فإذا كان يوم عرفة حشر أهل السواد، وكثير من أهل البلد ، فيقفون في المسجد مستقبلين القبلة، مرتفعة أصواتهم بالدعاء كأنه موطن عرفة . كنت أسمع هناك سماعاً غاشياً منهم أن من وقف ببيت المقدس اربع وقفات فإنها تعدل حجة " كما يشير الطرطوشي إلى "بدع" أخرى، كانت تعكس كثافة حرمة القدس لدى عموم المسلمين غير الفقهاء، فيذكر أن " صلاة الرغائب" صارت تقام في الأقصى ليلة النصف من شعبان ابتداء من سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦م، واستمرت كأنها "سنَّة" أي جزءاً من الأصول الإسلامية، التي تقرن السنة مع القرآن . كما تشير إلى أن صلاة رجب قد صارت تقام في المسجد الأقصى منذ سنة (٤٨٠هـ/١٠٨٧)[٤١]. وقصد الديباجي أبو عبدالله المقدسي (ت٥٢٧هـ) القدس، وأصله من مكة . وقد أقام في القدس، ودون طائفة من الأحاديث، وسكن درب السلسلة في

---

(41) الدوري، المصدر السابق، ص ,٢٥٣

القـدس، وصـادف نصـر بـن إبراهيم المقـدسي في بيت المقـدس، وسـمع منه الحـديث. وأمـه فـاطمـة بنت الحـسن بن علي بن أبي طالـب، وهو نسـب جليـل في المنظومـة الإسلامـيـة للأنسـاب المشرفة التي تضـم مـا يعرف بـ"الأشراف"، وقصد القـدس أيضـا وأقام فيهـا الفـقـيـه مـحـمـد بن حـاتم الطوسي الذي تفـقـه على إمـام الحـرمين الجويني الـذي يعتبر حتى اليوم واحدا من أعظم مؤسسي المذهبية الأشعـرية، ومن المبكـرين بصيـاغـة علم المقـاصـد في نموذج أصـول الفقه الإسلامي. وزار القـدس أيضا ابو بكر الخوجاني (ت٥٤٤هـ) ووصفه السمعاني الذي رافقه إلى بيت المقدس في صورة حية تعبر عن موقع الخشوع والجلال الكبيرين في شعـور المسلمين المقيـمين في القدس بوصـفهـا باب السماء، حيث وصفه بـ" شيخ صـالح قيم بكتـاب الله، دائم البكـاء، كـثيـر الحـزن له أوقـات حـسنة، وخـدم المشايخ الكبار"[٤٢]. لقـد غدت زيارة القـدس تقليدا راسخـا لدى عـمـوم الـفـقـهـاء والمفكريـن المسلمين، مثـل أبـو مـسـعـد الـسـمـعـاني (ت٥٦١ هـ) صاحـب كتاب " الذيل لتاريخ مدينة السلام" الذي قدم بيت المقدس زائرا، وأقام فيه فترة. ومن أقاصي المغرب العربي قـدم بيت المقـدس أبو مـحـمـد عـبـد بن الوليـد الأنـصـاري (ت

(42) محمود إبراهيم، المصدر السابق، ص ٤٠٧,

٣٨٦هـ) الذي كان إمام المالكية في عصره، وحرص هذا الإمام الكبير على أن يمضي بقية حياته في القدس فدفن فيها(٤٣). وزار بيت المقدس في هذا السياق أبو الغنائم محمد بن علي بن ميمون الكوفي (ت٥١٠هـ)، حيث سمع فيها الحديث، كما زارها ابن سهل محمد القابسي الخشاب(ت ٥١٢هـ). وأما الشيخ الزاهد أبو عبدالله القرشي(ت(٥٩٩هـ)، فأمضى بقية عمره في القدس ودفن فيها(٤٤).

إن القدس تحولت في إطار ذلك كله إلى مركز ثقافي حيوي إسلامي يجذب كبار العلماء المسلمين إليها من مختلف أصقاع العالم الإسلامي، وحين قدم الإمام أبو بكر بن العربي الأندلسي(ت ٥٤٣هـ) إلى القدس " رأى فيها خلقا كثيرا من أرباب العلوم"(٤٥) . وقد تدخلت قدسية المدينة في تفسير بن عربي للآيات القرآنية، فاشتهر في أنه قال في تفسير الآية ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر ﴾ (المؤمنون، ١٨) أنَّ هناك أقوالاً أربعة، الرابع منها قال فيه: إن مياه الأرض كلها تخرج من تحت صخرة بيت المقدس،

---

(43) المصدر نفسه، ص ٤٠٦, قارن مع شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٦٤-,٣٦٥

(44)شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ,٣٦٦

(45)محمود إبراهيم، المصدر السابق، ص ,٤٠٤

وهي من عجائب الله في أرضه، فإنها صخرة شعثاء في وسط المسجد الأقصى، قد انقطعت من كل جهة، لا يمسكها إلا الذي يمسك السماء، لن تقع على الأرض إلا بإذنه، في أعلاها من جهة الجنوب (لعله الغرب) قدم النبي(ﷺ) حين ركب البراق، وقد مالت من تلك الجهة لهيبته. وفي الجهة الأخرى، أثر أصابع الملائكة التي أمسكتها إذ مالت، ومن تحتها الغار الذي انفصلت عنه من كل جهة، عليه باب يفتح للناس للصلاة والاعتكاف، تهيبتها مدة أن أدخل تحتها لأني كنت أخاف أن تسقط علي بالذنوب، ثم رأيت الظلمة والمجاهرين بالمعاصي يدخلونها، ثم يخرجون عنها سالمين، فهممت أن أدخلها، ثم قلت: ولعلهم أمهلوا، وأعاجل فتوقفت مدة، ثم عزم علي فدخلتها فرأيت العجب العجاب، تمشي في جوانبها من كل جهة، فتراها منفصلة عن الأرض، لا يتصل بها من الأرض شيء، وبعض الجهات أشد انفصالا عن بعض. ويعلق شهاب الدين مقدسي على تفسير ابن عربي هذا " والمشهور عند الناس أن الصخرة معلقة بين السماء والأرض، وحكي أنها استمرت على ذلك حتى دخلت تحتها حامل، فلما توسطت تحتها خافت، فأسقطت حملها، فبنى حولها هذا البناء المستدير حتى استتر أمرها عن أعين الناس"[٤٦].

(46) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص٦٤ قارن مع شراب، المصدر السابق، ص ٣٧٥

إذا كنا نجد خلال الفترة السلجوقية في رؤية الطرطوشي الأندلسي لما اعتبره " بدعاً" تغالي في إسباغ طقوس ومفاهيم جديدة على القدس ليس لها أصل نصي نموذجاً للرؤية الفقهية النصية، التي تدرك لا ريب فضائل القدس لكنها تحصرها في نقاط محددة موثوقة نصياً، فإننا نجد في رؤية بن عربي نموذج الرؤيا الشعرية العليا التي تدخلت في تفسيره للآية القرآنية ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر﴾. فالمحور الذي يحكم هذا التفسير هو المحور الدلالي الذي يطلق سلسلة متدافعة وكثيفة من الدلالات، تمتزج فيها قداسة القدس لدى المفسِّر مع المضمون الدلالي للآية، الذي سرعان ما يقوم بن عربي بتأسيسه على شعرية الصخرة، ورؤيتها ليس في وضعها الفيزيقي بل في وضعها الشعري الرمزي أو المقدس. ولعل هذا التفسير هو هنا أقرب ما يكون إلى التأويل الذي يشكل تقليدياً أحد مناهج الرؤية لدى مختلف المذاهب والأديان في النظر إلى الأماكن المقدسة، التي تشكل الإطار الحسي الملموس لأبعادهم الروحية العليا.

الفصل السابع

الصليبيون في القدس : نفي الآخر

الانقسام الإسلامي عشية الحملة الصليبية الأولى :

شكلت بيزنطة أكبر خطر هدد العالم الإسلامي في القرن العاشر الميلادي في ظروف انقسام هذا العالم إلى خلافتين عباسية في بغداد وفاطمية في القاهرة، وتحكُّم البويهيين بالخلافة العباسية. نفسها، إلا أن هذا الخطر زال في القرن الحادي عشر الميلادي حين توغل السلاجقة الذين حلوا مكان البويهيين في بغداد في العمق البيزنطي وهزموا بقيادة السلطان ألب أرسلان في عام ١٠٧٠م البيزنطيين في معركة ملاذ كرد (مانزكرت) التي اعتبرت " أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث حاسمة" على حد تعبير رنسيمان[١]. من هنا لم تتوقف دعوات بيزنطة للغرب المسيحي كي يبادر إلى الحرب " المقدسة" . غير أن الدولة السلجوقية نفسها كانت قد انقسمت عشية الحملة الصليبية الأولى في عام ١٠٩٦م إلى خمس ممالك متنافسة، في أصفهان وبغداد (بركباروق) وخراسان وما وراء النهر (أبو الحرث سنجر) وحلب (رضوان بن

---

(1) رنسيمان، المصدر السابق، ج١، ص ١١٠.

تتش) ودمشق (دقاق بن تتش) وسلاجقة الروم (قلج أرسلان)، فضلاً عن أن دانشمند التركماني وياغي سبان في أنطاكية والأتابك كربوغا في الموصل قد حققوا استقلالاً ذاتياً لسلطناتهم، في شروط الانقسام العباسي الفاطمي[٢]. من هنا رأى المؤرخون المسلمون يومئذ مثل ابن الأثير أنه " اختلف السلاطين فتمكن الفرنج من البلاد ". ولعل هذا ما يفسر أن الخطر الإسلامي في آسيا أو في إيطاليا، وإسبانيا من قبل قد كان في طريقه إلى الزوال عشية دعوة البابا أوربان الثاني إلى الحملة الصليبية[٣]. ولقد ربط ابن الأثير بنباهة المؤرخ الحاذق بين الحملات الصليبية على المشرق والحملات الغربية على الأندلس، فلم يفصل بين سقوط طليطلة في عام ١٠٨٥م وبين إعلان البابا أوربان الثاني بدء الحملة الصليبية الأولى سوى عشر سنوات[٤]. ولعل هزيمة بيزنطة الماحقة في معركة ملاذكرد قد دفعت متنفذي الغرب وفي مقدمتهم البابا لرفع شعار نجدة بيزنطة، والاستيلاء على بيت المقدس، والسيطرة على المشرق العربي، آملين إرجاع بيزنطة وكنيستها إلى حاضرة روما، وتوحيد

(2) المصدر نفسه، ص ر ١٠٠

(3) كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، القاهرة ١٩٩٥، ص ر٨٦

(4) رنسيمان، المصدر السابق، ج٢، ص ر٦٨ قارن مع ميخائيل زباروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، موسكو ١٩٨٦، ص ر٢٦

العالم المسيحي بعد أن انفصلت ببزنطة عنها كنسياً في عام ١٠٥٤م.

تقدمت الجيوش الإقطاعية الأوروبية الضخمة على الشاكلة المعروفة باتجاه القسطنطينية في عام ١٠٩٦م في أربعة جيوش، وعبرت البوسفور، واستولت مع البيزنطيين على نيقية عاصمة السلاجقة وأعادت إلى بيزنطة شواطىء آسيا الصغرى، ثم اخترقت الطريق إلى قونية وأنطاكية التي سقطت بعد حصار مرير ومقاومة بطولية. وبعد أن ارتكبت مذبحة مروعة في أنطاكية أكملت مشوراها الدامي نفسه في الرها وختمته في القدس.

الصليبيون أمام القدس : الإدراك الرمزي المسبق للقدس ما بين موقفين

وصل الصليبيون بعد ثلاث سنوات من تقدمهم المتعثر إلى مشارف القدس، ورابطوا حول منحنى يطلون منه على مشارف المدينة المقدسة، التي لم يعرفوا عنها شيئاً إلا ما قرؤوه في الكتب. وتكشفت لهم في إطار هذا المخزون الرمزي المسبق على نحو مباغت القبب المذهبة وأجراس أسوار القدس. وعلى حد تعبير جوبيو " سقط الجيش برمته كأنه مصعوق. الفرسان ترجلوا عن

جيادهم، الجميع يضمون الصفوف، وكتب وليم الصوري " عندئذ بدؤوا في البكاء، وركعوا على ركبهم، وصلّوا شاكرين لربنا " ويضيف " عندئذ رفعوا أيديهم نحو السماء، ثم نزعوا أحذيتهم من أرجلهم وقبلوا الأرض"(٥). يجب تخيل هؤلاء الرجال والنساء المطروحين على الأرض بانفعال أخاذ، وتلك الخيول وأعنتها مرخية مهتزة، والعربات المغبرة المتناثرة على المنعطفات أمام الحقيقة الجليلة مجسدة على الأرض: القدس. ولا ريب أن الصليبيين عبروا عن تعلق مطلق بجغرافيتهم المقدسة في القدس، لكن الشيء المميز لديهم هو اندماج تعلقهم بجلال القدس بمشاعر بغض الآخر، ونفي حقه بممارسة طقوسه في بيت المقدس بحرية. إذ بدؤوا زحفهم في الغرب بمذابح مروعة لليهود في كل مكان مروا به، فكيف بالأحرى سيكون الأمر في القدس؟

يذكّر موقف الفرنجة على أسوار القدس من ناحية اللحظة الشعرية العليا بموقف المسلمين عشية الإسلامي (العمري)، فقد واجه المسلمون المدينة المقدسة عشية حصارهم لها بنفس الدرجة من الإدراك الرمزي الروحي الملتهب للقدس التي لم يعرف عنها المسلمون إلا ما قرؤوه أو سمعوه من آيات قرآنية ومن أحاديث

---

(5) جان كلود جوبيو، على خُطى الصليبيين، ترجمة عبدالهادي عباس، دمشق ١٩٩٥، ص٢٠٩

النبي التي أدخلتها في منظومتهم الجغرافية المقدسة. غير أنهم على عكس الصليبيين اللاحقين، سترافقهم " عهودهم" الموثقة للآخرين بحقهم التام في عباداتهم والاعتراف بمقدساتهم. وها هو المؤرخ المسلم الواقدي (ت٢٠٧هـ) يقول لنا في حديثه عن القدس عشية الحصار الإسلامي لها " ولقد بلغني أن المسلمين باتوا تلك الليلة (السابقة للاشتباك مع جيش الروم الموجود في القدس)، وكانوا ينتظرون قادماً يقدم عليهم من شدة فرحهم بقتال أهل بيت المقدس، وكل أمير يريد أن يفتح على يديه، فيتمتع بالصلاة فيه والنظر إلى آثار الأنبياء (التي تضم أنبياء اليهود والمقدسات المسيحية وكل ما يذكر بالمسيح)، فلما أضاء الفجر، أذن، وصلّت الناس صلاة الفجر، فقرأ يزيد بن أبي سفيان لأصحابه: ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا ﴾ (المائدة: ٢١) فيقال إن الأمراء أجري على ألسنتهم في تلك الصلاة أن قرؤوا هذه الآية، كأنهم على ميعاد واحد"[٦]. وفي موقف المسلمين نحو أمام إدراك رمزي متوهج يحرك إرادتهم نحو الفتح، إلا أنه يقوم على اعتراف مسبق بمقدسات الديانتين المسيحية واليهودية وإجلال مقدساتهما وأنبيائهما، بينما أنكر أولئك الفرنجة مسبقاً الآخر الإسلامي واليهودي ولم يعترفوا قط

---

(6) الواقدي، المصدر السابق، ج١، ص ٢٣١

بمقدساته أو رموزه. وسينعكس التناقض ما بين الموقفين في طريقة كل منهما في إدارة المدينة المقدسة، ففي الموقف الإسلامي سيسيطر مبدأ التعايش السلمي والاعتراف الموثق مع الآخر في حين نجد في الموقف الثاني مبدأ استبعادياً إنكارياً يحرم الآخر المسلم واليهودي من أي حق، حتى من حق الحياة في القدس. بل إن ما سيفعله الصليبيون هو استعادة المبدأ البيزنطي المانع ما بين أعوام ٧٠م وحتى الفتح الإسلامي للقدس في الإنكار على أصحاب الديانات الأخرى أي المسلمون واليهود حق العيش في القدس.

المذبحة الصليبية في القدس ما بين سرديتين :

حاصر الصليبيون جميعاً في ٧ يونيو /حزيران ١٠٩٩م القدس كأنهم رجل واحد. كان افتخار الدولة - وهو الحاكم الفاطمي للمدينة التي استعاد الفاطميون قبل ثلاثة أعوام من ذلك سيطرتهم عليها مستغلين تفكك الدولة السلجوقية، وانشغال ممالكها بمواجهة طليعة الصليبين - قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الغزاة، فسمم الآبار، وقطع موارد الماء، وأخفى المواشي، وأخرج جميع المسيحيين من القدس، وأبقى على اليهود، فضلاً

عن إعادة تعزيز تحصينات المدينة وأسوارها، والاعتماد على حامية كبيرة من المصريين والسودان. في حين اعتمد الصليبيون في المقابل على عدد كبير من آلات الحصار والهدم، فلم يكونوا قد تعودوا على حصار مدن الشرق الصخرية، التي كانت أكبر وأكثر عظمة من معظم المدن في أوروبا، كما كانت تنقصهم المواد اللازمة والمهارة التقنية في بناء أدوات الحصار. إلا أن سفناً جنوية وصلت إلى مرفأ يافا أمدتهم بما يحتاجون إليه من تلك الوسائل ومواد التموين اللازمة[٧]، فتم استخدام صواري وخطاطيف السفن ببناء برجين يمكن نقلهما على الأسوار. ووضعوا الأول بباب صهيون والثاني بباب العمود. وقد أحرق المسلمون البرج الأول وقتلوا من فيه، أما البرج الثاني فقد زحف به الصليبيون حتى ألصقوه بالسور، وحكموا به البلد، وكشفوا من كان عليه من المسلمين، ثم رموا بالمنجانيق والسهام رمية رجل واحد فتراجع المسلمون. وأخيراً تمكن جندي من اختراق المدينة من أعلى البرج وتبعه الصليبيون. وانطلق الهجوم العام في ١٤ يوليو/تموز. وانقض الصليبيون على المدافعين عن المدينة من المسلمين واليهود مثل ملائكة الانتقام.

---

(7) سعيد عبدالفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج١، القاهرة ١٩٦٣، ص ٢٤١-٢٤٢.

إن قصة هذه الليلة سيعاد سردها وكتابتها مئات المرات على امتداد تسعة قرون، وسيتم فيها تخليد الفارس الغامض المدعو ليتود الذي كان أول من تسلق السور الشمالي للمدينة، ووضع رجله على الأسوار، وتبعه الآخرون، فابتدأ حمام الدم " وانفلت الرعب" الذي يسميه رينيه غروسيه: الخطيئة، التي حطت من شرف الصليبية. إنه الرعب الذي انطبع في الذاكرة الإسلامية إلى الأبد، والذي ما يزال حاضراً حتى اليوم. ولقد انتشروا في المدينة سكارى من الهلع والانتظار جميعاً، وأخذ الصليبيون يلاحقون ويذبحون المسلمين واليهود الذين كانوا عندئذ حلفاء للمسلمين[٨]. ويكتب وليم الصوري واصفاً الحالة المروعة " كانت المدينة تمثل بمذبحة الأعداد هذه مشهداً ما كان حتى للمنتصرين أنفسهم إلا أن يتأثروا فيه بالرعب والتقزز"[٩]، إذ يذكر شاهد صليبي أنه " لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة. وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه" . أما اليهود فلم يكونوا أحسن حالاً من المسلمين، إذ " جمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها بمن فيها"[١٠]، وطبقاً لما رواه مؤلف أعمال الفرنجة غست فرانكورم

(8) جوبيو، المصدر السابق، ص ٢١٥,

(9) المصدر نفسه، ص ١٨,

(10) عاشور، المصدر السابق، ص ٢٤١-٢٤٢,

Gesta Francorum ، فقد قتل الصليبيون" كل المسلمين والأتراك، لقد قتلوا كل شخص ذكراً وأنثى" وتم بعد ذلك ذبح المسلمين الذين التجؤوا إلى سطح الأقصى. وحُوصر اليهود في معبدهم وقتلوا بالسيف حتى لم يتبق منهم أي أحياء تقريباً، ثم عمدوا في الوقت نفسه، وطبقاً لما يقوله قسيس الجيش فوشيه الشارتري، إلى الاستيلاء على الممتلكات. ومن دخل من الفرنجه منزلاً لم ينازعه في حقه إفرنجي. وتدفقت الدماء في الشوارع حقيقة لا مجازاً، كما يقول الشاهد العيان ريمون الأجويلي " كان بالإمكان رؤية أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل، فقد ركب الرجال في المعبد رواق سليمان، والدماء تصل إلى ركبهم وألجمة خيولهم"(١١).

سنقدم هنا صورة ليوم دخول الفرنجة القدس في منظور صليبي أولاً وفي منظور عربي إسلامي ثانياً، يمثل كل منهما سردية لـ الفتح /الكارثة. ونقرأ في " يومية" أحد الشهود الصليبيين" في الصباح الباكر وفي يوم الجمعة هاجمنا المدينة من كل الجهات دون أي نجاح. وكنا جميعاً في حالة ذهول وضيق نفس رهيب. ولكن مع قرب الساعة التي قبل فيها سيدنا المسيح أن يتألم من أجلنا، ويتحمل مذراة الصليب، قاتل فرسائنا بحمية في القصر الموضوع تحت قيادة الدوق غودفروا وأخيه والكونت أوستاش. وبعد ذلك

(11) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٥٥

تسلق أحد فرساننا المدعو ليتود جدار المدينة. وبعد قليل من صعوده، هرب كل المدافعين عن المدينة بواسطة أسوار المدينة، ولاحقهم جماعتنا وطاردوهم، قاتلين منهم ومجندلين بالسيوف حتى معبد سليمان. وهنالك كانت المذبحة التي غاص فيها جماعتنا في الدم حتى العرقوب. وحالما دخل حجاجنا المدينة تابعوا ذبح المسلمين حتى معبد سليمان حيث تجمعوا ودخلوا طيلة اليوم في معركة عنيفة مع جماعتنا. وكان ذلك إلى حد أن المعبد كان يرشح من دمهم، وأخيراً استسلم الوثنيون. واستولى جماعتنا في المعبد على أعداد كبيرة منهم، رجالاً ونساءً ليقتلوهم، أو يبقوا على حياتهم حسب رغبتهم الطيبة"[١٢].

أما السردية العربية الإسلامية فتتنمذج في رواية ابن الأثير" لما وصلوا إليه (بيت المقدس) حصروه نيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا عليه برجين أحدهما من ناحية صهيون وأحرقة المسلمون وقتلوا كل من به، فلما فرغوا من إحراقة أتاهم المستغيث بأن المدينة ملكت من الجانب الآخر، وملكوها من جهة الشمال ضحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان. وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين. واحتمى جماعة من

(12) جوبيو، المصدر السابق، ص ٢١٥

المسلمين بمحراب داوود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنج الأمان فسلموه إليهم .. وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف. وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم. وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقره، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء"(١٣) و" بعد أن انتهوا من الأحياء، ولم يبق هناك أحد ليقتل، اغتسل الصليبيون وساروا باتجاه كنيسة القيامة وهم يرتلون التراتيل ودموع الفرح تنساب من أعينهم، وتسيل على وجوههم. وتوقفوا عند كنيسة المسيح وهم يرتلون قداس القيامة. وفي واحد من المدافن في الكنيسة على جدار سيء الإنارة، نقشوا صلبانهم على الحجر"(١٤).

يذكر وليم الصوري أنه تم إحراق الجثث بكفاءة عالية حتى يتسنى للصليبيين السير في طريقهم إلى الأماكن المقدسة بثقة

(13) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ١٨٩.

(14) جوبيو، المصدر السابق، ص ٢١٨.

أعظم، دون أن يضايقهم تعثرهم في الأطراف والقطع المتناثرة. غير أن تلك المهمة كما تشير أرمسترونغ كانت في الواقع تفوق مقدرتهم، إذ ظلت الجثث متناثرة في أنحاء المدينة بعد خمسة أشهر من الواقعة. فحينما وصل فوشيه الشارتري Chartres إلى القدس ليحتفي بعيد ميلاد المسيح ذلك العام، تملكه الرعب وكتب قائلاً " يالها من رائحة نتنة تلك التي تمتلىء بها أسوار المدينة من الداخل والخارج، والتي تنبعث من أجساد الكفار المتعفنة الذين قمنا بقتلهم وقت سقوط المدينة، حيث ترقد جثثهم التي تم اقتناصها"، وتعلق أرمسترونغ " إذا نحن اعتبرنا احترام حقوق السلف المقدسة محكاً لمصداقية مُثل أي فاتح ينتمي إلى العقيدة التوحيدية، فلا بد وأن يأتي الصليبيون أسفل قائمة البشر"(١٥).

المتخيل الصليبي / الغربي عن الإسلام :

يشكل المتخيل عنصراً أساسياً في أي إدراك رمزي. وهو يتوسط السلوك البشري، ويتحكم به أحياناً بشكلٍ مطلق، لا سيما في حالة الحروب الصليبية التي بلورت متخيلاً متعصباً

(15) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٥٥.

وعدائياً للمسلمين. وخلال السنوات العشر التالية لسيطرة الصليبيين على القدس، قدم كل من الرهبان جيوبرت النوجنتي وروبرت الراهب وبلدريك البورجيلي وصفاً للحملة الصليبية على القدس" أشادوا فيها بالورع القتالي للصليبيين. ومنذ تلك اللحظة ظل ينظر للمسلمين في الغرب على أنهم جنس شرير كريه، غريب بشكل كلي عن الرب، ولا يصلح معه سوى الإبادة"[16]. في حين كان المتخيل العربي الإسلامي عن الآخر أكثر انفتاحاً وتسامحاً من ذلك المتخيل الصليبي الإفرنجي عن الإسلام. فالإسلام بتسليمه بوجود أهل الكتاب: المسيحيين واليهود، خطا خطوة واسعة باتجاه اللقاء مع الآخر، وهو ما لم تفعله الكنيسة الرومانية حتى مؤتمر الفاتيكان عام ١٩٦٣)[17]. من هنا تعايشت الدولة الإسلامية مع مواطنيها المسيحيين من واقع الاعتراف بهم كحملة كتاب توحيدي، تترتب لهم حقوق وعليهم واجبات، وتم التمييز في الغالب بين هؤلاء المواطنين وبين البيزنطيين والفرنجة في وعي النخب والعامة على حد سواء. بل كانت صورة الغرب الفرنجي(البيزنطي) لدى المسلمين أكثر تفهماً وأقل جهالة من

---

(16) المصدر نفسه، ص ٤٥٤

(17) رضوان السيد، الإسلام المعاصر، نظرات في الحاضر والمستقبل، بيروت ١٩٨٦، ص ١٠١

صورة الطرف الآخر عن العرب والمسلمين. فيكفي أن المسلمين نظروا إلى هؤلاء كمسيحيين من أهل الكتاب ليضعوا قاعدة للتفاهم والتسامح النسبيين، وهو ما كان يتجلى بفتح الطريق أمام الحجاج الأوروبيين إلى بيت المقدس. إلا أن الحروب الصليبية والطابع الإجرامي لدخول الفرنجة الأرض المقدسة، زاد الموقف الإسلامي تعقيداً وتصلباً. وسيحمل العرب انطباعاً رئيسياً عنهم يحمل مزيجاً من الخشية والاحتقار. ويقول عنهم مثلاً الأمير العربي أسامة بن منقذ الذي احتك مع الصليبيين فيما بعد، واختبرهم عن قرب، في كتابه " الاعتبار" إنهم مثال على جفاء الأخلاق إلا أن منهم قوم تبلدوا (تكيفوا) وعاشروا المسلمين، فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم"(١٨) كما يقول أيضاً" والإفرنج خذلهم الله، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان"(١٩)، ويكثف ابن منقذ حكمه بالقول " وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة. وفيهم الشجاعة عظيمة"(٢٠). ويطلعنا على ألعابهم الخشنة البدائية ووحشية محاكماتهم، وطرق

(18) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، القاهرة، دون تاريخ، ص ١٣٤.

(19) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(20) المصدر نفسه، ص ١٣٥-١٣٦.

تحكيمهم الاعتباطية (عبر القتال أو التعذيب بالماء) مما يثير استنكاره، فيعلق معلوف " ليس ما هو طبيعي أكثر من هذا الاستنكار الصادر عن الأمير العربي، لأن العدالة أمر خطير في نظر المسلمين، فالقضاة أشخاص محترمون أسمى الاحترام. وهم مضطرون قبل إصدار حكمهم، أن يتبعوا إجراء محدداً ينص عليه القرآن: تحقيق دفاع بينات "[٢١]. وفي المقابل ظل الجهل والتعصب يحكمان معرفة بيزنطة والفرنجة بالعالم العربي الإسلامي، فقد كان المسلمون في الأدب الشعبي البيزنطي يعبدون ثلاثين إلهاً أكبرهم (مهومد)، ويستغرب ريتشارد سوذرن فظاعة الأساطير المنتشرة عن المسلمين في الغرب خلال القرن التاسع إلى الثاني عشر[٢٢]. ورغم أن الغرب تعايش عن قرب على مدى عدة قرون مع المسلمين في الأندلس (إسبانيا)، فإن واقع الحال يذهب باتجاه مغاير، إلى درجة أن كلود كاهن لم يجد سوى نص واحد عن الإسلام جدير بالذكر، وهو نص أولوج الذي لا يعتمد بدوره على أي نص إسلامي، إنما على مخطوط مجهول يذكر فيه " أن النبي محمد شارك في اجتماعات... بدا للأجلاف العرب بمظهر العالم. تمثلت

---

(21) أمين معلوف، الحروب الصليبية، ط٢، ترجمة عفيف دمشقية، بيروت ١٩٩٣، ص ١٧٠

(22) السيد، المصدر السابق، ص ١٠١

له روح الظلال على شكل نسر فصيح اللسان ادعى أنه جبريل، بشّر بأشياء معقولة ظاهرياً: التخلي عن عبادة الأوثان .. ثم أشهر الحرب على الكفار. وألف حكاية عن بقرة حمراء وضفدعة وعنكبوت وهدهد، وعن يوسف نفسه وزكريا ومريم العذراء، وتكهن بانبعاثه بعد موته، ثم أكلت الكلاب جسده، فأمر المسلمون بقتلها جميعاً"[٢٣] .

يصبح الأمر طبيعياً في ظل هذا القلب المريع للوقائع، أن يكون الكتاب الأوائل لأناشيد المآثر على اقتناع تام، بأن المسلمين يعبدون الثالوث: أبولون وماهون ونيرفاجال[٢٤]. وخلاصة الأمر فإن معلومات الفرنجة عن الإسلام حتى وقوع الحرب الصليبية، لا يتعدى الإشاعات الشفوية، فلا غرابة إن وجدنا شخصاً بمنزلة جربير التوجنتي، لا يتمكن من معرفة أي شيء عن النبي بواسطة ما هو مكتوب. فليس هناك سوى بعض التخيلات عن نسب النبي، وثيابه، وزوجاته، ومعارفه التي أمكنه اكتسابها- كما يدعون - من اتصاله باليهود والمسيحيين، أو أنه مصاب بالصرع، أو أن اليهود شجعوا دعوته بدافع الكراهية للمسيحية، أو أنه

(23) كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، المصدر السابق، ص ١٩٦,

(24) المصدر نفسه، ص ٦٦-٦٧,

يتوجه بالعبادة للآلهة فينوس[٢٥]، من هنا يقول كلود كاهن " إن العالم الإسلامي بصفة عامة لم يكون له وجود واقعي في أذهان الناس في أوروبا التي ستخرج منها الحرب الصليبية"[٢٦].

محاولة الإبادة الثقافية
للمقدسات الإسلامية المقدسية :

تحكّم هذا المتخيل المشوه والمتعصب عن المسلمين مباشرة بطريقة تعامل الفرنجة مع المسلمين. إذ استبعدوا مبدأ التعايش من أساسه من المسلمين، وأخلوا القدس منهم تماماً، وحرموا عليهم الدخول لزيارة أماكن عبادتهم التي صودرت، واستخدموها لأغراضهم الدينية والدنيوية. ولم يقتصر تعاملهم هذا على المسلمين بل شمل اليهود، فأعاد الفرنجة تطبيق الأوامر البيزنطية القاسية التي سادت من سنة ٧٠م حتى الفتح الإسلامي بحظر سكن اليهود في القدس أو الدخول إليها. من هنا أصدر المحاربون الفرنجة قانوناً رسمياً " يمنع المسلمين واليهود من دخول أورشليم. كما قاموا بطرد المسيحيين المحليين لأنهم شكوا في تآمرهم مع المسلمين. ولم يميز أولئك الغربيون بين الفلسطينين والأقباط،

(25) رنسيمان، المصدر السابق، ج٣، ص ٧٨٢

(26) كاهن، الشرق والغرب، المصدر السابق، ص ١٤٩

والمسيحيين السوريين والعرب عامة"(٢٧). وطردوا منها جميع كهنة الطقس الشرقي بعد أن أخضعوهم للتعذيب للحصول على صليب الصلبوت، ودخلوا بعدها طرابلس مدينة المصوغات والمكتبات والبحارة البواسل والقضاة والمثقفين، وأتلفوا مائة ألف مجلد كانت في دار العلم، وباعوا معظم الأهالي أو أبادوهم، وأعقبوا ذلك بمذبحة لمدينتي بيروت وصيدا على سبيل العبرة"(٢٨). وفور إنجازهم المهام الأصعب، اتجه المحاربون الصليبيون إلى المقدسات الإسلامية، وشرعوا بنوع من إبادة ثقافية لها، فحولوا الحرم القدسي إلى قاعدة حربية، وقسماً من المسجد الأقصى إلى كنيسة، وأضافوا إليه من الناحية الغربية بناء جعلوه مستودعاً لذخائرهم(٢٩). واستولى فرسان الهيكل على منطقة الحرم، وقد استمدوا اسمهم من قبة الصخرة التي ظنها المسيحيون هيكلاً منذ أيام المسيح، فدعوا أنفسهم فرسان الهيكل. وأحدث الهيكليون تغييرات كبيرة في المسجد الأقصى وفيما جاوره من أجزاء منطقة الحرم، وبنوا مستودعاً لأسلحتهم في مكان الأروقة المعمدة لقبة

---

(27) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٥٧.

(28) كاهن، تاريخ الشعوب الإسلامية، المصدر السابق، ص ١١٢. قارن مع معلوف، المصدر السابق، ١١٢-١١٣.

(29) السيوطي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ١٨٤. قارن مع شراب، المصدر السابق، ص ٤١.

الصخرة، وبنوا اصطبلات خيولهم في أجزاء الزاوية الجنوبية الشرقية لمنطقة الحرم غربي مهد المسيح، وربما استعملوا البوابة الثلاثية أو المنفردة كمخرج لهم من تلك الأقبية(٣٠).

تم ذلك على مراحل بهدف طمس المعالم الإسلامية وإبراز الرموز المسيحية على حسابها. فما إن استتب الأمر للصليبيين حتى شرعوا بطبع المدينة بالطابع المسيحي، فبدؤوا في عام ١١٥م بتغيير قبة الصخرة، ووضعوا صليباً على أعلى القبة، وغطوا القبة بغلاف رخامي كي تكون مذبحاً ومكاناً للمرتلين، بينما غطوا النقوش القرآنية بنصوص لاتينية، واستهدفوا من ذلك طمس الحضور الإسلامي، وكأنهم لم يقيموا في المدينة قط. ويأتي في هذا السياق إقامتهم حاجز القضبان المتصالبة حول القبة، التي استغرق صنعها أعواماً، وبنوا شمال الكنيسة الجديدة التي قامت على حساب مسجد قبة الصخرة، أديرة للأوغسطينيين. وبهدف تأمين الماء اللازم لإعادة تجديد المسجد الأقصى بطريقة تناسب الأغراض المسيحية قام بلدوين ببيع سقف المسجد المعدني الرائع، وعندما قدم القدس في عام ١١١٨م مجموعة من الفرسان لقبوا أنفسهم بجنود المسيح الإخوة الفقراء The Templare عرضوا على

(30) شراب، المصدر نفسه، ص ٤١٠.

بلدوين ملك بيت المقدس، أن يقوموا بالخدمات الخيرية والأمنية والصحية، وقد منحهم بلدوين على الفور جزءاً من المسجد الأقصى ليكون مركزاً رئيسياً لهم، وسموا لاحقاً بـ " فرسان الداوية" أو فرسان الهيكل. وجسد هؤلاء الرهبان العسكريون ولع أوروبا الجديد بممارسة الحرب وشعائر الدين معاً. وقد جدد فرسان الداوية لاحقاً مركزهم الرئيسي في المسجد الأقصى، وجعلوا منه مجمعاً عسكرياً، واتخذوا من أقبية المسجد التحتية اصطبلات لخيولهم التي كانت تأوي أكثر من ألف فرس مع سائسيها، وأقاموا اسواراً داخلية في المسجد لبناء غرف منفصلة لمخازن تم ملؤها بالأسلحة والذخيرة والمؤن، واستعملوا بعضها الآخر مراحيض، وأنشؤوا جناحاً جديداً في المسجد يحوي ديراً ومقصفاً وحجرة طعام وأقبية الخمور. وحاول الصليبيون أن يعطوا الإبادة الثقافية الرمزية للجغرافية الإسلامية المقدسة بعداً آخر بإطلاق مسميات جديدة على الأماكن والمباني التي شيدها المسلمون سابقاً داخل الحرم، وادعوا أن يواكيم وحنه والد مريم العذراء التقيا لأول مرة على باب الرحمة، كما قالوا في " البوابة الجميلة" أنها المكان الذي قام فيه القديس بطرس والقديس يوحنا بشفاء المشلولين. أما قبة الصخرة نفسها التي سموها" كنيسة المعبد" أو " معبد الرب" فبجلوها باعتبارها المعبد الذي كان المسيح يصلي فيه طيلة حياته،

حتى قيل مسيحياً أنه بالإمكان رؤية قدم السيد المسيح على الصخرة. وحولوا بشكل حاسم طبيعة الحرم، إذ صار يحتوي كل طقوس الصليبيين الرئيسية في المسيرة إلى "معبد الرب" الذي أصبح مركزياً في احتفالاتهم[٣١]. وتحت ضغط صلاح الدين الأيوبي تحول فرسان الهيكل Templiers وهم المعروفون باسم فرسان الداوية عند المسلمين وفرسان الاسبتارية Hospitaliers التي اختصت أول ما تأسست برعاية الحجيج والعناية بالمرضى المسيحيين إلى هيئة حربية واحدة اتخذت من المسجد الأقصى مقراً لقيادتها ومستودعاً لأسلحتها[٣٢].

زار القدس لاحقاً في ظروف غامضة كل من الرحالة الإدريسي (ت٥٦٠هـ) والهروي (ت٦١١هـ/١٢١٥م) إبان حكم الفرنجة. وقد وصفا لنا مشاهداتهما من المدينة والمسجد الأقصى وفيه الصخرة والحرم، ولاحظا التعديلات الحاصلة. فقد كتب الهروي في " الإشارات إلى معرفة الزيارات" " قبة الصخرة وهي موضع عُرج بالنبي (ﷺ)، وبه الصخرة التي عُرج به من عليها. وهذه الصخرة رأيتها في زمان الفرنج شمالي هذه القبة. ودائرها درابزين من الحديد كالبيت، وهي الآن من الجانب القبلي وتحتها

(31) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٦٣ - ٤٦٨.

(32) عاشور المصدر السابق، ص ٥٧٨. قارن مع السيوطي، المصدر السابق، ص ١٩٨.

دكـة، وهي عليـهـا مـبنيـة. والصـخـرة شـبـر وافٍ وعلوُّها مـقـدار ذراعين، ودائرها يزيد على أربعة أذرع. وتحت قبة الصخرة مغارة الأرواح ذكروا أن أرواح المؤمنين يجمعها الله بها، وينزل إلى هذه المغارة في أربع عشر درجة. ويقال إن قبر زكريا عليه السلام بهذه المغارة والله أعلم". ورأى الهروي في سقف القبة آثار كتابة الآية ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض ﴾ والكتابة بالفص المذهب. ولهذه القبة أربعة أبواب. ودخلتُها في زمان الفرنج سنة تسعة وستين وخمسمائة، وكانت قبالة الباب الذي إلى مغارة الأرواح صورة سليمان بن داوود (ع) عند التأزير الحديد. وغربيه باب من الرصاص عليه صورة السيد المسيح ذهباً، وهو مرصع بالجواهر. والباب الشرقي إلى جانب في السلسلة، وعليه عقد عليه مكتوب اسم القائم بأمر الله (خليفة عباسي توفي في ١٠٧٥هـ) أمير المؤمنين، وسورة الإخلاص ﴿قل هو الله أحد ﴾.. وتحميد وتمجيد، وعلى سائر الأبواب كذلك لم تغيره الإفرنج (يقصد الكتابة العربية الموجودة على الأبواب) وإلى جانب هذه من الشرق قبة السلسلة، وشمالي هذه القبة من دار القسوس بها من العهد وعجائب الصنعة.. والمسجد الأقصى وبه محراب عمر بن الخطاب (ر) لم تغيره الفرنج. وقرأت في سقف فيه الصخرة

هذه السورة: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾، نصر من الله لعبد الله وولي أبي الحسن علي الإمام الظاهر (الخليفة الفاطمي السابع توفي ١٠٣٥م) لإعزاز دين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، أمر بعمل هذه القبة وإذهابها سيدنا الوزير الأجل صفي أمير المؤمنين وخالصته أبو القاسم علي بن أحمد أيده الله ونصره وكمل جميع ذلك إلى سلخ ذي القعدة سنة ست وعشرين وأربع مائة، صنعه عبدالله بن الحسن المصري المزرق) وجميع الكتابة والأوراق بالنص المذهب. وجميع ما على الأبواب من آيات القرآن العزيز وأسامي الخلفاء لم تغيره الفرنج. ورواق الصخرة مبني على ست عشرة أسطوانة من الرخام، وعلى ثمانية أركان. والقبة التي داخله مبنية على أربعة أركان، واثني عشر عاموداً ودائرها ستة عشر شباكاً. والقبة دائرها مائة وستون ذراعاً. ودائر البنية العظمى التي تحوي الجميع ثلاثمائة وأربعون وثمانون ذراعاً. ودائر الجميع مع قبة السلسلة مع ما يلائمه من العمارة أربعمائة واثنتان وثمانون ذراعاً. وعلو الدرابزين الحديد الذي يحوي هذه الصخرة قامتان. وأبواب قبة الصخرة أربعة من الحديد، باب منها إلى الرحمة، وباب منها إلى باب جبريل، وباب إلى القبة، وباب إلى

قبة السلسلة، ودائر قبة السلسلة ستون خطوة. ومغارة الأرواح ارتفاعها قامة وبسطة. وسعتها إحدى عشر خطوة من الشرق إلى المغرب، ومن الشمال إلى القبلة ثلاث عشرة خطوة ودرجها أربع عشرة درجة، وفي سقفها روزنة (=كوة) من ناحية الشرق سعتها ذراع ونصف، ودائر المغارة خمسون ذراعاً. سعة الرواق خمس عشرة خطوة، طوله من القبلي إلى الشمال أربع وتسعون خطوة .... وتحت الأقصى بناءٌ به حجارة هائلة ومعالف الدواب وهناك مغارة، يقال: مهد عيسى بن مريم عليه السلام. وشمالي الأقصى بركة ماء كبيرة كانت تتجمع فيها المياه[٣٣].

بعد أن استقر الأمر لقادة المحاربين الصليبيين في بيت المقدس، اجتمع هؤلاء في ١٧ يوليه لتنظيم الوضع الجديد في المدينة المقدسة، كانت المشكلة الداخلية الكبرى التي واجهت الصليبيين بعد أن انتهوا من ذبح جميع من في بيت المقدس من المسلمين واليهود، هو عدم وجود زعيم يُجمِعون على زعامته لهم، وهنا أحس الصليبيون بعظم الخسارة التي أصابتهم بوفاة " أدهما" المندوب الباوبي، الذي كان يقوم حتى وفاته بدور الزعامة الروحية لهم، فضلاً عن أنه كان يلعب دور الجامع بين أمراء الصليبين

(33) شراب، المصدر السابق، ص ٤١٣ -،٤١٥

المتنافرين تحت زعامته، فما لبثت أن ظهرت بعد وفاته في أغسطس ١٠٩٨م الاتجاهات الشخصية بين الأمراء والقادة. فاجتمعوا ليذللوا مشاكل الزعامة والإدارة. ولو كان " أدهمار" حياً لأمكن أن يتولى الزعامة العليا بحكم مكانته الشخصية بينهم، ولا سيما أنه كان مندوباً للبابا أوربان الثاني رأس الكنيسة الغربية، الذي كان له الفضل الأول في الدعوة للحرب الصليبية، وكان بإمكان " أدهمار"، والحالة هذه، أن يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية ليؤسس دولة ثيوقراطية، ولكن بغيابه انتهى المجتمعون إلى قرار بأن يتولى حكم بيت المقدس جودفري دي بوايون، الذي اكتفى باتخاذ لقب "حامي بيت المقدس"، وجاء اختياره لهذا اللقب بمثابة اعتراف منه بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحتة، وأن لها صفتها الدينية التي تجعل للكنيسة نوعاً من الإشراف عليها، في مقابل ما انتهى إليه زعماء الحركة الصليبية من ترتيب البيت السياسي الجديد لدولتهم، فقد اجتمع رجال الكنيسة الكاثوليك في أغسطس ١٠٩٩م لاختيار بطريرك لبيت المقدس، فوقع اختيارهم على أرنولف مالكورن، وقد وجه البطريرك الجديد جلَّ اهتمامه إلى إضفاء الصبغة اللاتينية على كرسي بيت المقدس، بادئاً باستبعاد القساوسة الأرثوذكس من تلك الكنيسة، مما أثار استياء أهل بيت المقدس من المسيحيين

المحليين. ولقد أجبر أرنولف هؤلاء القساوسة الأرثوذكس على إظهار صليب الصلبوت (أو الصليب العظيم)، الذي أخفوه سابقاً، ولم يعد أمام الأرثوذكس في بيت المقدس سوى التكيف مع الوضع الجديد، الذي يضعهم في المرتبة الثانية(٣٤).

أما في عهد الملك بلدوين الأول، فإنه رغم سماحه بعودة المسيحيين الأرثوذكس والأرمن إلى بيت المقدس، فإنه لم يتقاعس عن مؤازرة بطريركية القدس، وتوسيع اختصاصها الديني على حساب بطريركية أنطاكية البيزنطية، وساند السياسة البابوية الدينية، التي كانت تستهدف أن تكون الكنائس في جميع البلاد التي فتحها بلدوين الأول تابعة لبطريرك بيت المقدس الكاثوليكي، ويبدو أن ما حققه الملك بلدوين الأول لنفسه من سيادة على أمراء أنطاكية، والرها وطرابلس جعله يتمسك بأن تكون لبطريركية بيت المقدس الأولوية على بطريركية أنطاكية. وهكذا انتهى الأمر عند منتصف القرن الثاني عشر بأن ظلت أسقفيات طرابلس تابعة لبطريرك أنطاكية، ما عدا بيروت وصور وصيدا وعكا وبانياس، التي أصبحت تابعة لبطريركية بيت المقدس(٣٥).

(34) عاشور، المصدر السابق، ج١، ص ٢٤٨-٢٥٣,

(35) المصدرنفسه، ص ٢٣٥,

الضغط الشعبي الإسلامي
لاستعادة القدس :

هزَّ سقوط القدس أولى القبلتين، وثالث الحرمين ومرقى النبي إلى سدرة المنتهى أعماق الضمير الإسلامي، وقد عبر مجير الدين عن ذلك بقوله " وانزعج المسلمون في سائر الممالك الإسلامية بسبب أخذ بيت المقدس غاية الانزعاج"(٣٦). وإذا كانت ردود الفعل الرسمية الإسلامية قد تأخرت بسبب تمزق العالم الإسلامي والتناحر ما بين إماراته وسلطناته فإن ردود الفعل الشعبية الإسلامية كانت جلية في كل مكان. وقد تصدر العامة في حلب ودمشق ردود الفعل، وارتفعت أصوات العامة في حلب مطالبة حكامها السجلوقيين بتحرير البلاد ورفع البلاء عن القدس والمدن الشامية الأخرى. وكان صوتا القاضي ابن الخشاب والشيخ الهروي الأكثر تعبيراً عن صوت الأمة، فاتجه الكثيرون إلى بغداد يشكون الأمير رضوان أمير حلب لتقاعسه ويتهمونه بالزيغ والانحراف ويطالبون الخليفة العباسي المستظهر بإعلان الجهاد ضد الفرنجة. وكي يمتص الخليفة نقمتهم فإنه أمر السلطان السلجوقي بتجهيز جيش لقتال الإفرنج أسندت قياته إلى مودود أمير الموصل، إلا أن الحلبيين سرعان ما اكتشفوا الخديعة وأثاروا العامة في بغداد ضد

---

(36) عبدالمجير الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص ٢٧٣

الخليفة[٣٧]. ولقد صور لنا ابن الأثير رد فعل العامة على سقوط القدس بقوله" وَرَدَ المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعيد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذُكر ما دهم المسلمين بذلك الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال. فلشدة ما أصابهم أفطروا (في شهر رمضان)، فأمر الخيفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم النرنجاني وأبو الوفاء بن عقيل وأبو سعد الحلواني وأبو الحسين بن سماك، فساروا إلى حلوان فبلغهم مقتل مجد الملك البلاساني، فعادوا من غير بلوغ أرب ولا قضاء حاجة، واختلف السلاطين فتمكن الفرنج من البلاد، فقال أبو المظفر الأبيوردي في هذا المعنى أبياتاً منها:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم ... فلم يبقَ منّا عرضة للمراجم

وشر صلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبَّت نارها بالصوارم

فإيها بني الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم

أتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم

(37) شوقي شعث، فلسطين أرض الحضارات، حلب ١٩٩٤، ص ١٦٣.

وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم

وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى ... توارى حياء حسنها بالمعاصم

وتلك حروب من يغيب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها من نادم

سللنا بأيدي المشركين قواضباً ... ستُغمد منهم في الطلى والجماجم

يكاد لهن المستجن بطيبة ... ينادي بأعلى الصوت ياآل هاشم

أرى أمتي لا يشرعن إلى العدى ... رماحهم والدين واهي الدعائم

ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم

أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويقضي على ذلك كماة الأعاجم

فليتهم إذ لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيره بالمحارم

دعوناكم والحرب ترنو ملحة ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم

تراقب فينا غارة عربية ... تطيل عليها الروم عض الأباهم

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... رمينا إلى أعدائنا بالجرائم(٣٨)

---

(38) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص ١٨٩-١٩٠.

تشكل قصيدة الأبيوردي جزءاً من أدب غزير لا سيما في مجال الأدب المنظوم، جعل من القدس في ردة الفعل الأولى عند الزنكيين ثم عند الأيوبيين محور الاستثارة لمجاهدة الصليبيين، وتخليص الأرض المحتلة منهم[٣٩]. ولقد تم ذلك كله وسط استثارة واجب الجهاد، وتداول آيات النفير والتبشير بالنصر والجنة القرآنية ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ و﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ و ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾[٤٠]. من هنا أخذ رد الفعل الإسلامي الرسمي يستجيب للمزاج الشعبي، فتشكل حلف إسلامي ما بين السلطنات السلجوقية منحت قيادته الاسمية إلى الأمير مسعود بن السلطان محمد السلجوقي[٤١]، وشكل هذا الحلف مدخل هزيمة الصليبيين، إذ كان انتصار الفرنجة القادمين من " الغرب القروي" المتخلف حضارياً عن " الشرق بمدنه التجارية الكبيرة والمتطورة"، يعود أساساً إلى تمزق القوة الإسلامية.

---

(39) محمود إبراهيم، المصدر السابق، ص ٦٩.

(40) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم في الحروب الصليبية، ط٢، القاهرة، ص٩٧.

(41) شعث، المصدر السابق، ص ١٦٣.

مدونات " فضائل القدس"
تعزز روحية الجهاد :

انطلقت في سنة ١١١٣م من الموصل حركة كبرى لتوحيد الإمارات الإسلامية في العراق وبلاد الشام من أجل عمل موحد ضد الفرنجة. ووصلت هذه الحركة ذروتها أيام عماد الدين الزنكي (أتابك عساكر الموصل) الذي برز في فترة ١١٢٧-١١٤٦م، واستطاع أن يفرض سلطته على حكام المقاطعات المجاورة له في سورية والعراق[٤٢]. وقد تصدر الزنكي طريق الوحدة والجهاد، وتمكن من الاستيلاء في عام ١١٤٤م على إمارة الرها الصليبية، التي تتحكم بعقدة مواصلات حلب - الموصل - بغداد - سلاجقة الروم، وسمح للأرمن والسريان باستعادة كنائسهم، في حين دمر تحت تأثير مرارة المواجهة الدامية مع الفرنجة كنائس الصليبين الكاثوليك[٤٣]. وقد رد الصليبيون على سقوط الرها بإرسال الحملة الصليبية الثانية بقيادة لويس الرابع وكونراد الثالث التي هُزِمت على أبواب دمشق بقدر ما سرَّعت في إنجاز وحدة سورية بضم دمشق إليها في عام ١١٥٤م في عهد نور الدين الزنكي خليفة عماد الدين. وتركزت جهود نور الدين على ضم

(42) شوفاني، المصدر السابق، ص ٢٠٠.

(43) عاشور، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠٧.

مصر إلى الوحدة الإسلامية الجديدة لطرد الصليبيين واسترجاع بيت المقدس. واستفاد من تعقد الخلافات في البيروقراطية الفاطمية العليا في مصر، التي وصلت إلى حد أن الوزير الفاطمي شاور قد طلب مساعدة الفرنجة لتعزيز موقعه، في حين رد الخليفة الفاطمي على ذلك بطلب النجدة من نور الدين، الذي أرسل شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي غلى مصر، وقضيا على سلطة شاور وأبعدا خطر الفرنجة. وسيشكل ذلك مدخل بروز صلاح الدين الأيوبي الذي سيكمل عملية توحيد الشام ومصر تمهيداً لاستعادة القدس.

كان نور الدين قد حدد استراتيجيته باستعادة بيت المقدس، وبلغ إيمانه التام بذلك إلى درجة أنه أمر بصنع منبر للمسجد الأقصى قبل أن يحرره صلاح الدين الأيوبي من الفرنجة بعشرين عاماً. ويروي ابن واصل قصة المنبر بأن إرادة نور الدين كانت " متعلقة بفتح القدس، وأمانيه لم تزل تحدث به، وكان بحلب رجل نجار يقال له الأختريني، من ضيعة تُعرف بأخترين. لم يكن له نظير في صناعته، فأمر نور الدين بعمل منبر لبيت المقدس. فقال له: اجتهد أن تأتي به على أحسن نعت يمكن، وأحكمه، فجمع

الصناع وبالغ في إتقانه وصنعته وأتمه في سنتين "[٤٤]. ولقد انضم مسلمو القدس والمدن الفلسطينية الأخرى الذين هربوا من مذابح الصليبيين واستقبلتهم دمشق بترحاب إلى نور الدين الذي قرب علماءهم، وكان من أبرزهم الشيخ أحمد بن قدامة المقدسي وابن أخته عبدالواحد بن أحمد المقدسي. وقد نزلوا أول ما نزلوا في مسجد ابي صالح ظاهر الباب الشرقي لمدينة دمشق، وبنوا لأنفسهم داراً بالقرب من نهر يزيد، وأسسوا أول مدرسة كبيرة بالصالحية، وهي المعروفة بالمدرسة العمرية، وبنى لهم نور الدين مدرسة صغيرة ومصنعاً وفرناً. وكان تأثير هؤلاء كبيراً في دمشق من الناحية العملية والعمرانية، وفي ميدان المساندة للجهاد، وأسسوا الصالحية التي تحتفظ باسم مؤسسيها. وكان نور الدين يزور المسلمين الفلسطينين المقتلعين من القدس وقراها، لينظر في أحوالهم. وقد شارك في جيشه كما في الجيش الذي سيقوده لاحقاً صلاح الدين الأيوبي كثير من المقدسيين، ومنهم الحافظ ضياء الدين محمد المقدسي (توفي ٦٤٣هـ) صاحب الكتاب الشهير عن " فضائل بيت المقدس"[٤٥]، الذي جمع فيه ما ورد في

---

(44) جمال الدين محمد بن واصل، مفرج الكروب وأخبار بني أيوب، ج٢، تحقيق جمال الشيال، القاهرة ١٩٥٧، ص ٢٢٨.

(45) ضياء الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٥-٧.

القدس من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأخبار مروية. وقد تعمد المقدسي أن يحشد في هذا الكتاب كل المخزون الرمزي الإسلامي الذي تركز حول القدس. وكان كتاب المقدسي يقرأ ويتلى ليستثير حماسة الجهاد. وإذا كان الواسطي وابو المعالي المقدسي من أوائل من كتبوا عن " فضائل بيت المقدس" في العهد الفاطمي، فإن ضياع القدس، إدى إلى تأليف سلسلة واسعة من كتب الفضائل. ولقد اضطر إيمانويل سيفان Emanuel Sivan إلى الاعتراف رغم محاولته تقليل مكانة القدس بالنسبة للمسلمين، بأن عماد الدين قد قام بحملة دعائية قوية من أجل القدس، وأن استعادتها مثلت الهدف النهائي لردة الفعل الإسلامية. وقد اتسعت هذه الحملة في زمن ابنه نور الدين الزنكي، وكان من نتائجها تعمق الاهتمام بكتب فضائل القدس، سواءً في دوائر الحكام أم في أوساط الرأي العام، من هنا أضيفت مؤلفات جديدة إلى كتابات القرن السادس الهجري. وقد انتشرت هذه المؤلفات في شتى أنحاء الشرق الأوسط بالارتباط مع تحفيزات حركة الجهاد. ويلاحظ في هذا السياق أن فقهاء دمشق قاموا بتنمية الإحساس بقداسة القدس، وبإعداد الرأي العام الإسلامي للاستعادة الوشيكة للمدينة المقدسة[٤٦]. ويشير المستشرق

---

(46) محمود إبراهيم، المصدر السابق، ص ٤٥

الروسي كراتشكوفسكي إلى أن الأدب الجغرافي المرتبط بفلسطين خصوصاً وببلاد الشام عموماً، وعلى رأسه أدب الفضائل قد ارتبط بشكل متلاحم في كافة مراحله بعملية تحرير القدس من الصليبيين، التي ترجع إلى عهد الزنكيين والأيوبيين، كما نما هذا الأدب أيضاً في السياق نفسه في عهد المماليك(٤٧). ولقد بلغ عدد مدونات " فضائل القدس" ما بين القرنين الحادي عشر والتاسع عشر خمسة واربعين مؤلفاً، من بينها " فضائل القدس" لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) و" الفتح القسي في الفتح القدسي" لعماد الدين الأصفهاني (ت٥٩٧هـ) و"فضائل بيت المقدس" لشمس الدين محمد بن حسين الكرخي (ت ٦٨٢هـ)، و"تحصيل الأنس لزائر القدس" لعبدالله بن هشام (ت ٧٦١هـ) .... إلخ. ولم تكن الأقوال والروايات التي جمعتها هذه المدونات جديدة على الرأي العام الإسلامي، إلا أن ميزتها كانت في تصنيف الفضائل في موضوعات مختلفة، وجمعها في كتب خاصة بعد أن كانت منشورة في الأحاديث والسير وكتب التاريخ الموسوعية. ويرى محمد إبراهيم أن كتب الفضائل لم تكن نتاج رومانسيات تاريخية إثر الحروب الصليبية، بدليل أن كتباً أخرى أُلفت عن

(47) اغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج٢، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة ١٩٦٥، ر٥٠٧

فضائل القدس من قبل ومن بعد، مما دفع للقول إن حرب استرداد القدس لم تكن السبب الوحيد لتأليف هذا النوع من الكتب عن المدينة المقدسة[٤٨] وإن كانت تلك الحرب قد حفّزت حركة التأليف تلك، لكنها كانت تعكس موقع القدس في قلب الضمير الإسلامي، لقد اكتسبت القدس تأكيداً جديداً إثر الغزو الصليبي. وإذا كانت كتب الفضائل قد أخذت تكثر منذ القرن السادس الهجري فإنها لم تأت بجديد عما حوته كتب الفضائل الأولى. إن منزلة القدس الرفيعة، وحرمتها البالغة قبل الغزو الصليبي هي التي أدت أن تصبح رمز الجهاد والتحرير أيام الزنكيين وصلاح الدين الأيوبي وبعدهم[٤٩]. فقد تكونت الصورة النمطية لقداسة المدينة منذ مرحلة البعثة النبوية، وترسخت بقيم معززة ومضافة في العهد الأموي ثم في العهد الفاطمي، وأصبحنت إزاء كتب أبي المعالي المشرف بن المرجا، وتأليف الواسطي، وكتاب عن تاريخ القدس وفضائلها لابن الرميلي مكي بن عبدالسلام الحافظ الذي قتله الصليبيون عند دخلوهم القدس، فضاع كتابه معه. وإبان حرب تحرير القدس كتب كل من ابن عساكر الدمشقي (ت٥٧١هـ/١١٧٤م) والإمام عبدالرحمن الجوزي (ت

---

(48) محمود إبراهيم، المصدر السابق، ص ر١٠١

(49) الدوري، المصدر السابق، ص ر١٥٥

٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) كتاباً عن فضائل القدس. ثم تلا ذلك بعد التحرير كتابة ثلاثة مؤلفين من أسرة ابن عساكر نفسه عن فضائل القدس، وهم أبو القاسم ولد الحافظ (ت ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) الذي كتب " الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى"، وأبو سعيد عبدالله بن الحسن، وأمين الدين أحمد. وكان ظهور خمسة كتب في العهد الأيوبي عن فضائل القدس بمثابة احتفال بعودة المدينة المقدسة إلى المسلمين، وللتذكير دائماً بقداستها، كما ظهرت في العهد المملوكي سبعة كتب وفي العهد العثماني أربعة كتب أخرى[٥٠] لتكتمل مدونات " فضائل القدس" في الثقافة العربية – الإسلامية.

(50) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ٤٩٥-٤٦٩ر

الفصل الثامن

الفتح الصلاحي الأيوبي : القدس أولاً
من التحرير إلى لحظات الحداد والتمزق

تابع صلاح الدين الأيوبي مشروع قائده الكبير نور الدين في تحرير بيت المقدس، حيث خلف عمه شيركوه في مصر وأنهى الخلافة الفاطمية واستبدل الدعوة لها بالدعوة للخليفة العباسي في بغداد الذي بات محور الشرعية في العالم الإسلامي. وإثر وفاة نور الدين الزنكي ضم صلاح الدين الأيوبي مصر إلى بلاد الشام، وشكل ذلك مدخل استعادته للقدس. ولقد كانت المواجهة الأساسية في الميدان مع الصليبيين عسكرية إلا أن العوامل الروحية لعبت دوراً أساسياً في حسمها. فقد اعتمد المسلمون والفرنجة على الخيالة، مع أن الفارس الصليبي كان يتميز بثقل سلاحه (الدرع الثقيل والسيف الثقيل ذو الحدين والرمح الثقيل والقلنسوة الفولاذية والترس) في حين تميز الفارس المسلم بخفة سلاحه التي ساعدته على الكر والفر، واعتماد تكتيكات الرماة والمراوغة والمباغتة[1]، وكانت التقنيات العسكرية متوازنة ما بين الطرفين، إذ استخدما النار الإغريقية، واقتبس الصليبيون من

---

(1) أحمد رمضان أحمد محمد، حول مسائل الصراع المسلح الإسلامي في العصور الوسطى، مجلة المستقبل العربي، السنة العاشرة، عدد ١٠٢، الشهر الثامن ١٩٨٧، ص ٧١.

المسلمين استخدام الحمام الزاجل في الاتصالات في حين اقتبس المسلمون من الصليبيين المنجنيق الذي مكّن المسلمين من ضرب النظام الدفاعي الصليبي الذي يقوم على التحصينات والقلاع والأبراج(٢). ومنذ أن تولى صلاح الدين السلطة في مصر، نظم كاتبه المعروف بالعماد الكاتب قصيدة يحضه فيها على فتح القدس جاء فيها:

ولما صَبت مصر إلى عصر يوسف   أعاد إليها الله يوسف والعصرا

فأجرى بها عن راحتيه بجوده   بحاراً فسمَّاها الورى أنملا عشرا

فلا تهملوا البيت المقدس واعزموا   على فتحه غازين واخترعوا البكرا

يديمون بالمعروف طيب ذكرهم   وما الملك إلا أن تديموا لكم ذكرا(٣)

ومن الملاحظ أن الشاعر يربط هنا ما بين مدى حماس صلاح الدين الأيوبي لفتح القدس وبين خلود اسمه في التاريخ. وكان العماد الكاتب يعرف هذا الحماس عند صلاح الدين الذي كان قد بدأ عمله لتحرير القدس بمهاجمة أطراف المملكة الصليبية

---

(2) قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية في الأدبيات العربية والأوروبية واليهودية، المصدر نفسه، ص ر١١

(3) شهاب الدين أبو شامة المقدسي،عين الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القسم الأول، تحقيق أحمد البسيوني، دمشق ١٩٩١، ص ر٢٩٦

واستنزافها وإلحاق هزيمة ماحقة بجنودها في صفورية في فلسطين[٤]. وشكلت هذه الهزيمة التي أسر فيها جاي لوزجنان ملك بيت المقدس مدخل نهاية المملكة الصليبية، حيث قطع صلاح الدين خط امتداد الصليبيين على الساحل، ودخل في ١٠ تموز / يوليو ١١٨٧م مدينة عكا. ولما تعامل مع المدينة بقلبٍ رحيم، وضمن لها عصمة النفس والمال، فإن هذا سهل فتحه للمراكز الصليبية الساحلية والداخلية الأخرى، فاستولى على قيسارية والناصرية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف كما استولى شقيقه العادل في الوقت نفسه على يافا ونابلس. واستسلمت صيدا وصرفند بدون مقاومة، ثم بيروت وجبيل وعسقلان. وفي كل هذه المدن خيرً صلاح الدين الصليبيين بين البقاء فيها او الخروج، فقصد معظم الصليبيين مدينة صور التي تجمع فيها الصليبيون وشكلت أخطر قاعدة صليبية ضد المسلمين[٥].

(4) شوفاني، المصدر السابق، ص ر٢٠٤

(5) عاشور، المصدر السابق، ج٢، ص ٨١٠-ر٨١٨

القدس أولاً : عظمة القدس تحمي الصليبيين

غدت الطريق سالكةً للقدس التي احتلت استعادتها أولويات صلاح الدين، ولا أدلَّ على دور تجذر القدس في المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة من أن صلاح الدين قد استحضرها لتشكل لديه أساس ما يمكننا تسميته بشعار: القدس أولاً. ويكتب كاتبه العماد الأصفهاني عن ذلك "وكيف لا يهم بافتتاح البيت المقدس الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض (= المتناوبون على العبادة)، وملائكة السماء، ومنه الحشر والنشر، وفيه الصخرة، التي صيغت جدة إبهاجها من الإنهاج، ومنها منهاج المعراج، ولها القبة الشماء التي على رأسها كالتاج، وفيه ومض البارق، ومضى البراق (الحصان الإلهي الذي أسرى بالنبي من مكة إلى القدس)، ومن أبوابه " باب الرحمة" الذي يستوجب داخله الجنة... وفيه كرسي سليمان، ومحراب داوود، وله " عين سلوان" التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود، وهو أول القبلتين وثاني البيتين وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تُشد إليها الرحال.. وإليه ومنه كان الإسراء ولأرضه فُتحت السماء.. وصخرته الطولى، القبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية، وعندها صلى نبينا

(ﷺ) بالنبيين، وصحب الروح الأمين (جبريل)، وصعد منها أعلى عليين، وفيها محراب مريم عليها السلام، الذي قال الله فيه ﴿ كلما دخل عليها زكريا .. ﴾ (آل عمران: ٣٧) ... وهو الذي أسسه داوود عليه السلام، ووصى ببنائه سليمان، ولأجل إجلاله أنزل الله }سبحان الذي أسرى بعبده{فما أجله واعظمه، .. وقدَّر الله طُوله وطوْله بقوله ﴿ .. الذي باركنا حوله .. ﴾ "[٦] .من هنا تشير الأدبيات العربية إلى دور العوامل الروحية الرمزية في تعزيز اتجاه صلاح الدين الأيوبي صوب القدس. ويشار في هذا الصدد إلى أن صلاح الدين تلقى من أسير مسلم شاب في القدس أبياتاً يقول فيها بلسان القدس:

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامة ... تسعى من بيت المقدس
كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي منجس [٧]

عسكر صلاح الدين وسط هذه التعبئة الروحية أمام المدينة المقدسة في ٢٠ أيلول/سبتمبر ١١٨٧م، وشرع في مهاجمة

(6) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبيح، القاهرة، دون تاريخ، ص ١٢٢-,١٢٣

(7) الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص ٢٨٢-,٢٨٣

أسوارها. كان في القدس يومئذ ستون ألف مقاتل صليبي على رأسهم باليان بارزان والبطريرك الأعظم. وحين استطاع صلاح الدين نقب سور القدس أذعنت المدينة وطلبت الرحمة منه. وعلى عكس ما فعل الصليبيون تماماً حين استولوا على المدينة المقدسة فإن صلاح الدين أراد لفتحه أن يحافظ على المدينة كمدينة سلام بالاسم وبالفعل. وإذا كان الصليبيون قد هددوا صلاح الدين بتدمير كل شيء في القدس بما في ذلك المقدسات الإسلامية وقتل الأسرى المسلمين لديهم، فإن صلاح الدين لم يدر في خاطره أن ينتقم لمذبحة القدس سنة ١٠٩٩م، وهو ما اتضح في سلوكه بعد فتح القدس، رغم أنه لم ينسَ هذه المذبحة قط، لذلك رضي أن يخرج السكان بمتاعهم وأموالهم على أن يفتدي كل إفرنجي نفسه بعشرة دنانير للرجل، وخمسة للمرأة، ودينار واحد للطفل(٨).

ومنح صلاح الدين الأمان لبعض نساء ملوك الروم اللواتي ترهبن، وسمح للصليبيين بالخروج مع خدمهم وعبيدهم وكل أموالهم، كما أذن لزوجة الملك ابنة ملك أماری المقيمة في القدس أن تلتحق بمن معها بزوجها في نابلس، واشترط على زوجة الأمير أرناط - صاحب الكرك- الذي قتله صلاح الدين يوم حطين للإفراج عن ابنها الأسير أن يسلم الصليبيون الكرك، ولما لم تفلح في إقناعهم

(8) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ٤١٠.

بذلك أطلق صلاح الدين مالها ومن يتبعها. وخرج البطريرك الكبير ومعه من أموال البيع - منها الصخرة والأقصى وكنيسة القيامة مالا يعلمه إلا الله تعالى، على حد تعبير ابن واصل، وكان له من المال مثل ذلك. ولما تدخل بعض رجال صلاح الدين وحاولوا أن يقنعوه بمصادرة تلك الأموال بحجة " خذ ما معه لتقوي به المسلمين " قال لهم صلاح الدين " لا أغدر به "[٩]. وأعفيت الأميرة ابنة فيليب أم همفري من الوزن، وخرجت بمالها كله. واستطلق صاحب البيرة خمسمائة أرمني ذكر أنهم من بلده حضروا القدس للزيارة وطلب الغفران. وطلب مظفر الدين كلولبوري ألف أرمني ادعى أنهم من الزهاد، فسمح له السلطان بإطلاقهم وتحريرهم[١٠].

انعكست عظمة القدس في قلوب المسلمين رحمة على الصليبيين، وشفعت هذه العظمة لأعدائهم الذين ساموا المسلمين المجازر. وعلى هذا الشكل خرج بطريرك القدس محملاً بذهب الكنيسة وفضتها وذخائرها على العربات مقابل عشرة دنانير، وخرج النبلاء والفرسان وأسرهم، وخرج التجار بأمتعتهم

(9) ابن واصل ، المصدر السابق، ج٢، ص ٢١٥-٢١٦.

(10) العماد الكاتب، المصدر السابق، ص ١٢٨-١٢٩.قارن مع الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص ٢٩١-٢٩٢.

وأموالهم، مع كبار القوم، تاركين فقراء الفرنجة للأسر لأنهم لا يجدون الفداء، لكن صلاح الدين افتدى من ماله، كما افتدى أقرباؤه وقواده من أموالهم الكثير من هؤلاء الفقراء. وبقي في المدينة جانب كبير من المسيحيين الوطنيين الأرثوذكس، الذين كانوا الوسطاء ما بين الفرنجة وصلاح الدين، وجاهروا بأنهم يفضلون حكم المسلمين على حكم الفرنج الكاثوليك[١١].

فتح القدس يكتسب رؤية قدسية : الطقسية الرمزية

مثَّل فتح القدس تحقيقاً لرؤية قدسية إسلامية عليا، إذ توافق هذا الفتح في السابع عشر من رجب مع الذكرى السنوية لليلة الإسراء والمعراج. ومن الاتفاقات العجيبة حسب عبد المجير الحنبلي أن قاضي دمشق أنشد صلاح الدين الأيوبي حين فتح حلب في شهر صفر وفق التقويم الهجري الإسلامي:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر   مبشر بفتوح القدس في رجب[١٢]

ويشير ذلك إلى أن المسلمين قد تشوقوا إلى أن يكون فتح

---

(11) الباز العريني، الأيوبيون، بيروت ١٩٦٧، ص ٩٧، قارن مع شاكر، المصدر السابق، ص ٢٩٣.

(12) الحنبلي، المصدر السابق، ج١ ص ٢٩٣.

القدس في يوم ليلة الإسراء والمعراج التي أدخلت القدس نهائياً إلى قلب المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة. من هنا بينما كان المسلمون يحتفلون في كل أنحاء العالم الإسلامي بليلة الإسراء والمعراج، وتحضر القدس في صلواتهم وابتهالاتهم وطقوسهم دخلت قوات صلاح الدين المدينة المقدسة، ولعلها احترمت رمزية هذا التزامن ما بين ليلة الفتح وليلة الإسراء والمعراج، فلم يقتل- كما تقول أرمسترونغ- مسيحي واحد، وتمكن البارونات من دفع نقود الدية بسهولة، غير أن الفقراء لم يتمكنوا من ذلك وأصبحوا أسرى حرب. ثم تم إطلاق سراح أعداد كبيرة منهم، وكان صلاح الدين قد ذرف الدمع وهو يرى بؤس الأسرى، كما أصاب الأسى أخاه العادل إلى درجة أنه طلب فداء ألف أسير، وأعتقهم على الفور. ولقد روَّعت المسلمين رؤية الأغنياء الصليبيين وهم يفرون بثرواتهم دون فداء مواطنيهم الفرنجة. لقد حاول صلاح الدين أن يستعيد في فتحه للقدس مسلك فاتحها الأول الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب. ولم يستطع المسيحيون في الغرب الذين باغتتهم رحمة المسلمين إلا أن يفسروا أن صلاح الدين الأيوبي قد سلك مسلكاً يتوافق مع المبادىء المسيحية بخلاف محاربيهم الصليبيين لدى فتحهم القدس[١٣]. وخلاف ما فعله الصليبيون

(13) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٤٨٢.

القساة، رفض صلاح الدين الأيوبي أن يستجيب لنصيحة بعض رجاله ومنهم كاتبه العماد الأصفهاني بأن "هذه أموال وافرة، وأحوال ظاهرة، تبلغ مائتي ألف دينار، والأمان على أموالهم، وليس على أموال الكنائس والأديار (الأديرة) فلا تتركها في أيدي هؤلاء الفجار. فأجاب صلاح الدين: إذا تأوّلنا عليهم نسبونا إلى الغدر، وهم جاهلون بسر الأمر، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان (المسلمين) بنكث الأيمان، بل يتحدثون بما أفضناه من الإحسان "(١٤).

لقد عم الفرح جميع أصقاع العالم الإسلامي يوم الفتح، فيقول عبد المجير الحنبلي" وقد ظهر السرور على أهل الإسلام بنصرتهم على عدوهم المخذول، وزينت بلاد الإسلام لفتح بيت المقدس، وتسامع الناس بهذا النصر، والفتح، فوفدوا للزيارات من سائر البلاد"(١٥). ويذكر ابو شامة أنه " كان فتحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الخرق (الصوفية) والُحرق، وذلك أن الناس لما بلغهم ما مَنَّ الله به على يده (يد صلاح الدين) من فتوح، شاع (خبر) قصده للقدس، فقصد العلماء من مصر والشام، بحيث لم يتخلف معروف (صاحب شأن) عن الحضور،

(14) العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص ر١٣٥

(15) الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ر٢٩٢

وارتفعت الأصوات بالضجيج والتهليل والدعاء والتكبير"[١٦].
ورفعت رايات الخلافة العباسية على شرفات القدس، وجلس صلاح الدين الأيوبي يتلقى التهاني، وحوله الأمراء والأكابر والمتصوفة والعلماء والقراء جلوس، يقرؤون (القرآن) ويرتلون، والشعراء ينشدون، والأعلام ترفرف فوق الرؤوس. كما يقول العماد الأصفهاني: والقلوب للفرح بالنصر تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع، والكاتب ينشيء .. والبليغ يسهب (١١٧) والآخرون يبكون فرحاً وهم شبه عاجزين عن الكلام.

كان طبيعياً أن يتمثل أول عمل للمسلمين يوم الفتح في إزالة الآثار التي أدخلها الصليبيون على الأماكن الإسلامية المقدسة. فأمر صلاح الدين بكشف الصخرة، وتطهير المسجد الأقصى والحرم مما علق بهما من آثار الصليبيين. وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير من ذهب، فتسلق جماعة من المسلمين يوم الجمعة، أي يوم الفتح، إلى أعلى القبة ليقتلعوا الصليب، والمسلمون ينظرون إليهم بابتهال. فلما قلعوه وسقط، صاح المسلمون كلهم بصوت واحد من البلد ومن ظاهره، وهم يكبرون " فسمع الناس صيحة عظيمة كادت الأرض تميد بهم لعظمها

(16) أبو شامة المقدسي، المصدر السابق، ص ١٥٦،

إمـامـاً حـسـن القـراءة، ووقف عليـهـا داراً وأرضـاً، وحـمـل إليـهـا المصاحف[١٩]. ويعود سـبب تغطيـة الصـخـرة بالفـرش حـسـب ابن الأثيـر إلى " أن القـسـيـسين باعـوا كـثيـراً منهـا للإفـرنج الزائرين من داخل البحر، فكنوا يشترون بوزنه ذهباً رجاء بركتها، فخاف بعض ملوكهـم أن تفنى، فأمر بها ففرش فوقها حفظاً لها. فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة (أجزاء المصحف)، ورتب القراء ودرَّ عليهم الوظائف الكثيرة، وأمر صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري أن يعمل حول الصخرة شبابيك جديدة"[٢٠]. وكان المسجد الأقصى ولا سيما محرابه مشغولاً بالخنازير ومغموراً بالنجاسات والأبنية المحدثة التي بناها فرسان الداوية، ومنها بناؤهم جداراً في وجه المحراب، فأمر صلاح الدين بإزالة كل ذلك وتنظيفه،" وبسط صحن الجامع بالبسط النفيسة بدل الحصر والبواري، وتعليق القناديل، وأقام شعائر الدين"[٢١]،

(17) العماد الكاتب، المصدر السابق، ص ر١٣٠

(18) ابن واصل، المصدر السابق، ج٢، ص ر٢١٧

(19) الحنبلي، المصدر السابق، ص ر٣٠١

(20) شراب، المصدر السابق، ص ر٤٢١

ولعل البعد الرمزي لملحمة استعادة القدس يجد استكماله في أمر صلاح الدين بنقل منبر المسجد الأقصى الذي أمر نور الدين زنكي بصنعه تمهيداً لنقله إلى القدس، " فأرسل السلطان صلاح الدين من أحضر هذا المنبر وجعله في المسجد الأقصى "(٢٢) الذي أحرقه الإسرائيليون بعد احتلالهم القدس في عام ١٩٦٧م.

لقد تنافس الملوك والأمراء الأيوبيون في خدمة الأماكن المقدسة بأنفسهم" فتولى الملك المظفر تقي الدين كنس الساحات في قبة الصخرة، ثم غسلها بالماء مراراً حتى تطهرت، تم تبع غسلها بالماء، غسلها ثانية بماء الورد صباً حتى تعطرت، ولذا طهر حيطانها، وغَسل جدرانها، ثم أتي بمجامير الطيب فتضوعت وتبخرت، ورتب السلطان بمحراب داوود عليه السلام إماماً، ومؤذنين وقواماً (يقومون على الخدمة) وأمر بعمارة جميع المساجد، والمشاهد والضرائح، وعيَّن كنيسة القديسة حنة عند باب أسباط مدرسة للشافعية، وجعل دار البطريرك رباطاً للصوفية، ووقف عليها وقوفاً (أي أوقافاً)(٢٣). وبعد أن تمت إزالة الحوائط والتشويهات الكثيرة التي ألحقها الإفرنج بالمسجد الأقصى لطمس معالمه الإسلامية،

---

(21) ابن واصل، المصدر السابق، ج٢، ص ٢١٧.

(22) الحنبلي، المصدر السابق، ص ٣٠١.

(23) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ١٥٧.

وإزالة التماثيل والصور والجدار الذي يخفي محراب المسجد، أمر صلاح الدين بترخيم المحراب ونقش حول عقده بالفسيفساء المذهبة النص التالي: " بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بتجديد هذا المحراب المقدس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس، عبدالله وليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، عندما فتحه الله على يديه في سنة ٥٨٣هـ. وهو يسأل الله إذاعة شكل هذه النعمة، وإجزال حظه من المغفرة والرحمة"(٢٤) . وعلى غرار ما فعله المسلمون حين الفتح العمري الأول، وما فعله الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، في نوع يؤكد استمرارية الطقسية الرمزية الإسلامية المقدسة، فإن صلاح الدين شرع في " بناء سور القدس وعمارة أبراجه، وحفر خنادقه، وأرسل إلى البلاد الرجال للمساعدة في هذا البناء، وشارك الأمراء فيه" " وعمل السلطان بنفسه، ينقل الحجارة هو وأولاده، وأمراؤه وأجناده، ومعهم القضاة والعلماء والولاة والأمراء، وقسم بناء سور البلد على أولاده، وإخوته، وأجناده، فشرعوا في إنشاء سور جديد، فكان يركب كل يوم، وينقل الصخر على قربوس سرجه، فيعمل الأكابر والأمراء في نقل الحجارة ببهجة. ولو رايته وهو يحمل حجراً في حِجْره، لعرفت أن له قلباً، كم حمل جبلاً في

(24) السيوطي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ,١٨٥

فكره"(٢٥). وأنشأ صلاح الدين قرب كنيسة القيامة البيمارستان (المشفى)، ووفر كل ما يحتاجه من أدوية وأطباء ونفقات دائمة من الأوقاف، " وقد عظم الاهتمام بهذا البيمارستان في العصر المملوكي، فبات يتولى فضلاً عن علاج المرضى، وتأمين الدواء، التدريس، وتدريب الأطباء وتخريجهم، وتألف المشفى من أربعة أقسام، قسم للجراحة، وقسم للحميات، وثالث للرمد، وأمراض العيون، ورابع للنساء"(٢٦). وفي يوم الجمعة التالي لجمعة الفتح حضر المسلمون إلى الحرم، وتشاركوا في إزالة الآثار الصليبية عنه إذ يشير ابن واصل إلى أنه حين تسامع الناس بأخبار الفتح فإنهم توافوا " من كل صقع، وجاؤوا من كل فج، ليفوزوا بالزيارة، ويحظوا بالمشاهدة للفتح، فاجتمع من أهل الإسلام، عدد عظيم لا يقع عليها الإحصاء، فلما أذن الظهر من يوم الجمعة المباركة، حضر السلطان بقبة الصخرة المقدسة وهو في غاية السرور والفرح، إذ جعله الله بهذا الفتح ثانياً لعمر بن الخطاب، وميزه بهذه المنقبة دون سائر الملوك من ملوك الإسلام. وامتلأت عراص (ساحات) المسجد وصحونه بالخلائق،واستعبرت العيون من شدة الفرح،

(25) شهاد الدين المقدسي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ر١٥٦

(26) سهيل زكار، فلسطين في عهد المماليك، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، القسم الثاني، المصدر السابق، ص ر٥٩٠

وخشعت الأصوات، ووجلت القلوب"[٢٧].

لا ريب أن ذلك يذكر بمشهد الصليبيين وهم يلمحون لأول مرة المدينة المقدسة. كلاهما أحس بالانفعال الهائل بالقداسة تجاه المكان الذي يفضي إلى السماء، لكنهما اختلفا في طريقة التعامل مع الآخر، الصليبيون اتبعوا سياسة إقصاء الآخر الإسلامي ونفيه في حين اتبع المسلمون سياسة التسامح والرحمة. وفي تلك اللحظة المبهرة التي اندمجت فيها مشاعر المسلمين مع القدس، كان طبيعياً أن يتسابق العلماء للفوز بشرف الخطابة بالمسجد الأقصى، من هنا اقترح صلاح الدين الأيوبي على القاضي محي الدين بن زكي أن يقوم بهذا الأمر الجلل، فرقى المنبر بالبردة العباسية السوداء، وبدأ خطبته التي ستوردها معظم الكتب العربية - الإسلامية، وما يهمنا منها هو ما يتصل بمكانة القدس في الضمير الإسلامي، وموقع حرمتها في الجغرافية الإسلامية المقدسة " أيها الناس: أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى.. لما يسره الله على أيديكم لاسترداد هذه الضالة، من الأمة الضالة، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يُرفع ويُذكر فيه

---

(27) ابن واصل، المصدر السابق، ج٢، ص ٢١٨.

اسمه، وإحاطة الشرك من طرفه.. وهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام. وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقر الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل تنزيل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله (ﷺ) بالأنبياء والمرسلين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي كرمه الله برسالته، وشرفه بنبوته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته.. وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين، لا تُشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا يُعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، فلولا أنكم (يقصد صلاح الدين) ممن اختاره الله بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مُجار، ولا يُباريكم في شرفها مبار....

أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه؟ ونص عليه في مُحكم خطابه؟ فقال تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ (الإسراء: ١). أليس هو البيت الذي عظمته الملل؟ وأتت عليه الرسل؟ وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله

عز وجل لأجله الشمس على يوشع أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب؟ أليس هو البيت الذي أمر الله عز وجل موسى أن يأمر قومه باستنقاذه، فلم يجبه منه إلا رجلان، وغضب عليهم لأجله، والقاهر في القبة، عقوبة العصيان"(٢٨).

إعادة بناء القدس الإسلامية :
كمدينة سلام للديانات الثلاث

كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد، وإلى سائر الملوك المسلمين في الأطراف، عن هذا الفتح، ومن جملة ما كتبه إلى الخليفة قول يصف فيه دخول المسلمين بيت المقدس، وهو وصف يتعدى بشكل تام المجريات العسكرية إلى الوصف الرمزي المقدس، وقد جاء في هذا القول: "وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها - وإن كانت صخرة - كما يشفي الماء غللهم. وأوعز الخادم (يقصد صلاح الدين بذلك نفسه تعبيراً عن التواضع إزاء الهيبة المقدسة للمكان) بردّ الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورد، وأقيمت الخطبة في يوم الجمعة. ورفعت إلى الله كلمة

---

(28) المصدر نفسه، ص ٢٢١-٢٢٢, قارن مع شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص١٦٣-١٦٥,

التوحيد، وكانت طريقها مسدودة، وطهر قبور الأنبياء، وكانت بالنجاسات مكدودة"(٢٩). ولقد أقام صلاح الدين الأيوبي في القدس بعد الفتح ما يقرب الشهر، ثم عاد إليها بعد خمسة أشهر في يوم ممطر، وصلى الجمعة في مسجد الصخرة، وأمر جماعة مختصة من الموصل بحفر الخندق المحيط بسور القدس، حيث دام عمل هذه الجماعة نصف سنة، ويقول عبدالمجير الحنبلي عن ذلك " وأمر السلطان بحفر خندق عميق، وأنشأ سوراً، وجدد أبراجاً حربية من باب العمود إلى باب المحراب، المعروف بباب الخليل (زمن الحنبلي)، وأنفق عليها أموالاً جزيلة، وبناها بالأحجار الكبار. وكان الحجر يقطع من الخندق، ويستعمل في بناء السور، وقسم بناء السور على أولاده، وأخيه العادل وأمرائه. وصار يركب كل يوم يحضر على بنائه. وكان يحمل الحجر على قربوس سرجه، ويخرج الناس لمرافقته على حمل الحجر إلى موضع البناء.. ويتولى ذلك بنفسه، وبجماعة خواصه والأمراء. ويجمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية والأولياء وحواشي العساكر والأتباع وعوام الناس. فبنى في أقرب مدة ما يتعذر بناؤه في سنين .. وجدَّ في عمارة الصخرة المقدسة وأكمل السور والخندق، وصار في غاية الإتقان.. وعيَّن السلطان ثلث نابلس وأعمالها لمصالح بيت

(29) المصدر نفسه، ص ٢٣٩،

المقدس"[٣٠]. ومن هنا حرص صلاح الدين في سياق استعادة الهوية الإسلامية للقدس على تشييد بعض الآثار مثل " قبة يوسف" القائمة على الطرف الجنوبي من فناء الصخرة، وجامع الجبل الكائن على جبل الطور إلى الشرق من المدينة، ومقبرة الساهرة، وكانت في عهده تدعى مقبرة المجاهدين. والمدرسة " الصلاحية" على بعد أمتار من السوق الشرقي، عند باب الأسباط، وقفها لفقراء الشافعية، ورباط للمتصوفة[٣١]. واهتم صلاح الدين بتعزيز البنية الديموغرافية العربية في القدس، فأتى بمجموعات من القبائل العربية، وأسكنها في الأحياء التي تركها الصليبيون" فأنزل بني حارث خارج المدينة عند القلعة، وبني مرة من جهة الغرب الشمالي إلى سوق الفخر (خان الزيت)، وأعطى بني سعد حارة السعدية، وكانت لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه بأيديهم. وفي شمال عقبة الشيوخ أنزل بني زيد، وأنزل الجرامنة في حارتهم بسوق القطانين"[٣٢].

لم يؤد تثبيت الهوية الإسلامية في القدس إلى " أسلمة" الأماكن المقدسة المسيحية واليهودية، ولعل إنسانية صلاح الدين

---

(30) الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص ٣٣٩-٣٤٠.

(31) العارف، المصدر السابق، ص ٨٠-٨١.

(32) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ٤٥.

العظمى تجاه أعدائه الصلبيين قد اكتملت هنا على مستوى الموقف من تلك الأماكن، في عدم تأييد رغبة بعض رجاله المشحونين بالمرارة من الصليبيين بهدم كنيسة القيامة رمز الوجود المسيحي في القدس، وأيد الرأي الآخر في الحفاظ على الكنيسة مذكراً " عندما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الإسلام، أقرهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم بنيانه"[٣٣]. بل مضى صلاح الدين الأيوبي إلى أقصى حدود التسامح في احترام قداسة المدينة عند المسيحيين بمن فيهم أعداؤه الصليبيون فسمح للمسيحيين الفرنجة بزيارة بيت المقدس مقابل " قطيعة" يؤدونها، وطبق القانون الإسلامي على المسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة ببقائهم في القدس بشرط الجزية، مع إعفاء الفقراء وغير القادرين. ولقد استفاد رجال الدين الأرثوذكس من غياب سلطة الفرنجة كي يستعيدوا إشرافهم على الأماكن المسيحية[٣٤]، إذ شملهم تسامح صلاح الدين الذي أنهى عهد التضييق على سكن اليهود للقدس، وفتح أبوابها أمام من يرغب بالسكن فيها منهم، وقد تحدث الشاعر والأديب اليهودي الإسباني (يهود الحرزي) الذي زار القدس في سنة ١٢١٦-١٢١٧م قائلاً " لو تساءلنا عن سبب منع

(33) الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٣.

(34) عاشور، المصدر السابق، ج٢، ص ٨٢٧.

الصليبيين لليهود من البقاء في فلسطين، سمعناهم يقولون أننا المتسببون في قتل إلههم، ولذلك نذروا بأن يأكلونا أحياء لو تمكنوا منا. لكن الله أرسل الملك العادل صلاح الدين، وزوده بالحكمة والشجاعة فسار بجيش مصر، وحاصر القدس، وأسقط المدينة في يده. وحينئذ ارسل السلطان منادياً ينادي في أرجاء البلاد بأن باستطاعة كل سلالة إبراهيم العودة إلى القدس من العراق ومصر ومن كل البلاد التي لجؤوا إليها "(٣٥). غير أن تسامح صلاح الدين الأيوبي، وحرصه على أن تكون القدس مدينة مفتوحة حتى أمام الصليبيين قد أدى إلى تجميع القوى الصليبية الأساسية في صور وتحويلها إلى قاعدة حصينة. ومن هنا يلقي ابن الأثير باللائمة على صلاح الدين لإفراطه في التسامح مع خصومه، فالملك وفق ابن الأثير " لا ينبغي أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار .فلئن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مُفرطاً مضيعاً للحزم"، لا سيما وأن صلاح الدين الذي كانت رؤيته الإنسانية أعمق بكثير من رؤى المحاربين المحترفين قد اختار هدنة مؤقتة مع الصليبيين الذي سارعوا بإرسال الحملة الصليبية الثانية بقيادة فريدريك بربروسا، والتي فشلت بموته، ثم وصول ريتشاد قلب

(35) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ,٤٩٨

الأسد الذي فشل في استرجاع القدس. وإبان المفاوضات ما بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد قال له الأخير " القدس متعبدنا فانزل عنه" فأجابه صلاح الدين " القدس لنا كما لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا، ومحشر أمتنا، فلا تتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر التلفظ بذلك بين المسلمين"(٣٦).

لقد تحكَّم بعقد الهدنة ما بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد في أيلول/ سبتمبر ١١٩٢م، رغبة قلب الأسد بالعودة السريعة إلى بلاده ورغبة صلاح الدين بترتيب البيت الداخلي، وإعطاء فرصة لجنوده بالراحة. إلا أن ريتشارد قلب الأسد خشي بعد عقد الهدنة أن تغضب كثرة عدد الحجاج الصليبيين إلى بيت المقدس صلاح الدين، فطلب من صلاح الدين منع الحجاج إلا إذا أخذوا إذناً أو علامة أو كتابةً منه، إلا أن صلاح الدين رفض ذلك، ورد عليه بالرؤية الإسلامية العميقة للقدس كمدينة مفتوحة للديانات الإبراهيمية التوحيدية بأن أولئك الحجاج " قد وصلوا من ذلك البعد لزيارة المكان الشريف، فلا أستحل منعهم " بل إن صلاح الدين بالغ في إكرام الحجاج الصليبيين" وشرع في مد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم"(٣٧). وحين توفي صلاح

---

(36) عاشور، المصدر السابق، ج٢، ص ٨٨١.

الدين الأيوبي في آذار / مارس ١١٩٣م، كان قد رسخ الحيوية الثقافية والتعليمية والعمرانية الإسلامية في القدس، التي تحولت إلى مركز حيوي إسلامي لتخريج نخب الدولة الصلاحية (الأيوبية)، واستقطاب العلماء الذين " يعمرونها بعلوم القراءات للقرآن والحديث والفقه وعلوم النحو واللغة،وعلوم الدين الأخرى وبالمناظرات والحلقات كما صور ذلك ابن شداد" (٣٨). ويصور العماد الأصفهاني الحركة الفكرية في القدس يومئذ في رسالته إلى الخليفة العباسي " فما ترى إلا قارئاً باللسان الفصيح، وراوياً للكتاب الصحيح، ومتكلماً في مسألة، أو متفحصاً في مشكلة، أو مورداً لحديث نبوي، وذاكراً لحكم مذهبي، وسائلاً عن لفظ لغوي، ومعنى نحوي، أو مقرضاً بقريض، أو ناشداً لنشيد"(٣٩).

(37) المصدر نفسه، ص ر ٩٠٠

(38) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة ١٩٦٢، ص ر٨٢٧ قارن مع شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ر٤٩٤

(39) العماد الاصفهاني، المصدر السابق، ص ر١٥٩

جاذبية القدس الروحية للمسلمين :
المغاربة نموذجاً

إثر وفاة صلاح الدين الأيوبي انقسمت مملكته في مصر وبلاد الشام إلى عدة سلطنات أو مملكات. وقد تبعت القدس هنا في إطار هذا الانقسام إلى ابنه الملك الأفضل الذي تولى الشام وفلسطين. وقد جعل الملك الأفضل من القدس مكاناً يقيم فيه ويستقبل ضيوفه، وأنشأ فيها المدرسة الأفضلية في حارة المغاربة، ومن آثاره المسجد العمري جنوب ساحة كنيسة القيامة، وأوقف الحارة التي بجوار سور المسجد الأقصى من جهة الغرب إلى المغاربة، وذلك في عام ١١٩٣م(٤٠) لتوفير المساعدة، وتقديم الخدمات اللازمة للحجاج والمجاورين المغاربة. فقد جذبت القدس أعداداً غفيرة من المسلمين. ويمثل المغاربة حالة نموذجية لهم، إذ اعتاد المغاربة أن يجاوروا المسجد، من هنا أوقف الأفضل مدرسة " الأفضلية" لتقديم الخدمات التعليمية لهم " ليسكنوا في مساكنها، وينتفعوا بمنافعها" ولدراسة تعاليم المدرسة المالكية المنتشرة في المغرب العربي(٤١). لقد أولى المسلمون عموماً الحرم

(40) العارف، المصدر السابق، ص ,٨٢ قارن مع الحنبلي، المصدر السابق، ج١،ص,٣٩٧

(41) عبد الهادي النازي، أوقاف المغاربة في القدس، "القدس تاريخياً وفكرياً" ، (كتاب جماعي)، الرباط ١٤٠١هـ، ص ,١٠٤

القدسي مكانة كبيرة، إلا أن المغاربة تميزوا بتقاطرهم المستمر إليها، إذ كان المسلم المغربي مثل كثير من المسلمين يرى أن حجه إلى مكة لا يكتمل إلا بزيارة القدس. كما أن " حرب الاسترداد" المسيحية في الأندلس قد دفعت مع عوامل أخرى عدداً كبيراً من الأندلسيين (المغاربة) إلى الهجرة، واستقر هؤلاء المهاجرون في القدس، وكان بعضهم من العلماء أو من ذوي الخبرة الإدارية. وبالنظر لتزايد أعداد هؤلاء المهاجرين، وكونهم من أتباع المذهب المالكي، فإنه وجدت الحاجة لاستحداث منصب قاضي المالكية في القدس[٤٢]. ولقد اعتاد المغاربة أن يجاوروا بيت المقدس قرب الزاوية الجنوبية الغربية لحائط الحرم، وفي أقرب مكان للمسجد الأقصى. وقد وقعت حارة المغاربة تبعاً لذلك بين سور المدينة في الجنوب وحائط الحرم الشريف في الشرق، وطريق باب السلسلة المؤدي إلى الحرم الشريف في طريق باب السلسلة في الشمال، وحارة الشرف حيث يسكن الحكام والقضاة والوجهاء في الغرب[٤٣]. ولعل وقف المغاربة لحارة المغاربة من أول الأمثلة التي سجلت عن هبة الوقف في القدس، والتي يقوم بمقتضاها الواهب بالتنازل عن حقوقه في ممتلكات تعطي دخلاً. كان الوقف فعل

---

(42) زكار، المصدر السابق، ص ٥٨٨-٥٨٩,

(43) النازي، المصدر السابق، ص ١٠٤,

خير إلا أنه ذو وظيفة عملية، تمثل طريقة المجتمع الأهلي الإسلامي في تقديم الخدمات العلمية والخيرية والصحية[٤٤]. لقد كان النظام الوقفي الإسلامي شاملاً لشتى جوانب وقطاعات الحياة المدنية الاجتماعية، وقد شملت وظيفة جزء منه خدمة المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال[٤٥]، أي المسجد الحرام (مكة) والمسجد النبوي (المدينة) والمسجد الأقصى (القدس). وقد توسع صلاح الدين الأيوبي بنظام الوقف في القدس، وأسس بنية تعاونية أهلية شاملة تمكن المجتمع من تسيير نفسه ذاتياً، وشمل الوقف لديه هنا عقارات وحواكير وقرى وحمامات ودكاكين وأسواق وخانات وبساتين ومزارع[٤٦]. وقد خصص صلاح الدين الكثير من الوقفيات لتمويل الإنفاق على "البيمارستان"، وتساوي هذه الوقفيات ما يقارب الخمسة وعشرين عقاراً[٤٧]. وعندما اتسع وجود "المغاربة" المتعبدين في القدس، أوقف لهم باسم صاحب الوقف ممثل المغاربة الشيخ أبو مدين المالكي، حيث أوقف له قريتين للإشراف عليهما هما قرية عين كارم المقدسية وقنطرة"

---

(44) محمد أبشرلي ومحمد داوود التيميم (محققان)، أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، إستانبول ١٩٨٢، ص هـ/و (المدخل).

(45) المصدر نفسه، ص "ق".

(46) المصدر نفسه، ص ٣١-،٣٢

(47) المصدر نفسه، ص ،٤٥

ساباط" أم البنات بباب السلسلة داخل المدينة نفسها. ومن المهم أن نعرف أن الحد الشرقي لوقف أبي مدين يعرف عند المسلمين بحائط البراق، لأن البراق حسب الاعتقاد الإسلامي هو الذي حمل النبي من البيت الحرام (مكة) إلى المسجد الأقصى (القدس)، ويحتل جزء من هذا الحائط مكانة قدسية عند اليهود الذين يعتقدون أن المداميك الستة السفلى منه هي بقية سور الهيكل الذي دمره الرومان سنة ٧٠م[٤٨]. وما يجب معرفته هنا أن السلطات الإسرائيلية قد دمرت بعد عام ١٩٦٧ هذه الوقفيات المغربية وهي: حارة المغاربة، ووقف الشيخ أبو مدين اللذان يعود عمرهما وأداؤهما لوظائفهما إلى أكثر من ثمانمائة عام. ولقد كان الفعل الإسرائيلي كارثياً وهمجياً، إذ سويت الوقفيات بالأرض، بهدف تهويد المنطقة المحيطة بالمسجد الأقصى، لاسيما منها المحيطة بحائط البراق.

(48) النازي، المصدر السابق، ص ١٠٥–١٠٦.

القدس تواجه الخطر الصليبي مرة أخرى :
الملك المعظم وترقب المأساة

كانت القدس الأيوبية مدينة سلام مفتوحة حتى للحجاج الصليبيين، ولقد جعلتها الرؤية الإسلامية مدينة سلام تمور بالحيوية، وتوالى الأمراء الأيوبيون يتبارون في خدمتها وتعميرها بالزوايا والرُبط والمساجد، ويطلبون تبركاً أن يدفنوا فيها. ومن هنا أتى غنى مقبرة الساهرة بقبور كبار العهد الأيوبي، كما أتى بناء الأمير فارس الدين ميمون وكيل خزانة صلاح الدين للمدرسة الميمونية عند باب الساهرة، وبنى الأمير عز الدين الزنجلي قبة المعراج في سنة ١٢٠١م على ثلاثين عموداً من الرخام، وبنى الأمير حسام الدين الجراحي الزاوية الجراحية، ودفن فيها في سنة ١٢٠٢م بناء على وصيته، كما جدد باب الحرم " باب السلسلة والباب المغلق"[٤٩]. وقد قام الملك العادل شقيق صلاح الدين حين أصبح سلطاناً (بعد وفاة ابن أخيه العزيز عام ١١٩٨م) فأناب ابنه احمد الكامل على مصر، والأشرف موسى على حوران، وكانت دمشق والقدس من نصيب ابنه الملك المعظم. وترك الملك العادل في القدس آثاراً هامة منها سقابة الحرم في عام ١٢٠٢م، والمدرسة

(49) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ٤٩٤

الجارحية(٥٠). وبحكم اهتمام الملك المعظم بحرمة القدس، فإنه بذل اهتماماً مركزاً بخدمتها، وببناء بعض المنشآت الهامة فيها، وكان كما يقول عنه عبد المجير الحنبلي عالماً فاضلاً، أنشأ بحكم تبنيه الفقهي للمذهب الحنفي المدرسة " المعظمية" التي غدت من أكبر مدارس القدس بعد المدرسة الصلاحية، وكانت تقع قرب باب المسجد الأقصى المعروف بباب الدويدارية، كما بنى عليآخر صحن الصخرة من جهة القبلة مكاناً يسمى "النحوية" خصصه لعلوم اللغة العربية، وجددت في أيامه عمارة القناطر على درج الصخرة القبلية، عند باب الطومار، وعملت في أيامه غالب الأبواب الخشبية المركبة على أبواب المسجد، واسمه منقوش عليها، وعمر مسجد الخليل، ووقف عليه قريتين، وجدد المعظم باب الناظر، ومدفن الشيخ درباس الهكاري الذي كان من قادة صلاح الدين في عام ١٢٠٤م(٥١). والحق أن اهتمام المعظم الأيوبي بعمارة القدس هو جزء من تحضر الملوك الأيوبيين العمراني عموماً، إلا أن تعمير القدس هنا اصطبغ بقيم إضافية، لموقعها في المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة.

(50) العارف، المصدر السابق، ص ٨٣.

(51) الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص ٣٥٥.

تعرضت القدس الأيوبية وهي في درجة من أعلى درجات الحيوية والعمار إلى الخطر الصليبي مجدداً. ولقد أظهر الملك المعظم بسالة فائقة في مقاومة الحملة الصليبية الرابعة، فقاد جيشه واشتبك مع قواد فرسان الداوية قرب عكا. وقد اشترك المؤرخ سبط الجوزي في تلك المعركة، وأفاض في وصف حماسة أهل الشام ورغبتهم في الجهاد، ووصف كيف أن المعظم قد تأثر بالغ التأثر، بعد أن شاهد نساء المسلمين يقطعن شعورهن ويجدلنها حبالاً للمجاهدين، فأخذ المعظم هذه الشعور وهو جالس بجامع نابلس" وجعلها على وجهه وهو يبكي فكان يوماً عظيماً"(٥٢). وعلى الرغم من أن الملك المعظم قد حقق انتصارات هامة على الصليبيين، فإنه كان وهو الذي أراد للقدس أن تكون مدينة سلام وعمار وازدهار تتناسب مع قدسيتها وحرمتها، متخوفاً من نتائج الحملة الصليبية الخامسة على مصر. من هنا أسرع لغايات استراتيجية عسكرية في سنة ١٢١٩م بتدمير عدة حصون في فلسطين خشية سيطرة الصليبيين عليها واستحكامهم بها، وفكر بهدم حصون مدينة القدس، بعد أن سيطرت عليه فكرة احتمال استيلاء الصليبيين عليها مجدداً، وأن يكرروا فيها مذبحة ١٠٩٢م، وكان تفكيره بهدمها مدفوعاً بحرمانهم من التحصن بها والبقاء خلفها. وإثر

(52) عاشور، المصدر السابق، ج٢، ص ر٥٩١

استيلاء الصليبيين على دمياط وورود أنباء تقدم المغول في الشرق الإسلامي، شرع المعظم بهدم أبراج القدس وأسوارها في آذار /مارس ١٢١٩م[٥٣]، وكانت تلك الخطوة يائسة عنيفة من هذا الملك المحب للقدس ولعمارتها، ولم يستطع أمراء القدس أن يقنعوه بالعدول عن ذلك، بل أصر على أن يتم الهدم تحت إشرافه، فساد الهلع واليأس والغضب في المدينة المقدسة. ويصف لنا أبو شامة رد فعل أهل القدس، الذين لم يصدقوا حتى اللحظة الأخيرة أن المعظم سوف ينفذ خططه. واندفعت المشاعر المقدسة هائجة حين أبصر أهل القدس بعيونهم الأسوار وقد شرع بهدمها، وتوجهوا بكل كيانهم إلى الصخرة والمسجد الأقصى، وكأنهما الملجأ الأخير لأحزانهم وشكواهم " فوقع البلد في ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ والعجائز والشبان والصبيان إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم، ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت بهم الطرق، فبعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق"[٥٤]. غير أن سير المواجهة مع الصليبيين أدى إلى أن تنهزم الحملة الصليبية الخامسة في دمياط، وأن ينحسر الخطر مؤقتاً عن القدس، التي غدت غير آمنة بعد هدم

(53) المصدر نفسه، ص ٩٧٠.

(54) المصدر نفسه، الصفحة نفسها. قارن مع الحنبلي، المصدر السابق، ج١، ص٣٥٥.

أسوارها. فمات المعظم الذي أحب القدس وعمرها واعتنى بها وهدم أسوارها نتيجة تقديرات خاطئة وغيرة منه عليها وعلى أهلها، مذموماً ومهموماً في آن واحد[55]، وإذا كان التلاحم ما بين الملوك الأيوبيين الإخوة الثلاثة الكامل والمعظم والأشرف قد أفلح برد الحملة الصليبية الخامسة، إلا أن هذا التحالف سرعان ما تقوض بنشوب الصراعات التقليدية. وسرعان ما مات المعظم في سنة ١٢٢٨م" مذموماً مهموماً" فعاد الوئام ما بين الكامل والأشرف اللذين تقاسما تركة أخيهما، فآلت القدس إلى الملك الكامل.

التفريط بالقدس :
العالم الإسلامي في لحظة حداد وغضب

تزامنت فترة الملك الكامل في القدس التي هدم المعظم أسوارها مع الحملة الصليبية السادسة التي قادها الامبراطور فريدريك الثاني في سنة ١٢٢٨م بهدف استعادة السيطرة الصليبية على القدس. وترافق ذلك مع استمرار التقدم المغولي في الجبهة الإسلامية الشرقية. كان لكل من الكامل والامبراطور مشاكله وتعقيداته. فكان الملك الكامل يواجه الرأي العام الإسلامي الذي يرفض

(55) العارف، المصدر السابق، ص ٨٤–٨٥,

التفريط بالقدس، كما يجد تشجيعاً من البابا كي لا يسلم المدينة إلى خصمه الامبراطور بقدر ما كان يواجه احتمال اجتماع الطرفين الصليبي والمغولي. أما الامبراطور فكان يهدف من الحصول على القدس إلى تعزيز موقعه في مواجهة البابا الذي فرض عليه الحرم، واعتبره خارج الكنيسة، إلى درجة أن البابوية عملت على ألا ينجح الامبراطور في غايته، فأرسلت إلى الكامل تحرضه على عدم تسليم القدس(٥٦). إزاء ذلك كان توقيع معاهدة ما بين الكامل والامبراطور نوعاً من مخرج لكل منهما، وقد تم توقيع هذه الاتفاقية ما بينهما لمدة عشر سنوات، وتنص على:

١- أن تسلم بيت المقدس للامبراطور بشرط ألا يبني الصليبيون فيها حصناً أو قلاعاً.

٢- أن يعطى الصليبيون بيت لحم والناصرة وطريق الحج من بيت المقدس إلى يافا عند الساحل.

٣-أن يبقى في أيدي المسلمين من بيت المقدس: منطقة الحرم التي تضم المسجد الأقصى ومسجد الصخرة، على ألا يحمل المسلمون فيها سلاحاً.

---

(56) عاشور، المصدر السابق، ج٢، ص ١٠٠٨، قارن مع جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ج٢، مصر ١٩٦٧، ص ١١٥-١١٦.

٤-يتعهد فريدريك بمحالفة الكامل ضد أعدائه حتى ولو كانوا مسيحيين[٥٧].

لم يتقبل المسلمون هذه الاتفاقية التي اعتبروها تفريطاً في القدس دون حرب أو قتال، وثاروا ضد الكامل، وتصدر الواعظ والمؤرخ الشهير سبط الجوزي في دمشق حملة التشهير بالكامل وبفعلته[٥٨]. ويصف لنا المقريزي وابو الفداء وابن الأثير مدى الأسى الذي أصاب المسلمين لسماع خبر تفريط الكامل بالقدس. إذ ضج المسلمون بالصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون إلى مخيم الكامل، فأذنوا أمامه في غير وقت الآذان تعبيراً عن الجلل الذي حدث، وتردد صدى ذلك في البلاد، وقامت القيامة في أرجاء العالم الإسلامي، واشتدت العظائم بحيث أن الناس أقامت المآتم، وانتشر التشنيع على الكامل في سائر الأقطار، وعقدت مجالس الوعظ لرثاء القدس، وعظَّم الناس جهاد صلاح الدين بقدر ما سخطوا على الكامل[٥٩]. وأقيم مجلس وعظ في دمشق

---

(57) الشيال، المصدر نفسه، ص ر١١٦

(58) المصدر نفسه، ص ١١٦-ر١١٧

(59) المقريزي، السلوك في معرفة الملوك، ج١، تحقيق مصطفى زيادة، القاهرة، دون تاريخ، ص ر٢٣٠ قارن مع أبو الفداء، المصدر السابق، ج٣، ص ١٤١-ر١٤٢ ومع شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ر٤٢٢

تليت فيه الأشعار الشهيرة في القدس، وتحدث المؤرخون عن تاريخ القدس وفضائلها، وهكذا أقيمت القيامة حسب تعبير العيني في جميع بلاد العالم الإسلامي، واشتدت العظائم بحيث أقيمت المآتم في كل مكان[٦٠]. ويلخص ابن الأثير ذلك بقوله" استعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه"[٦١]. أما الكامل فحاول أن يبرر موقفه بقوله " إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر (أديرة) خراب، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، وولي أمر المسلمين متحكم في الأعمال والضياع"[٦٢]. ولم يكن حال الامبراطور مع الصليبيين بأفضل من حال الكامل مع المسلمين، فالبابا غاضب عليه، والصليبيون لم يعجبهم هذا الاتفاق لأنهم يريدون القدس دون شرط. وحين دخل الامبراطور القدس برفقة القاضي شمس الدين تحدث بالعربية التي أتقنها من المعلمين العرب في صقلية، كما وضع التاج بنفسه على رأسه لأنه لم يجد أحداً من رجال الدين يضعه له، وأبدى رغبته بسماع صوت الآذان، ومنع بإشارة منه دخول أحد رجال الدين المسيحيين المسجد الأقصى لأنه كان يحمل الإنجيل في يده[٦٣].

---

(60) عاشور، المصدر السابق، ج٢، ص ر١٠١٢

(61) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص ر٣٧٨

(62) المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ر٢٣١

(63) عاشور، المصدر السابق، ج٢،ص ر١٠١٥

أصبحت القدس منذ توقيع هذه الاتفاقية وحتى استرداد المسلمين لها نهائياً في عام ١٢٤٤م مدينة مفتوحة غير محصنة، تحت النفوذين الإسلامي والصليبي، وخشي كل من الجانبين الإقامة فيها، إذ اتخذت حكومة بيت المقدس الصليبية البعيدة عنها عكا قاعدة لها(٦٤) . وفي عام ١٣٢٩م انتهى مفعول الاتفاقية، وكان الصليبيون قد خرقوا أحد شروطها بتحصين القدس. من هنا تحجج الناصر داوود صاحب الأردن بذلك، ولا سيما بعد سماعه بنزول الحملة الفرنسية الجديدة في عكا، فتقدم إلى القدس وأخرج الفرنجة منها (٦٥) . لكن وفاة الكامل في عام ١٣٢٨م كانت إيذاناً بتمزق الدولة الأيوبية وتمزيقها، إذ أن العادل الثاني ابن الكامل الذي خلفه في حكم مصر كان صغيراً، فما كان من الابن الأكبر للكامل الملك الصالح نجم الدين أيوب إلا أن استولى على دمشق، وزحف منها إلى القاهرة في عام ١٢٤٠م واستلم السلطة فيها. لكن الصراع التقليدي ما لبث أن انفجر ما بين الملك نجم الدين أيوب وبين عمل الملك صالح إسماعيل الذي وضع يده على دمشق يعاضده الناصر داوود صاحب الأردن والقدس. وكان أخطر ما في هذا الصراع أن الصالح عماد الدين

---

(64) المصدر نفسه، ص ر١٠٢١

(65) المصدر نفسه، ص ر١٠٣٤

إسماعيل مدّ يده إلى الصليبيين في مواجهة ابن أخية نجم الدين أيوب في مصر .وكان ثمن هذا التحالف هو تسليم القدس، الذي يقدم مثلاً مأساوياً عن كيفية تضحية المصالح الضيقة للسياسة الدهرية بالمقدس لقاء الغرض الدنيوي الخسيس. ولعل المفارقة تكمن في أن هذا الذي وعد الصليبيين بتسليمهم القدس المبجلة هو نفسه تقصّد أن يكون اجتماعه مع الناصر داوود بجانب الصخرة الشريفة لعقد تحالفه معه في ظل قداستها[٦٦]. ولقد كان لتسليم عماد الدين إسماعيل والناصر داوود القدس وطبرية وعسقلان للفرنجة وقع صاعق في العالم الإسلامي " فضجت البلاد بالاستنكار والرفض، وأكثر العلماء، حتى في دمشق - قاعدة حكم إسماعيل - كالشيخ عز الدين بن عبدالسلام، وجمال الدين بن الحاجب، من التشنيع على الصالح إسماعيل، والغضب على عمله، وقطعا الدعاء له على المنبر، فلاحقهما، فهربا إلى مصر وإلى الكرك"[٦٧].

عاد الصليبيون وفق هذه الشاكلة إلى السيطرة على بيت المقدس في عام ١٢٤٣م، فأعادوا تحصينها، وكرروا سيرتهم الأولى في مسخ المقدسات الإسلامية وانتهاك حرمتها. وذكر القاضي جمال الدين " مررت إذ ذاك بالقدس متوجهاً إلى مصر، ورأيت

(66) الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص٣٦١

(67) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ٤٢٥

القسس، قد جعلوا على أعلى الصخرة قناني الخمر للقربان"[٦٨].

وقد آذى ذلك مشاعر المسلمين أشد إيذاء، وأوقع في نفوسهم المرارة واليأس من حكامهم الأيوبيين، الذين استهانوا بالمقدسات الإسلامية[٦٩]. لكن هذا التخلي الخسيس عن المدينة المقدسة كان إيذاناً بسقوطهم. ومن هنا دفع الصالح إسماعيل ثمن تفريطه بالقدس على مذبح مصالحه الدنيوية السلطوية الضيقة، ثمن ذلك. فعندما التقى جيشه الذي يسانده الصليبيون مع جيش الصالح نجم الدين أيوب الذي سانده الخوارزمية، فإن أغلبية جنوده رفضوا قتال إخوانهم، فانهزم الصالح ومعه الصليبيون. وبدا وكأن الدولة الأيوبية قد استعادت وحدتها باجتماع القاهرة ودمشق والقدس في يد الملك الصالح نجم الدين، إذ تقدم الصالح مدعوماً بالجنود الخوارزميين بعد هزيمة أخيه الخائن وحلفائه الصليبيين إلى القدس ودخلها في ١٢٤٤م[٧٠]. والحق أن المرارة من الصليبيين التي اجتثت الرحمة قد دفعت الخوارزمية في ردة فعل غاضبة ومريرة للاعتداء على الأماكن المقدسة المسيحية وتدميرها. وأتلفوا معظمها بما في ذلك كنيسة القيامة، خارجين في ذلك عن

---

(68) الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٦١–٣٦٢.

(69) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ٤٢٦.

(70) الشيال، المصدر السابق، ج٢، ص ١٢٢.

التقليد الإسلامي. غير أن بيت المقدس عاد نهائياً إلى المسلمين، ولم يقدر أي جيش مسيحي(أوروبي) أن يقترب منه حتى الحرب العالمية الأولى[٧١]. وقد أمر الصالح نجم الدين أيوب عند زيارته القدس بتحصينها، وإعادة ترميم سورها، بعد ان تم حصر الصليبيين في عكا[٧٢] التي ستصبح آخر معقل لهم إلى أن سيتم سقوطه في عام ١٢٩٢م، وسينتهي بعده أي أثر للصليبيين في بلاد الشام.

(71) عاشور، المصدر السابق، ج٢، ص ر١٠٤٥

(72) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ر٤٢٧

خاتمة

أخذ التبجيل الطقسي الإسلامي للقدس في فترة الصدام الممتدة مع الصليبيين ثلاثة أشكال أساسية هي: تزايد الإحرام من القدس إلى المسجد الحرام طلباً للحج، وتزايد التأليف في مدونات " فضائل القدس" وتداولها على نطاق واسع تكريساً لموقعها الرئيسي في الجغرافية الإسلامية المقدسة، ورداً على مسخ الصليبيين وانتهاكهم لحرمتها، وتزايد عدد حلقات التصوف حول الحرم القدسي التي مثلت ذروة الرؤيا الرمزية الإسلامية في الالتحام بالقدس بوصفها بوابة السماء. إن استعادة القدس بعد فترة طويلة من احتلال الصليبين لها، ثم الخطر الصليبي الدائم عليها، قد أعطيا لتعلق المسلمين بالقدس حرارة وقوة ولهباً روحياً، فتضاعف فيها عدد المتصوفة والزهاد الذين لم يتوقفوا عن الإقامة فيها منذ الفتح الصلاحي الأيوبي. وكان المتصوفة الذين لم تفارق رؤياهم بوابة السماء في صلاح الدين الأيوبي هم " الملوك بهذه البلاد" كما قال ابن جبير. ولقد تعمق التصوف على المستويات الروحية والسلوكية والاجتماعية تحت الضغطين الصليبي والمغولي، وشكل نوعاً من حل للأزمة الروحية الإسلامية، فضلاً عن أن الأيوبيين قد استخدموا الصوفية للتخلص من المذهبية الفاطمية، فكثرت الزوايا والرُبط والخوانق، وحظيت بالهبات المالية والوقفية الكثيرة. وكان

من أبرز المتصوفة الزهاد في تلك الفترة إبراهيم بن معضاد الجعبري (ت٦٨٧هـ) وأبو الحسن علي البكّاء، وأسرة بدر الدين محمد بن يوسف(ت ٦٥٠هـ) وله زاوية قرب القدس. والشيخ شهاب الدين المقدسي المشهور بأبي ثور (ت٥٩٥هـ) وغانم الخزرجي المقدسي (ت٦٣٢هـ) وشهاب الدين أبو العباس النابلسي خطيب المسجد الأقصى (ت ٦٦٥هـ)[٧٣]. فكان العهد الأيوبي الذي وجد قطبه الديني في القدس مدخل الانتقال لتنظيم الصوفية في العهد المملوكي اللاحق، الذي سيرتبط به المجد العسكري والعمراني للعالم الإسلامي، في طرق وأقطاب ومريدين شكلوا تنظيماً للدولة سواء بسواء[٧٤].

---

(73) الحنبلي، المصدر السابق، ص١٤٤-١٤٥،

(74) شاكر مصطفى، المصدر السابق، ص ٤٩٥،

الفصل التاسع

القدس المملوكية

سلام ما بعد المحنة

إثر وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب انتقلت السلطة إلى " مماليكه" الذين جسدوا الاحتراف العسكري واحترام النظام والتمسك بالإسلام كعقيدة، فحكموا من وراء ابنه "توران شاه" ثم زوجته "شجرة الدر" إلى أن أمسكوا السلطة مباشرة مع قطز (١٢٥٩-١٢٦٠م) فالظاهر بيبرس .وقد استمد المماليك شرعيتهم بوصفهم في وعي المسلمين الجنود المنصورون " الذين حدث عنهم النبي مسبقاً في حديث نبوي نسب إليه من انتصارهم الساحق على المغول في ١٦ أيلول/ سبتمبر ١٢٦٠م في معركة عين جالوت، وفتحوا الطريق لتصفية بقايا الوجود الصليبي في الشام. وقد عزز الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧م) هذه الشرعية العسكرية بشرعية دينية رسمية حين استدعى المستنصر العباسي الذي نجا من مذابح المغول وبايعه خليفة في الأرض، وجعل مقره في القاهرة. واستمر بالنضال ضد بقايا الصليبيين وقضى وهو يقاتلهم[١]. وقد رسخ المخيال الشعبي الإسلامي بطولات بيبرس في ملاحم شعبية مروية ظلت تسرد في مجالس

(1) شوفاني، المصدر السابق، ص ,٢٢٦

الحكواتية حتى أوائل القرن العشرين، وتشكل اليوم جزءاً لا يتجزأ من التراث السردي العربي.

١- القدس نيابة ممتازة
وظائف إدارة المقدس

بعد ثلاثين عاماً تقريباً من سحق المغول في معركة عين جالوت، تمكن المماليك من سحق آخر المعاقل الصليبية حين استعادوا عكا في عام ١٢٩١م وطووا بذلك تاريخ الوجود الصليبي نهائياً في بلاد الشام. وقد تم إلحاق فلسطين إدارياً إلى نيابة الشام، وتم تقسيمها إلى ثلاث نيابات هي صفد وغزة والقدس. وإذا كانوا قد جعلوا من صفد المركز السياسي والعسكري فإنهم كرسوا القدس مركزاً دينياً وثقافياً يتسق مع طبيعتها المقدسة، وألحقوا بها ولاية الخليل ونابلس وأحياناً الرملة[٢]. ثم جعلوا القدس نيابة مستقلة تتبع مباشرة إلى السلطان المملوكي في القاهرة بعد أن كانت تتبع نيابة دمشق[٣]. وقد عكس ذلك وعي المماليك بتميز المدينة وخصوصيتها المقدسة والذي كان متسقاً مع موقعها في الجغرافية المقدسة لعموم المسلمين. وتعني النيابة في التنظيم المملوكي "

(2) المصدر نفسه، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(3) شراب، المصدر السابق، ص ١٥٨.

مملكة" يتسلم إدارتها " مقدم ألف" . وإذا كان المماليك قد حاولوا تقسيم الوظائف الإدارية إلى وظائف عسكرية (أرباب السيف) ووظائف دينية، ووظائف إدارية (أرباب قلم)، فإنه لم يكن في القدس فوارق فعلية ما بين هذه الوظائف الثلاث، نظراً لما تتمتع به من مكانة دينية، ولما شغلته من أدوار ثقافية، ولوفرة المؤسسات الدينية فيها. يضاف إلى هذا أن نائب القدس جمع في جملة وظائفه وظيفة جليلة تتعلق بما يمكن تسميته بإدارة المقدس، وهي وظيفة ناظر الحرمين الشريفين: القدس والخليل. وقد طور المماليك هذه الوظيفة التي كان الأيوبيون أول من استحدثها للاهتمام بحرمي القدس والخليل، ولا سيما من ناحية الترميم والإصلاح. وقد أنفق على هذه المرافق الدينية من واردات أوقاف الحرمين التي كانت كبيرة جداً.

انسجاماً مع قدسية المدينة حرص المماليك عموماً على إسناد وظيفة ناظر الحرمين الشريفين إلى علماء أجلاء مشهود لهم ومجمع على علمهم المكين أو إلى أمراء صالحين وأتقياء. وكان يليها مشيخة الصلاحية التي أنشاها صلاح الدين الأيوبي على مقربة من الحرم القدسي من الجهة الشمالية، وأصبحت هذه المشيخة من المشيخات المهمة في السلطنة المملوكية. ونظراً لجلال

وظيفة المشيخة في إطار وظائف إدارة القدس، فإن شيخ الصلاحية جمع أحياناً ما بين هذه الوظيفة وبين نظارة الحرمين الشريفين، وتجسيداً لوظيفته السامية المرتبطة بجلال القدس، كان يخرج لاستقباله في القاهرة أمير كبير من أمراء المماليك(٤). وقد جمع قاضي القدس ما بين قضائها وقضاء مدينة الخليل، وعمد بعض القضاة إلى تولية نواب لهم خارج القدس والمدن التابعة لها. وكان قاضي قضاة القدس يعين خطيب المسجد الأقصى وإمامه ليوم الجمعة. إلا أن تعيين خطيب المسجد الأقصى بعد أن غدت القدس نيابة مستقلة كان يصدر بمرسوم سلطاني من القاهرة، وصار الخطيب إذا دخل القدس يرتدي خلعة السلطان، ويتم الحرص على قراءة كتاب تعيينه في القدس بحضور عدد كبير من الأعيان والمصلين(٥).

٢- الاهتمام المملوكي بعمارة القدس

تميز السلاطين المماليك بحبهم للعمارة، واعتنوا عناية فائقة بالقدس، وأكثروا من زياراتهم التبركية لها في معظم المناسبات. وترجموا هذه العناية بشكل ملموس من خلال إنشاء المرافق

(4) زكار، المصدر السابق، ص ٥٨٣ - ٥٨٧.

(5) المصدر نفسه، ص ٥٥٨-٥٨٩.

التعليمية والدينية والخدمية الكثيرة التي أوقفوا عليها الكثير من الأوقاف لتمويل نفقاتها. من هنا وفر السلاطين المماليك كل شروط استئناف القدس لحيويتها الثقافية. وشكل التوسع ببناء المدارس والمساجد والتكايا البنية التحتية لهذه الحيوية. ولقد تبارى الأمراء المماليك في خدمة النهضة الثقافية المقدسية، إلى درجة أن عدد المدارس قد زاد عن الأربعين مدرسة. وأدى ذلك إلى استيعاب عدد كبير من العلماء الذين وفدوا إلى القدس بعد سقوط بغداد أمام المغول، أو بتأثير حرب الاسترداد في الأندلس. وقد رعت السلطات المملوكية رجال العلم والثقافة، ورتب السلطان قايتباي مثلاً في عام ١٤٧٢م لمدرسته في القدس ستين صوفياً، لكل واحد منهم خمسة عشر درهماً شهرياً، ولكل طالب أربعين درهماً، وللمدرس خمسمائة درهم[٦]. وفي مجال الاهتمام الشخصي المباشر بالتبرك بالقدس، حرص الملك الظاهر بيبرس على زيارة القدس، إذ زارها مرتين، الأولى في عام ١٢٦٢م والثانية في عام ١٢٦٥م، فبعد أن أكمل حجه في البيت الحرام في مكة، اتجه في عام ١٢٦٢م إلى بيت المقدس، ودخل في طريقه إليها مقام إبراهيم الخليل، واتخذ عدة إجراءات لصيانة حرمة المكان، ثم وصل الحرم الشريف مستخفياً في نفرين أو ثلاثة،

(6) المصدر نفسه، ص ٥٨٥ – ٥٨٩.

وصلى الجمعة في بيت المقدس، ثم رحل إلى عين جالوت التي شهدت هزيمة المغول، وأتى القدس في عام ١٢٦٥م مرة ثانية. واهتم في المرتين المباشرتين، وطيلة فترة حكمه الذي دام سبعة عشر عاماً بعمارة القدس والعناية بشؤونها الدينية والاجتماعية، فأنشأ فيها دار الحديث على طريق باب السلسلة، وبنى المدرسة الأباصيرية بجوار باب الناظر، وجدد ما تهدم من مسجد الصخرة، كما جدد قبة السلسلة وزخْرفَها، وأنشأ خاناً. وأوْقف بعض القرى لإنفاق ريعها على مصالح المسجد الأقصى، وجدد نصوص الصخرة التي على الرخام الظاهر، وعمَّر الخان الكائن بظاهر القدس من جهة الغرب إلى الشمال، والمعروف بخان الظاهر، ونقل إليه باب قصر الخلفاء الفاطميين، ووقف عليه نصف قرية (لفتا) وغيرها من القرى. وجعل في الخان فرناً وطاحوناً، وجعل لمسجده إماماً، وشرط فيه توزيع الخبز على بابه. وقد أعدَّ كل ذلك لأصحاب الزيارات الواردين إلى القدس للإنفاق عليهم، ولإصلاح حال النازلين به وإطعامهم. وجدد فيه قبة السلسلة، ورمم شعث الصخرة وغيرها. وبنى على قبر أبي عبيدة بن الجراح مشهداً، ووقف عليه شيئاً للواردين(٧). ولقد جدَّد الملك بيبرس كل ما قد

---

(7) الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣٣-٤٣٤، قارن مع العارف، المصدر السابق، ص٨٨

تهدم من أبنية الحرم الشريف، وعيَّن خمسة آلاف درهم سنوياً لتصرف على شؤون الحرم الشريف. وتوالت يد الترميم والصيانة والرعاية للمسجد الأقصى طوال عهد سلاطين المماليك البحريين والشراكسة، لكنهم لم يغيروا في معالمه الأصلية التي ترجع إلى العصرين العباسي والفاطمي[8]. وأما عهد الملك المنصور سيف الدين قلاوون (ت ١٢٤١م)، فقد أقيمت في القدس منشآت عديدة: رباط قلاوون، ويسمى الرباط المنصوري، ووقفه على الفقراء من زوار القدس، على قبلي الطريق المؤدية إلى الحرم قريباً من باب الناظر، والمسجد القلندري على طريق دير اللاتين، وقبة " الكبكبة" ويسميها الناس "القبقبة"[9]، وعمَّر سقف المسجد الأقصى من جهة القبلة، مما يلي الغرب عند جامع الأنبياء[10]. أما ابنه الأشرف صلاح الدين خليل (ت ١٢٩٣م)، الذي كان سمَّي صلاح الدين الأيوبي الأول، فقد استعاد عكا آخر معقل للصليبيين في الشام، وارتبط طرد الصليبيين من كامل بلاد الشام باسمه. وقد خلفه في الملك أخوه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في عام ١٢٩٣م، الذي حكم ثلاث فترات مدتها ثلاث

(8) السيوطي، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ١٨٦.

(9) العارف، المصدر السابق، ص ٨٨.

(10) الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣٥.

وأربعين سنة. واهتم بعمارة القدس وخدمتها، فله حسب عبدالمجير خيرات كثيرة[11]، إذ بني في عهده رباط الكرد، والمدرسة الدويدارية، في مدخل باب الدويدارية، ثم" باب العتم" من أبواب الحرم الشمالية، والمدرسة السلامية، والمدرسة الوجيهية عند باب الغوانمة، والمدرسة الموصلية، والمدرسة الجالقية على مئتى متر من الحرم إلى الغرب، والمدرسة الجاولية عند زاوية الحرم الشمالية، والمدرسة الكريمية بباب حطة، والمدرسة الأمينية إلى الغرب من باب شرف الأنبياء، والخانقاه الفخرية المجاورة لجامع المغاربة على مئتي متر من المسجد الأقصى، والمدرسة المالكية شمال الحرم والمدرسة التي عمرها الحاج ملك الجو كندار في سنة ١٣٤٠م، والمدرسة التنكزية بباب السلسلة[12].

(11) المصدر نفسه، ص ٤٣٨.

(12) العارف، المصدر السابق، ص ٩٠.

٣- التوسع ببناء المدارس : المدرسة التنكزية والمدرسة الأشرفية نموذجاً

تعتبر هذه المدرسة الأخيرة من أمهات المدارس في القدس بل في بلاد الشام، ومن أكثرها إتقاناً في البناء. وقد وقف الأمير تنكز عليها الأوقاف الكثيرة، حيث مثلت بفضل ذلك معهداً علمياً ضمَّ في جوانبه خانقاه وداراً للحديث، وداراً للقرآن، وقد أسهمت هذه المدرسة إسهاماً كبيراً في الحركة الفكرية المقدسية. وكان الأمير تنكز نفسه يحضر دروسها. وتولى مشيختها والتدريس فيها عدد من العلماء الأجلاء. وكان بعضهم يدرِّس في المدرسة الصلاحية والمعظمية، مثل علاء الدين المقدسي (ت ١٣٤٧م) وصلاح الدين العلائي (ت ١٣٥٩م) وشهاب الدين المقدسي (ت١٣٥٩م) وكمال الدين النقيب (ت١٤٢٨م)[١٣]. وتميز مبنى المدرسة التنكزية بزخارفه الرائعة، وباحتوائه على أربع قاعات للمحاضرات ولصلاة الجماعة تقود كلها إلى فناء مركزي، فضلاً عن خانقاه لاثني عشر متصوفاً ومدرسةً للأيام، وتحت سقف هذه المدرسة كانت الدراسة الفقهية والصلوات الروحانية الصوفية وأعمال البر تتم في آن واحد. ولعل بناء المدرسة قرب الحرم

(13) شهاب الدين المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٣-٣٤(المقدمة)

القدسي يعبر عن الرغبة الجامحة بالالتصاق بالحيِّز الإسلامي المقدس. فحينما وجد المهندس ضيق الحيز المكاني عن استيعاب المنشآت الجديدة، فإنه قام ببناء الخانقاه الصوفية أعلى الرواق الجديد على الحدود الغربية للحرم كي يتمكن المتصوفة المجاورون من مشاهدة قبة الصخرة التي هي نموذج مسعاهم في ممارسة رؤياهم الروحية. ولعل هذا المسعى للاندماج بالحرم القدسي يفسر حشر المدرسة الأمينية في عام ١٢٣٠ م في موقع شديد الضيق بحيث صار الطابق الثالث أعلى من الرواق الشمالي للحرم، وتبنت المدرسة المالكية نفس الحل لتصبح مشاهدة الحرم ممكنة من الطابق الرئيسي، كما أقيمت المدرسة المنجقية فيما بعد في عام ١٣٦١م، وشيدت فوق الأروقة أعلى بوابة المنتش (باب الناصر)(١٤).

لقد حرص بناة المنشآت الجديدة على اقترابها من الحرم القدسي. أي من قلب القداسة، من هنا تكثفت الأبنية حوله، في نوع من إحاطة الحرم بقوة بالوجود الإسلامي بعد أن هدده الصليبيون طوال تسعين عاماً من سيطرتهم، وإزاء هذا التباري في التقدم في العمران حول الحرم خصَّ السلاطين المماليك أنفسهم دون غيرهم بشرف البناء على أرض الحرم المقدسي، ففي عام

(14) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ,٥٠٧

١٣١٧م أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ببناء أروقة جديدة بطول حدود الحرم الشمالية والغربية، وأعاد إصلاح قبة الصخرة، كما أقام مركزاً تجارياً في موقع سوق الصليبيين القديم. وكان ذلك علامة ازدهار جديد لقدس القرن الرابع عشر التي كانت تصنّع منتجات الكتان والصابون والقطن[١٥]. وعمَّر في الحرم أيضاً السور القبلي عند محراب داوود، وفتح في المسجد الأقصى الشباكين اللذين على يمين المحراب وشماله، وجدَّد تذهيب قبتي المسجد الأقصى والصخرة. وعمَّر القناطر على الوجهتين الشماليتين بصحن الصخرة التي تقع أولاهما مقابل باب حطة وثانيتها مقابل باب الدويدارية، وعمرَّ قناة السبيل عند بركة السلطان بظاهر القدس، ووصل الماء إلى المسجد الأقصى في عام ١٣٢٨م[١٦]. كما قامت أيضاً في عهد الناصر منشأة أخرى مثل الجامع المقام في داخل القلعة عام ١٣١٠م، وفتح شباكين يمين المحراب الكبير ويساره في المسجد الأقصى، ثم أتى ابنه الأشرف الذي جدَّد عمارة القناطر الواقعة على الدرجة القريبة في صحن الصخرة المقابل لباب الناظر، أما السلطان الناصر فرج بن الملك الظاهر (ت٨١٥هـ) فقد حرص على زيارة بيت المقدس، ونزل في المدرسة

(15) المصدر نفسه، ص ٥٠٦.

(16) الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣١.

التنكزية، ووزع وتصدق بمالٍ كثير. وتشرَّف بترميم نقش بلاطة في القدس وإلصاقها بحائط السلسلة عن يمين الداخل من الباب[17]. وقد استمر هذا الاهتمام ببناء المدارس في عهد السلاطين البحريين (المماليك البحرية)، وحملت أغلب هذه المدارس أسماء الذين أنفقوا على بنائها، مثل المدرسة الأرغونية (١٣٥٧م) والمدرسة القشتمرية (١٣٥٧م) والمدرسة الطشتمرية (١٣٨٢م) في طريق باب السلسلة، والمدرسة الأسعردية (١٣٥٨م) في شمال الحرم القدسي، ودار القرآن على طريق باب السلسلة، والمدرسة المنجكية شمال باب الناظر، والمدرسة المحدثية (١٣٦٠م) على مقربة من باب الغوانمة، والمدرسة الحسينية (١٣٦٠م) على باب الأسباط، والمدرسة الطازجية في طريق باب السلسلة، والمدرسة الباردرية (١٣٦٦م) على باب الناظر، والمدرسة الحنبلية (١٣٧٩م) جوار باب الحديد. وفي عهد المماليك البرجيين (دولة المماليك البرجية) التي أسسها الملك الظاهر برقوق في سنة ١٣٨٢م، تم إقامة عدة منشآت هامة مثل المدرسة الطولونية فوق الرواق الشمالي من أروقة الحرم قرب باب الأسباط (١٣٩٧م)، وأقام خلفاؤه من بعده المدرسة النصيبية

(17) المصدر السابق، ص ٤٤١

شمال الحرم(١٤٠٦م) والمدرسة الفنرية مقابل الطولونية[١٨]. وتم في زمن الملك الأشرف برسباي (ت١٤٣٧م) بناء عدة منشآت مثل: سبيل شعلان في ساحة الحرم بين صحن الصخرة والمدرسة القادرية قرب باب حطة، والمدرسة الحسينية (١٤٣٣م) غربي الحرم، والمدرسة العثمانية عند باب المتوضأ (١٤٣٧م)، ورغم أن السلطنة المملوكية أخذت تتدهور مع السلطان الأشرف قايتباي (١٤٦٧-١٤٩٥م)، فإن قايتباي حافظ على التقليد المملوكي بالاهتمام بالقدس، فبنى المدرسة الزمينية غرب الحرم في عام ١٤٨١م، والمدرسة الأشرفية قرب باب السلسلة، والمدرسة السلطانية إلى الشمال من الباب نفسه، وعمّر في الحرم سبيلاً فوق البئر المقابلة لدرج الصخرة، سُمي بسبيل قايتباي، وبنى المدرسة المزهرية والمدرسة الجوهرية[١٩]، وأبدى عناية خاصة ب" المدرسة الأشرفية" المنسوبة إليه والتي أمر ببنائها بلصق المسجد الأقصى جوار باب السلسلة، وبغية جعلها في أعلى درجات الكمال أعاد بناءها عدة مرات. وقد اشتملت على بنائين سفلي وعلوي. والبناء السفلي مجمع ملاصق لرواق المسجد الأقصى من جهة الشرق المقابل لثلاث قناطر من الرواق، وله بابان ومحراب مما يلي الغرب.

(18) العارف، المصدر السابق، ص ٩٥-٩٦,

(19) المصدر نفسه، ص ٩٨,

وعلى المجمع السفلي أقام المدرسة العلوية التي اشتملت على أربعة أواوين متقابلة، ويقوم في صدر الإيوان الأكبر محراب، حرص البناؤون على أن يكون بجانبه شباكان يطلان على المسجد الأقصى، وشباك آخر من جهة الغرب ومن جهة الشرق. وكان لهذا الإيوان ثلاثة شبابيك مطلة على المسجد الأقصى إلى جهة صحن الصخرة الشريفة. وفي الإيوان الشمالي شباكان مطلان على المسجد الأقصى من جهة الشمال، والإيوان الشرقي به ثلاثة قناطر على عمودين من رخام، في أعلاها قمريات من الزجاج في غاية الجمال والإتقان، ويقابله الإيوان الغربي، وبه شباك مطل على صحن المدرسة. وفرشت أرضه كلها بالرخام، وأما السقف فكان من الخشب المدهون بورق الذهب واللازورد، وقد بلغ من جمال هذه المدرسة أن الناس كانوا يقولون في ذلك الزمن حسب عبد المجير " إن مسجد بيت القدس به جوهرتان هما الجامع الأقصى وقبة الصخرة الشريفة، قلت وهذه المدرسة صارت جوهرة ثالثة، فإنها من العجائب"[٢٠].

ظهر هذا البناء الرائع للمدرسة الأشرفية ببهوه المتجه والممتد داخل أعلى الحرم المقدسي، وكأنه تجسيد لتوق روحي عظيم نحو

(20) الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٥٩-٦٦١.

الصخرة في الوقت الذي كانت ترمز فيه وظائف المدرسة التعليمية إلى مبدأ التكامل الإسلامي، حيث ضمت علماء من مختلف المدارس الفقهية الأربع: الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية. فضلاً عن المتصوفة. وقد وفر السلطان قايتباي للدارسين الفقهاء وللمتصوفة إعانات مالية وأوقافاً في مدينة غزة، وجعل لكل من المتصوفة الستين خمسة عشر درهماً شامية، كما خصص لكل دارس خمسة وأربعين درهماً شهرياً، ووضع لها كادراً وظيفياً متكاملاً من الشيخ إلى الفراش والبواب[٢١].

٤- الزوايا الصوفية ودلالاتها

تم في العهد المملوكي الإكثار من بناء الزوايا والرباط والخوانق، وكان نصيب القدس منها كبيراً[٢٢] ومنها الخانقاه الفخرية التي تولى مشيختها كثير من العلماء مثل الشيخ شهاب الدين أبو العباس بن حامد (ت ١٤٥٠م)، ثم تولاها بعده ابنه شمس الدين (ت ١٤٦٩م)، والزاوية الوفائية التي افتتحت في عام ١٣٨٠م، وبناها تاج الدين أبو الوفاء محمد بباب الناظر قرب المدرسة المنجكية. وقد أسست سلالة أبو الوفاء طريقة صوفية انتسبت

(21) المصدر نفسه، ص ر٦٢٨

(22) زكار، المصدر السابق، ص ر٦٢٤

إليه، من هنا تعاقب على مشيخة هذه الزاوية علماء من أسرته[٢٣]، وأما زاوية المغاربة فقد أنشأها من ماله الشيخ المجاهد عمر المجرد بن شيخ الشيوخ القدوة عبدالله بن عبد النبي المصمودي المغربي المالكي في عام ١٠٣٤م في حارة المغاربة. وقد اشتملت على عشرات الحجرات بجميع مرافقها. وقد أوقف عليها الشيخ دخل ثلاث دور، وكان يوزع الفائض من الدخل على المحتاجين طيلة الشهور الإسلامية الفضيلة: رجب وشعبان ورمضان. وقد أشرف المصمودي بنفسه على إدارة الأوقاف شأن العالم أبي مدين، واشترط لمتولي أوقافه في حالة وفاته أن يكون من المغاربة الأتقياء والصالحين، وأن يوقف زاوية المغاربة على الفقراء والمساكين من المغاربة نظراً لكثرة عددهم في القدس[٢٤]. وعرفت في القدس زاويتان حملتا اسم " الزاوية البسطامية"، وتقع الأولى في أسفل صحن الصخرة من جهة الشرق والثانية كانت تقع بحارة المشارقة، وقد أوقفها عبدالله البسطامي وشيدت قبل عام ١٣٨٧م، وكان أول شيوخها المتصوف المعروف بلقب الإمام الزاهد مربي الطالبين، مرشد السالكين الشيخ علي الصفي البسطامي (ت٧٦١هـ)، ويعتبر شيخ فقراء البسطامية في القدس، كما كان الشيخ شهاب

---

(23) المصدر نفسه، ص ,٦٢٥

(24) النازي، المصدر السابق، ١٠٧ -,١٠٨

الدين أحمد محمد الكردي البسطامي من المتصوفة الذين تسلموا مشيخة هذه الزاوية[٢٥]. كما أنشأ الأمير ناصر الدين محمد بن علاء الدين الحنبلي وهو من أمراء العشائر الذين تأثروا بالشيخ محمد القرمي " زاوية القرمي " وأوقف عليها ثلث ممتلكاته، وكان القرمي(١٣٢٠م) قد قدم من دمشق إلى القدس وقضى بقية عمره فيها[٢٦].

لقد تحولت القدس إلى محور جاذب للعارفين والمتصوفة، مثل الشيخ تقي الدين أبو الصدق الحلبي الطولوني البسطامي (ت٨٤٣هـ) شيخ المدرسة الطولونية الذي أمضى حياته في القدس، والشيخ شهاب الدين أبو العباس الرملي المقدسي الشافعي (ت ٨٤٤هـ) الذي اشتهر عند مريديه بكراماته الظاهرة. وقد ترك الإفتاء وأقام في الزاوية الختنية وراء قبلة المسجد الأقصى، والشيخ محمد فولاد بن عبدالله (ت٨٤٤هـ) الذي انقطع للعبادة في المسجد الأقصى، ويحكى عنه أنه حج ستين حجة، مشاها في الغالب على قدميه، وروى عنه مريدوه الكثير من الكرامات والمكاشفات، وكان بواباً في الخانقاه الصالحية ودفن في بيت

---

(25) الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٩٩, قارن مع زكار، المصدر السابق، ص ٦٢٢-,٦٢٦

(26) زكار، المصدر نفسه، ص ٦٢٦,

المقـدس. والشـيـخ عـلاء الدين أبـو الحـسن صــفي الديـن الأردبلي العـجمي (ت٨٣٢هـ) الـذي اعـتـبـر شـيـخ الصـوفـيـة، وكـان والده متـصـوفاً من أصـحـاب الكرامات عند مـريديه، وقـد تـوج صـوفـيتـه بدفنه لصق سـور المسـجـد الأقصى[٢٧]، والشـيـخ عـبـدالله الزرعي الدمـشقي (ت٨٤٨هـ) الذي جذبتـه كـرامات بيـت المقدس ومـات فيه، والشيخ شمس الدين محمد بن عيسى البسطامي الشافعي (ت ٨٧٥هـ) الذي كـان من فـقـراء الطريـقـة البـسطاميـة الصـوفـيـة، وحرص على قضاء عمره في بوابة الخـانقاه الصلاحية، وعلى الدفن في القــدس، والشــيـخ شــمـس الديـن مــحــمــد بن حــسـين المقـري(ت٨٧٦هـ) الذي كـان مـدرسـاً في المدرسة ومـتـصـوفـاً في الخانقاه في آن واحـد، وقـد دفن في القـدس، وكـذلك الـشـيخ شـمـس الدين محـمـد بن أحـمـد مكي الشـافعي (ت٨٩٧هـ) الذي كـان نقـيـب الصــخـرة ومثل سابقه كـان فـقـيـهـاً في المدرسـة الصـلاحيـة ومـتـصـوفـاً في الخـانقـاه، ودفن في السـاهرة[٢٨]، والشـيخ أحـمـد بن داوود الملقب بالكـبـريت الأحـمـر الشـهـير بالكريدي (ت ٧٢٣هـ) وقـد كـان له مـريدون كـثـيـرون، واعـتـبـر والـداه من رجـال الوقـت والخـوارق، ووصـفـا بعـمـدة الأرض المقـدسـة ومـا حـولهـا، وكـان

(27) الحنبلي، المصدر السابق، ص ٥١٠-٥١٥.

(28) المصدر نفسه، ص٥١٩و٥٣٤-٥٣٧.

المريدون يروون عنهما أن السباع تخشاهما، وأما الشيخ برهان الدين أبو إسحاق بن جماعة الكناني (ت٦٧٥هـ) فقد حرص على أن يزور بيت المقدس حاملاً معه كفنه، بغية أن يدفن فيه، وكذلك الشيخ إبراهيم الهدمة (٧٣٠هـ) والشيخ أبو بكر بن علي الشيباني الموصللي (ت٧٩٧هـ)، والذي كان من كبار أولياء عصره، وجمع بين علمي الشريعة والحقيقة، ولجلال قدره كان السلطان برقوق يزوره بجوار المسجد الأقصى، ودفن في القدس[٢٩]. لقد كانت الإقامة في القدس شرفاً ما بعده شرف لكثير من العلماء والمتصوفة المسلمين، فهذا هو قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة (ت ٧٩٠هـ) قد عزل نفسه حين استدعاه السلطان ليكون قاضي القضاة في مصر، مفضلاً البقاء في القدس، حيث جمع التفاسير في عشر مجلدات، ودرس في الصلاحية، وتولى الخطابة في المسجد الأقصى. ولقد كانت القدس مصدر إلهام خاص لهؤلاء مثل الشيخ حافظ شهاب الدين هلال المقدسي (ت ٧٥٢هـ) الذي كان مدرساً في المدرسة التنكزية، وقد صنف كتاباً في فضائل القدس سماه " مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام"[٣٠].

(29) المصدر نفسه، ص ٤٤٩و ٤٥٢و٫ ٥٠٦

(30) المصدر نفسه، ص ٤٤٩و٤٥٢و٫ ٥٠١

يمكن النظر إلى مجمل المدارس والزوايا والخانقاهات التي تم إنشاؤها حول الحرم كمحاولة لتأكيد الهوية الإسلامية للحرم القدسي وما حوله بعد صراعٍ دامٍ مع الصليبيين مُنع المسلمون فيه على مدى تسعين عاماً من دخول القدس. وأتت الحركة الصوفية لتعوض ذلك الانقطاع ببذل أعلى درجات الالتصاق بمعاني القدس وهو الالتصاق الباطني الروحي ما فوق الفقهي، ولا ريب أن القدس قد غدت بفعل تدفق المتصوفة إليها أحد أهم مراكز الحركة الصوفية في العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي. غير أن مريدي الطرق الصوفية وإن كانوا قد نذروا حياتهم لمكاشفة الأسمى الذي تشكل القدس بوابته، فإنهم لم يديروا ظهورهم للعالم كما هو الحال في النسكية المسيحية على حد تعبير أرمسترونغ. فقد اعتبرت الطريقة القادرية التي اتخذت مركزها الرئيسي في مجمع المشفى القديم، أن العدالة الاجتماعية هي أسمى الواجبات الدينية، لأن المجاهدة الروحية والباطنية يجب أن تمتزج لديها بالتعاطف العملي. ودربت الطريقة البسطامية مريديها على نظام يشبه اليوغا للتركيز على التيارات الأعمق للرؤى، وركزت على برنامج يدعى "صُلح الكل" لتمكين أتباع الديانات المختلفة من فهم بعضهم بعد قرون من الكراهية[٣١].

(31) ارمسترونغ، المصدر السابق، ص ٫٩

وهكذا حملت الصوفية الإسلامية في القدس خصائص يمكن تسميتها بالخصائص المقدسية التي انبجست لدى المتصوفة في كل شبر وزاوية وحجر من المسجد الأقصى وما حوله بوصفها بقعة سماوية.

٥- الطقسية الرمزية بين اللاوعي الجماعي ورؤية الفقهاء

لقد أعطت محنة المجابهة مع الصليبيين، وتجربة فقدان القدس، حميمية داخلية أعمق لمعاني "فضائل القدس" في الضمير الإسلامي الجمعي، ففضلاً عما كُتب من مدونات كثيرة في العهد المملوكي عن " فضائل القدس" فإن بهجة استعادة القدس بعد المحنة الدامية مع الصليبيين قد انعكست في تعزيز قوة الطقوس الرمزية المرتبطة بإجلال القدس وتعظيم الروابط الروحية معها. ولقد تزايدت قوة هذه الطقوس التي بدأت في توجه الكثير من المسلمين للحج إلى البيت الحرام في مكة عبر الإحرام من بيت المقدس، أو في بدء الحج في البيت الحرام ومن ثم المجيء إلى المسجد الأقصى للمباركة و " تقديس" الحجة. لكن في المرحلة الفاطمية ومن ثم في المرحلة الأيوبية وصولاً إلى الذروة الطقسية

في المرحلة المملوكية، صارت بعض جماعات المؤمنين الذين تعذّر عليهم الذهاب إلى مكة يؤدون بعض مناسك الحج في المسجد الأقصى، وكان ذلك تعبيراً عن التسليم بأن القدس متوحدة مع مكة، وتستمد فضائلها وقدسيتها منها.

لقد أثارت كثافة الطقوس الرمزية العبادية في الحرم القدسي، ولا سيما حول الصخرة الشريفة الفقهاء المسلمين المحافظين الذين كانوا يديرون الشريعة ويحرسون منظومتها، مثل تقي الدين ابن تيميه الذي رأى تلك الطقوس خارج دائرة الأصول الشرعية، واعتبر أنه من البدعة ما كان قد رأى من الناس " يقفون عند الصخرة ويطوفون حولها، كما يطوفون حول الكعبة، وينحرون يوم العيد، ويحلقون رؤوسهم"[٣٢] ووضع ابن تيمية في عداد " البدع" الجديدة " تعظيم الصخرة بأي نوع من أنواع التعظيم كالتمسح بها وتقبيلها وسوق الغنم إليها لذبحها هناك، والتعريف بها عشية عرفة، وغير ذلك .."[٣٣]. من هنا ميز ابن تيمية وهو الفقيه المتشدد ما بين الصلاة في المسجد الحرام باعتبارها فرضاً وبين الصلاة في المسجد النبوي والمسجد الأقصى باعتبارها مستحبة، بقوله" السفر إلى المسجد الحرام فرض، وإلى المسجدين الآخرين،

---

(32) شراب، المصدر السابق، ص ,٣٦٣

(33) المصدر نفسه، ص ,٣٧١

مسجد النبي (ﷺ) وبيت المقدس مستحب"[٣٤]. لكن ابن تيمية كان يدرك مدى تغلغل القدس في اللاوعي الجمعي الإسلامي وتبادلها الوظائف مع مكة، رداً على المحنة مع الصليبيين، من هنا أراد أن يميز في رسالته القصيرة بخصوص الزيارات الورعة للقدس، على الفصل بين زيارة القدس وبين الحج إلى مكة، مثلما اعترض على تقبيل الصخرة كما لو كانت الكعبة. غير أن نظرية ابن تيمية المحافظة، لم تحظَ بالقبول من عامة المسلمين، الذين ما زالوا يتأملون " بفضائل القدس" وينظرون إلى التعبد في القدس على أنه تكريس إسلامي شرعي[٣٥].

يجب ألا يفهم من ذلك أبداً أن ابن تيمية كان يحاول أن يقلل من مكانة القدس عند المسلمين الذين أوحى تقديسهم لها عند ابن تيمية بأنها قد غدت بديلاً عن مكة، بقدر ما كان يطبق معايير فقه الشريعة على الطقوس الرمزية العبادية، ولا أدل على ذلك من أنه نفسه في كتابه " مناقب الشام" يذكرنا" بسورة الإسراء"، وبآية ﴿ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا..﴾ (الأنبياء: ٧١) وآية ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى

(34) ابن تيمية، رسائل ابن تيمية، ج٥، إشراف وتعليق محمد رشيد رضا، القاهرة ١٣٤٩هـ، ص ٨٢.

(35) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٥١٠.

الأرض التي باركنا.. ﴾ (الأنبياء: ٨١) و ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا.. ﴾ (سبأ: ١٨) و﴿ والتين والزيتون .. ﴾ و﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة.. ﴾ ويورد بعد تلك الآيات هذا النص" فهذه نصوص، حيث ذكر الله أرض الشام في هجرة إبراهيم، ومسرى الرسول عليه السلام إليها، ومملكة سليمان بها، ومسير سبأ إليها.. وصفها بأنها الأرض التي باركنا فيها. قال: وفيها المسجد الأقصى، وفيها مبعث الأنبياء، وإليها هجرة إبراهيم، وإليها مسرى نبينا، ومنها معراجه، وبها مُلكه، وعمود دينه وكتابه، والطائفة المنصورة من أمته، وإليها المحشر والمعاد والشام إليها يحشر الناس كما قوله تعالى" لأول الحشر" نَّبه على الحشر الثاني. فمكة مبدأ وإيلياء (القدس) معاد في الخلق، وكذلك بدأ الأمر. فإنه اسرى بالرسول من مكة إلى إيلياء، ومبعثه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى يملكه المهدي بالشام. فمكة هي الأول والشام هي الآخر في الخلق والأمر في الكلمات الكونية والدينية"[٣٦]. تبدو اعتراضات ابن تيمية على بعض الطقوس الرمزية المحيطة بالصخرة وبيت المقدس أمام تبجيله العظيم هذا للقدس وفضائلها، وكأنها اعتراضات تتعلق بالشكل والمظهر، وليس اعتراضات تتعلق بالمضمون والروح، فالقدس في منظور ابن

(36) شراب، المصدر السابق، ص ٣٠٧,

تيمية جزء لا ينفصل عن الجغرافية الإسلامية المقدسة، ولا عن الاعتقاد الديني الإسلامي، طالما هي المحطة الأخيرة للخلق وكمال الدين.

٦- القدس المملوكية للجميع : التعايش

ازدهرت القدس في مرحلة السلام المملوكي وتجاوز عدد سكانها الأربعين الفاً[٣٧]. وفي قمة هذا الازدهار الذي نشطت فيه فئتا الفقراء والمتصوفة، تبنت إحدى الطرق الصوفية المهيمنة على الحياة الروحية الصوفية المقدسية وهي الطريقة البسطامية منهج " صلح الكل" لتمكين أتباع الديانات الثلاث من تجاوز الكراهية التي رسخها الصليبيون. ولقد تبنى المماليك رغم المحنة والمرارة من الصليبيين رؤية الإسلام للمقدسات المسيحية واليهودية الأخرى في ضوء أنه دين جامع يتعايش مع الأديان السماوية وليس بوصفه ديناً إقصائياً مانعاً. من هنا أقام المسلمون حسب أرمسترونغ علاقات طيبة مع المسيحيين المحليين والأرمن الذين كانوا في معظمهم من الأورثوذكس، فانحصرت أزمة التعايش في القدس في التوتر الذي كان قائماً ما بين المسلمين والمسيحيين الغربيين

(37) زكار، المصدر السابق، ص ٥٩٢.

اللاتين، وكان هذا التوتر من إرث الحروب الصليبية، فحين هاجم الاسبتارية مدينة الإسكندرية من قبرص في عام ١٣٦٥م قام المسلمون في القدس بإلقاء القبض على كل أعضاء جماعة الفرنسيسكان، وأغلقوا القبر المقدس(٣٨). لكن ذلك يكشف حقيقة أن السلطات الإسلامية المملوكية لم تضطهد اللاتين إلا على خلفية معاودة الصليبيين تجديد خطرهم على المسلمين، بل إن هذه السلطات أعطت الفرنسيسكان في عام ١٣٠٠م موقع كنيسة صهيون الذي يحتوي على ما يسمى بمقبرة داوود التي وقع الخلاف على عائديتها المقدسة ما بين المسيحيين واليهود، مع أن الفرنسيسكان لم يعيروا اهتماماً جدياً لهذه المقبرة، وكانوا يذكرون المقبرة للحجاج القادمين في نهاية وصفهم للأماكن المقدسة المسيحية إذ كان السلطان المملوكي قد استجاب لطلب البابا نقولا الرابع بأن يسمح لمجموعة من الرجال اللاتين بأن يخدموا في كنيسة القبر المقدس، وسمح لهم السلطان بأن تكون كنيستهم على جبل صهيون التي أصبحت مقر الفرنسيسكان، وأصبح رئيس رهبانيتهم راعي الأوروبيين الذين يعيشون في الشرق(٣٩)، ويمكننا القول إن المماليك باستثناء توتر العوامل

---

(38) ارمسترونغ، المصدر السابق، ص ٥١٢.

(39) المصدر نفسه، ص ٥٠٣.

الخارجية مع الصليبيين المستحكمين بجزيرة قبرص في المتوسط على مقربة من ساحل الشام، قد سمحوا للحجاج الفرنجة بدخول القدس رغم كل الميراث المر، وكان على كل حاج قادم من أوروبا أن يدفع للسلطات المملوكية مبلغ أربعة دراهم فضة رسم دخول إلى القدس، كما كان عليه أن يدفع أيضاً درهماً إلى ممثل الرهبانية، ثم يدفع ثمانية دراهم عند وصوله إلى القدس. وكان الحجاج الأوروبيون يتقاضون أمام القضاة المسلمين، لحل الخلافات ما بينهم أو ما بينهم وبين السكان المحليين[٤٠]. ومثلما أتاح المماليك لممثلي الكنائس المسيحية سكن القدس فإنهم أتاحوا ذلك لليهود الذين أقبلوا عليها وسكنوا فيها بعد أن منعهم الصليبيون طيلة فترة سيطرتهم من دخولها. وقد وصل عدد اليهود يومئذ إلى ما يقرب الخمسمائة نسمة، ومارسوا التجارة والدباغة والصياغة، وجمعوا ثروات مهمة، مكنتهم من بناء كنيس جديد لهم. وسمح لهم بممارسة حقوقهم في العبادة، وفي إقامة شعائرهم الدينية. ومن الحوادث المذكورة في التاريخ خلال هذه الحقبة، أنه قد وقع خلاف ما بين اليهود والمسلمين حول تجديد بناء كنيسهم في عام ١٤٧٣م. وقد حكم قضاء مدينة القدس بأن هذا الكنيس محدث بصورة غير شرعية، فأمرت

---

(40) زكار، المصدر السابق، ص ٥٩١

السلطات المحلية بإغلاقه، فرفع اليهود شكوى إلى السلطان في القاهرة الذي أرسل في عام ١٤٧٩م إلى ناظر الحرمين الشريفين بأن يمكِّن اليهود من بناء كنيسهم. وعندما ثار الناس على هذا القرار ومعهم قاضي الشافعية، أمر السلطان الأشرف برسباي بإلقاء القبض على القاضي وعلى عدد من العلماء، وضغط على قاضي الشافعية لإصدار قرار بعودة الكنيس إلى اليهود[٤١]. من هنا ورغم المحنة مع الصليبيين، وميراثها المر، وذكرياتها القائمة، ظل المسلمون يحتفظون بمساحة واسعة للتعايش داخل القدس، تمكِّن أصحاب الديانات الأخرى من أن يجدو محلاً لهم فيها، وأن يعانقوها روحياً. وكان المسلمون في ذلك يتجاوزون المفهوم الوثني الذي يحول اللقاء الروحي مع إهاب المقدس إلى امتلاك للحجارة وحسب، وإقصاء الآخرين واستبعادهم من أي مشاركة في ممارسة طقوسهم الرمزية المرتبطة بتلك الأمكنة، أو التساكن جنباً إلى جنب وكتفاً على كتف. لقد كانت القدس المملوكية رغم التوترات المحدودة مع اللاتين مفتوحة للجميع.

(41) المصدر نفسه، ص ٥٩٣-,٥٩٤ قارن مع أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ,٥٢١ حيث تقدِّر أرمسترونغ عدد اليهود يومئذ بسبعين عائلة يهودية.

الفصل العاشر

القدس العثمانية (١٥١٥ - ١٩١٧م)

توطئة تاريخية

أخذت السلطنة المملوكية تتدهور مع نهاية القرن الخامس عشر، إذ عجزت عن حماية البلاد الإسلامية وخطوطها التجارية من التوسع البرتغالي والإسباني الذي شكّل في كثير من وجوهه استمراراً للحملات الصليبية السابقة على الشرق العربي، كما فقدت قدرتها على ضبط الأوضاع الداخلية المتردية، في وقتٍ أخذت تتنامى في العالم الإسلامي قوتان أساسيتان هما القوة الصفوية في الشرق والقوة العثمانية النامية والمهابة في الشمال. ولقد خضعت العلاقة العثمانية - المملوكية إلى عوامل متشابكة، اختلطت فيها المصالح المتباينة، والمتنافسة على زعامة العالم الإسلامي في شروط مواجهة الخطر المشترك الذي يحيط بها من غرب أوروبا من جهة ومن الدولة الصفوية "الشيعية" في الشرق. ولقد اعتبر العثمانيون في بداية صعودهم في الأناضول أنفسهم تابعين إلى الخليفة العباسي المقيم في القاهرة، وأظهروا اهتمامهم الدائم بالحج، وحرصوا على تأكيد ولائهم بتقديم الهدايا والأعطيات، وإرسال الوفود إلى سلاطين المماليك وأشراف مكة،

بعـد كل نصـر يحـرزونه على الجبـهـة الأوروبيـة[١]. وقـد احـتل العـثمـانيـون إثر إسقـاط الامـبراطورية البـيـزنطيـة والسـيطرة على القـسطنطينيـة في عـام ١٤٥٣م مرتبـة القـوة الإسـلاميـة العظمى الأولى، مما أثار روح المنافسة ما بينهم وبين المماليك حول زعـامة " دار الإسلام" (العالم الإسلامي). ولم يهدىء هذه المنافسة مؤقتاً إلا تهـديد البـرتغـاليين للطرق البـحـرية، مـا سـبب قـطع الشـرايين التجارية ما بين مصـر والهـند، وبين مصـر والخليج العـربي، ووضع البـرتغـاليـون موطء قـدم في الحـبشـة، فـأصبح المصـريون مـهـددين بوجـود أعـداء لهـم في الجنوب[٢]. من هنا أرسـل العـثمـانيـون إلى المـماليك ثلاثين سـفـينة تحـمل ثلاثمـائة مـدفع وأخـشـاب، إلا أن فرسان رودس الصليبيين استولوا عليـها. وتمكن العثمـانيون في عام ١٥١١م من إيصـال أربعـمـائة قنطار من البـارود، كـمـا زودوا المماليك بالرجال وضبـاط البحرية، وبالخشب والقطران[٣]. إلا أن هذا التحالف العثماني - المملوكي سرعان ما تعرض للتفكك، إثر شعور العـثمـانيـين بتـواطؤ المـماليك مع خصـومهـم الصـفـويين إبان

(1) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ط٣،بيروت ١٩٦٥،ص ٢٨.

(2) برتولد شپولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، دمشق ١٩٨٢، ص ١٤٠-١٤١.

(3) نقولا إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله، بيروت ١٩٨٨، ص ٥٩-٦٠.

الحرب العثمانية - الصفوية، إذ حركوا جماعتهم في إمارة " ذي القدر" ليقطعوا طرق إمدادات الجيش العثماني، مما فوت الفرصة على العثمانيين للإجهاز نهائياً على الدولة الصفوية[٤]. وعندما وصلت أخبار النصر العثماني على الصفويين إلى القاهرة، لم يستطع حكام مصر المماليك أن يخفوا خيبة أملهم أمام دهشة العالم الإسلامي[٥]. من هنا حدد العثمانيون خطوتهم التالية بتصفية الحساب مع المماليك، وضم بلاد الشام ومصر إلى امبراطوريتهم، في أجواء تعلق الرأي العام الشعبي الإسلامي بقوتهم القادرة. إلا أن التواطؤ المملوكي مع الصفويين ضد العثمانيين شكّل مجرى عنصر في دفع العثمانيين لفتح مصر والشام، إذ تحكمت بهذا الفتح عوامل معقدة أكثر بعداً، تتعلق بمصالح العثمانيين كدولة، وبصراع الهيمنة على العالم الإسلامي، فقد أدرج العثمانيون مسألة ضم البلاد العربية إلى امبراطوريتهم في أفق استراتيجيتهم الكونية الإسلامية التي استهدفت ضرب القوة الضاربة لأوروبا الغربية المتمثلة بالامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب مع مركز البابوية في إيطاليا، وإعادة التحكم بخطوط التجارة البحرية العالمية الإسلامية التي هددها البرتغاليون،

---

(4) كرد علي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(5) إيفانوف، المصدر السابق، ص ٦١.

وبالتالي فرض زعامتهم على العالم الإسلامي من خليج البنغال حتى جبل طارق، وبالإضافة إلى ما حققوه من سيطرة على تتار القرم والبحر الأسود وشرق المتوسط، كان لا بد لهم لاستكمال أمضتهم الامبراطوري من تصفية المماليك الذين شكلوا أضعف حلقة في إطار صراع القوى العالمي، ذلك الضعف الذي شكَّل فراغاً في القوى. من هنا تقدم العثمانيون لملئه، ولعلهم أرادوا وفق (جب) أن يَحولوا بين الصفويين واحتلالهم للبلاد العربية(٦).

١- السلطان سليم الأول خادماً للحرمين الشريفين :

الرأسمال الرمزي أولاً والخشوع أمام القدس

ترافق إعلان السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠م) للحرب على المماليك، بالتهديدات ضد السلطان المملوكي قانصوه الغوري في مصر، أما في الشام كما يحدثنا إيفانوف فكان الوضع أشد سوءاً، إذ خرجت قرى كثيرة، ومناطق بأسرها عن طاعة المماليك، وسرى التذمر إلى صفوف الجنود المماليك أنفسهم. وقد

(6) هاملتون جب، المجتمع الإسلامي والغرب، القاهرة، ص ٢٤٦.

لعبت العوامل الإيديولوجية دوراً معيناً في شق عصا الطاعة، إذ " رفض قرابة ألف مغربي كانوا نواة رجال مدفعية المماليك الاشتراك في القتال عموماً، وأعلنوا: لن نقاتل المسلمين .. وأعدم الكثير من المماليك بتهمة الخيانة[٧]. دخل سليم الأول مدينة حلب في ٢٨ آب / أغسطس ١٥١٦م وسط ترحيب الأهالي[٨]، وأثناء خطبة الجمعة، نودي به خادماً للحرمين الشريفين، فاتخذ لنفسه اللقب الذي كان يحمله حكام مصر منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، ثم كرس نفسه زعيماً روحياً للمسلمين[٩]. وبغية إضفاء شرعية إسلامية على حكمه، حصل على مبايعة المتوكل آخر الخلفاء العباسيين، الذي قدم له الذخيرة المقدسة للبيت العباسي، وتضم عباءة وبضع شعرات من لحية النبي مع سيف عمر بن الخطاب[١٠]. ثم قدم أشراف مكة التهاني، وسلموه مفاتيح الكعبة. من هنا لم يكن مفارقة إزاء ذلك أن تستقبل القدس في الأول من كانون الأول / ديسمبر ١٥١٦ سليم الأول، إذ خرج علماء القدس إلى خارج المدينة لاستقبال السلطان، وأهدوه

(7) إيفانوف، المصدر السابق، ص ,٦٢

(8)كرد علي، المصدر السابق، ج٢، ص ,٢١١

(9) توماس أرنولد، الخلافة العباسية، ترجمة جميل معلا، دمشق،دون تاريخ،ص ,٨٨

(10) حتي وجرجي وجبور، المصدر السابق، ص ,٨٣١

مفاتيح الأقصى وقبة الصخرة. فقفز سليم الأول لفوره من على صهوة فرسه، وسجد أرضاً ثم صاح مبتهجاً: إني أمتلك حرم أولى القبلتين(١١). ولعل هذا ما يعبر عن المكانة المسبقة العليا للقدس في روح الفاتح العثماني الذي لم تكن تنقصه كمحاربٍ محترف القسوة حين اللزوم. من هنا أكد السلطان سليم تلك المكانة المسبقة بزيارة الأماكن المقدسة الإسلامية وقبور الأولياء، ورأى الآثار القديمة، قبل أن يذهب إلى مصر(١٢). وعبر ذلك عن مدى عظمة المدينة المقدسة وخشوع الجبابرة أمام جلالها. وخلال وجوده في القدس قبل طلب سفير إسبانيا برجاء مليكه بتسهيل زيارة الحجاج المسيحيين إلى القدس، وأتاح للنصارى الأوروبيين الوصول إلى بيت المقدس لقاء رسم كانوا يؤدونه زمن المماليك. مع أن عبء مواجهة الحملات الصليبية الأوروبية الجديدة كان قد وقع عليه. وحين لاحظ السلطان سليم سور القدس مهدماً – إذ لم يقم المماليك بإعادة بنائه لابتعاد الخطر الصليبي – فإنه عزم على عمارته زيادة في الأمان للأهالي، لكن وفاته المبكرة في عام ١٥٢٠م منعته من ترجمة فكرته(١٣).

(11) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٥٢٣.

(12) سركيس، المصدر السابق، ص ١٩٠.

(13) العارف، المصدر السابق، ص ١٠٣.

وسع سليم الأول في القدس نظام الملل الإسلامي، حيث أصبح بطريرك القسطنطينية الذي غدا يتمتع بسلطات أكبر من تلك التي تمتع بها في ظل الامبراطور البيزنطي، مسؤولاً عن الأرثوذكس في آسيا الصغرى واليونان وبلاد الشام[١٤]. وقد قسم العثمانيون منذ مطلع حكمهم مع سليم الأول فلسطين إلى خمسة سناجق (ألوية) هي القدس، غزة، نابلس، صفد، اللجون وألحقوها بالشام التي كانت مشكلة من ثلاث ولايات هي: حلب وطرابلس والشام[١٥]، فصارت القدس العثمانية مركزاً لمنطقة واسعة سميت "سنجق القدس"، المؤلف من خمسة أقضية: قضاء القدس وقضاء يافا وقضاء الخليل وقضاء غزة وقضاء بئر السبع، وأربع عشر ناحية، وثلاثمائة وتسع وسبعين قرية، وخمس قبائل، وعلى رأس كل قضاء قائمقام[١٦].

كان العثمانيون يومئذ مثالاً أعلى للنظام والأمن والعقلنة حتى في أوروبا المسيحية نفسها، وفي هذا السياق أتوا معهم

---

(14) محمود عامر، الأوضاع العامة للقدس في ظل الإدارة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٥٩-٦٠، كانون الثاني، نيسان ١٩٩٧، ص٩٦

(15) عبدالكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، القسم الثاني، المصدر السابق، ص ٨٥٢

(16) العارف المصدر السابق، ص١٢٢

بالقانون والنظام مرة أخرى إلى فلسطين، فتمت السيطرة على البدو، وأصبح بالإمكان تحسين الزراعة دون خشية الغارات البدوية، كما أدخلوا نظاماً إدارياً ذا كفاءة عالية يومئذ، فتحسن الاقتصاد، وازدهرت التجارة(١٧).

٢- سليمان القانوني العظيم : ذروة التبجيل العمراني والمدني الإسلامي للقدس

لقد كان الشكل العملي الملموس لترجمة الانفعال الروحي الداخلي بمكانة المدينة المقدسة يتخذ دوماً عند المسلمين بنية ثابتة هي بنية إعمار القدس، ولم يكن هذا الإعمار مجرد بناء لحجر بقدر ما تعداه إلى ماورائه، أي إلى خدمة المقدس، فقد كان العمران بهذا المعنى وسيلة ملموسة للتبرك ولاستلهام بركة السماء التي مثلت القدس بوابتها. وباستثناء الصليبيين الأجلاف والقساة، روّضت هذه المدينة المقدسة كل الفاتحين الذين لم تكن تنقصهم القسوة في فتوحاتهم، حتى أنها أرغمت سليم الأول المعروف بقسوته على الخشوع، وعلى تقبل احترام زيارة أعدائه اللاتين لها، لأن الرؤية الإسلامية جامعة وليست مانعة، في حين لو

(17) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٥٢٥

فكر بالأمر في ضوء المجابهة العثمانية - المسيحية لمنع المسيحيين اللاتين بالتأكيد من دخول القدس. وتمثلت عظمة الرؤية العثمانية التي هي رؤية إسلامية تامة للقدس في اهتمام سلطانها العظيم سليمان القانوني بالقدس. ولا ريب أن القانوني كان أعظم سلطان متحضر في العالم بأسره في زمنه، وقد ترجم وفق الآلية الإسلامية تعظيمه للقدس ببذل كل الجهود لعمارتها وخدمة الأماكن المقدسة الإسلامية فيها، وتأمين ما يلزم لها من مرافق لتحسين معيشة أهلها، فقد جدَّد عمارة سور القدس الذي دام العمل فيه خمس سنوات (١٥٣٦ - ١٥٤٠م)، ورمم القلعة عام ١٥٣١، وأنشأ البرج الكائن على يمين الداخل من باب الخليل عام ١٥٣٨، وعمَّر بركة السلطان على طريق المحطة، والسبيل الواقع قبالة البركة المذكورة، والسبيل الكائن بباب السلسلة أمام المدرسة التنكزية عام ١٥٣٦، وعمَّر فيه قبة الصخرة عام ١٥٤٢، وأعاد تبليطها، وعمر جدران الحرم القدسي وأبوابه، وسدَّ الباب الذهبي من أبواب الحرم، وفتح الباب المعروف بباب ستنا مريم، وجدَّد القاشاني الكائن في قبة السلسلة عام ١٥٦١، وفي عهده أنشئت التكية المعروفة بتكية خاصكي سلطان، والمدرسة السلطانية بحارة الواد عام ١٥٤٠م. كما بنى مسجد الطور عام ١٩٣٧، وسك نقوداً

حملت اسم (القدس)[١٨].

ومما هو جدير بالذكر أن سور القدس الذي بناه سليمان القانوني بلغ طوله أربعة كيلومتر، وله سبعة أبواب، وثلاثة أبراج للحراسة، وبلغت تكاليفه ثلاثمائة ألف أقجة ذهبية، وهو مبلغ كبير للغاية، كما أقام سبعة سبل للمياه، وكلف مائة وخمسين جندياً، وعهد إلى ضياء بك بقيادتها لحراسة المدينة، ولمنع العربان من مهاجمة المدينة المقدسة، ولحفظ الأمن على طرقها، وكلف ستين متصوفاً بخدمة قبة الصخرة بعدما أمر بتجديدها. وأحضر الكساء لها من الحرير الهندي الأخضر مع مائة وخمسين متراً من السجاد العجمي. وفوق هذا كله، أعفى سكان القدس من الضرائب لثلاث سنوات، ليزيد في ازدهارها كمدينة دينية مبجلة، وكلف آل أبي غوش بحراسة الطريق السلطاني ما بين القدس ومرفأ يافا، وسمح لهم بأخذ الضرائب من الزوار، والعوائد من العربان الراغبين في زيارة بيت المقدس، أو في الإتجار معها. وعهد إلى المحتسب بمراقبة أسواقها ومراقبة الأسعار، لضبطها. وخصص لنظافة المدينة قائداً يسمى " قائد الزمبيل" يعاونه عدد من العاملين للإشراف على تنظيف المدينة، وأوكل إلى (مفرزة

---

(18) العارف، المصدر السابق،ص١٠٤

حراس) حراسة السور والإشراف عليه، وعيَّن لها ثلاثة قادة، يشرف الأول على المناطق الإسلامية، والثاني على المناطق المسيحية، والثالث على الأماكن المقدسة، والمقابر. وعهد إلى القاضي فضّ المنازعات داخل المدينة، يساعده مفتي الحنفية. وأمر بتشكيل محكمة من المتصرف، والقاضي الحنفي، والمفتي، ونقيب الأشراف، وإمام المسجد الأقصى، وراهب كنيسة، يترأسها القاضي الذي منحه صلاحيات واسعة (١٩).

بالإضافة إلى كل تلك الخدمات التي منحها السلطان سليمان القانوني إلى القدس، فقد أمر عام ١٥٤٥م بتحويل ٤٥٠ دونماً من أراضي القدس إلى كروم وبساتين، على أن تُعفى لمدة عشرة سنوات من الضرائب. وفي عام ١٥٥٢م أمر السلطان القانوني واليه في الشام بتأمين حاجة القدس من الحبوب، بسبب تعرض القدس لقحط الجراد(٢٠). وهذا كله يُظهر إلى أي مدى كان السلطان القانوني مهتماً برعاية القدس، وتبجيلها.

ويذكّر شمس الدين السيوطي، في "إتحاف الأخصا، بفضائل المسجد الأقصى" بما قدمه سليمان القانوني للقدس من خدمات فيقول: " أول ذلك، فعله الجميل بإجراء قناة السبيل من بُرَك

(19) عامر، المصدر السابق، ص ٩٧-٩٨،

(20) المصدرنفسه، ص ١٠٤،

المرجيع، ومسافتها عن بيت المقدس نصف بريد (= فرسخان). وأما من رأس ينبوع الماء إلى المسجد الأقصى، فيه مقدار بريد. وصرف عليها من الأموال شيئاً جزيلاً. وبعده " السور" الذي حَوْل المسجد الأقصى، وسبك ما علاه من الرصاص والخشب وغيره، وكذلك تجديد الرخام حول الصخرة الشريفة والجامات(= إناء فضة) وكذلك قصارى المسجد الأقصى الشريف في سنة تسع وثلاثين (وتسعماية هجرية) .." ثم يقول: " ومن غريب الاتفاق، أن يسَّر الله تعالى عمارة المسجد الأقصى الشريف على يد ثلاثة ملوك سليمانيات (جمع سليمان)، أولهم سليمان بن داوود عليه السلام، والثاني سليمان بن عبدالملك، والثالث سليمان بن سليم. وهذه نعمة عظيمة، ومنَّة جسيمة، يجب الشكر عليها" (٢١). وقد أراد السلطان سليمان القانوني أن يخلد اسمه، ويترك ذكرى إصلاحاته الكبيرة. فعندما كسا جدار القبة من الخارج، وقبة السلسلة بالرخام والقاشاني، فقد سجَّل ذلك على لوحة نحاسية على الباب المعروف بباب الجنة، ونصه: جُدِّد بحمد الله قبة الصخرة من بيت المقدس الفائقة ببنائها في ظل دولة السلطان الأعظم والخاقان الأكرم واسطة عقد الخلافة

(21) محمود إبراهيم، المصدر السابق، ص ٥١٠-٥١١

بالنسر والبرهان أبي الفتح سليمان خان "[٢٢].

وهكذا أصبحت القدس مدينة محصنة لأول مرة بعد أن هدَّم سورها الملك المعظَّم الأيوبي، أي منذ ما يقارب الثلاثمائة سنة، واستثمر سليمان مبالغ طائلة في نظام المياه بالمدينة، فبنى كما ذكرنا ست سبل (نافورات) جميعها في الحرم القدسي، وشق القنوات والبحيرات، وجدد " بحيرة السلطان" جنوب غرب المدينة، وأصلح قنواتها، كما بنى نافورة بديعة (سبيل) للوضوء في الفناء الأمامي للمسجد الأقصى، كما أعاد بناء أوقاف الحرم وبعض المدارس، وتنازل عن حقه في رسوم دخول الحجاج لصالح تمويل تلاوة القرآن في قبة الصخرة لمدة عام، وأصبحت الأوقاف التي أصلحها مصدر عمل ودخل لأعمال الخير. كما اقامت زوجته رولكسانه بإنشاء تكية عام ١٥٥١م، ومجمع كبير يشمل مسجداً ورباطاً، ومدرسة وخاناً ومطبخاً يمدُّ طلبة العلم والمتصوفة والفقراء بوجبات مجانية. وخُصِّصت لتمويل التكية واردات أوقاف عدة قرى، ومزارع في منطقة رام الله[٢٣].

ويصف سفير ملك فرنسا بيير بيلون، الذي زار القدس مع مساعده جان شزنو عام ١٥٤٧م، فيقول أنه أصبحت لها منذ فترة

(22) السيوطي، المصدر السابق، ص ٢٠٦.

(23) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٥٢٧-٥٢٨.

قريبة أسوار عالية جديدة، والبيوت مغطاة بشرفات على الأسطح، والمخازن في الأسواق الرئيسية مقببة كالإسكندرية، مع فارق أن قبب القدس منيعة من حجارة منحوتة، ومما يدل على ازدهار القدس، والأمان الذي غدا يخيم على الطريق الذي يصلها بدمشق، والعناية بخانات المسافرين عليه، ما ذكره أحد موظفي السفارة الألمانية في استنبول، الذي زار القدس عن طريق مرفأ يافا، في ٤ أيار/ مايو ١٥٨١م، ووصف القدس بأنها مدينة جميلة ذات أبنية جميلة من دينية ومدنية، وأشار إلى أن البيوت بنيت من الحجارة، وللمدينة سور جيد، ثم يشيد بالخانات المتينة المقامة على الطريق لراحة المسافرين. كما يصفها الفرنسي لوران دارفور (١٦٣٥ -١٧٠٢م) مبعوث لويس الرابع عام ١٦٦٠م، فيذكر وعورة التلال والجبال المحيطة بها، والتي عليه أن يجتازها ليصل إليها، ويذكر أنها تحيط بها أسوار قوية ذات أبراج مربعة بناها السلطان العثماني سليمان القانوني، يبلغ سمك الأسوار حوالي مترين، ومحيطها ٤٥٠٠ خطوة، وحولها خندق دون مياه. وفيها ثلاثون مدفعاً، وحامية من ثلاثين انكشارياً بقيادة آغا، وأن معظم دورها من طابق واحد، يعلو الطابق الأرضي، وهو مقعود بالحجارة المنحوتة، ولها شرفات وخزان لحفظ مياه الأمطار الضرورية،وأن

مياه برك سليمان تُجلب إلى القدس(٢٤).

ولقد فرض العثمانيون نظاماً سمح لجميع التلوينات القومية والدينية التعبير عن نفسها، في إطار النظام الامبراطوري، وكما يقول جاك فريمو: " وعلاوة على الاستقلالية الذاتية الكبيرة التي كانت تتمتع بها السلطات الإقليمية، ينبغي أن نضيف إليها الاستقلالية الثانية التي منحها النظام التركي لليهود والمسيحيين من خلال المنطق الامبراطوري الذي دعمه الاحترام المعترف به من قبل القرآن لأهل البيت ... وكانت الضمانات التي أعطيت للذميين قد شكلت لفترة طويلة مثالاً يحتذى على التسامح في مواجهة تعصب الغرب"(٢٥). ففي الوقت الذي كانت فيه الحروب الدينية المرعبة تحصد أوروبا: فرنسا، الأراضي المنخفضة، النمسا، إسبانيا، إنكلترا، تمتع المسيحيون - حسب ديورانت - في العالم الإسلامي بتسامح ديني ما كان حاكم مسيحي ليحلم بمنحه للمسلمين في أي بلد مسيحي(٢٦). لذا يشير توماس أرنولد إلى

---

(24) رافق، المصدر السابق، ص ٧٣٣-٧٤٤.

(25) جاك فريمو، فرنسا والإسلام: من نابليون إلى ميتران، ترجمة هاشم صالح، دون مكان، ١٩٩١، ص ٢٧.

(26) ول ديورانت، قصة الحضارة، محمد علي أبو درة، ج٣، المجلد السابع، القاهرة، دون تاريخ، ص ١٣٦.

أن الكالفينيين في المجر وترنسلفانيا، آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع تحت قبضة آل هبسبورغ المتعصبة. وإن البروتستانت في سيليزيا تطلعوا إلى الأتراك[27]. ويكتب فيشر في المعنى نفسه " الكثير من بروتستانت ترنسلفانيا والمجر فضل العيش تحت لواء الهلال على أن يقعوا في قبضة الجزويت .. وكان هناك ترجيح للأتراك بحجة التسامح الديني، وأكثر معاكسة للنمساويين اضطهادهم بروتستانت بوهيميا" (٢٨). وقد أورد برنارد لويس أن حركة اللاجئين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت من الغرب إلى الشرق، فهروب اليهود الإسبان إلى تركيا معروف للجميع[29].

٣- القدس مدينة للسلام مرة أخرى " صلح الكل" :

ذكرنا سابقاً أن القدس الإسلامية رغم مرارات المحنة مع الصليبيين قد أنتجت مجموعة صوفية تقول بـ" صلح الكل"،

(27) المصدر نفسه، ص ١٣٧

(28) هربرت فشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ترجمة زينب عصمت راشد وعبدالرحيم مصطفى، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٧٤

(29) برنار لويس، الحرب السياسية: تراث الإسلام، القسم الأول(تصنيف شاخت وبوزورث)، ترجمة محمد زهير السمهوري، الكويت ١٩٧٨،ص ٥٢٦-٥٢٧

وتجاوز أبناء إبراهيم لعُقَدهم من بعضهم، والتعرف على بعضهم أكثر فأكثر كأقرباء وليس كأعداء. كانت هذه الرؤية البسطامية الصوفية الخاصة رغم شكلها الصوفي المحدد هي نفسها في مراجعها العميقة الرؤية الإسلامية العامة منذ الفتح العمري. وقد ترجم العثمانيون في مرحلة تألقهم الأول " صلح الكل" الصوفي المتجذر في الرؤيا الإسلامية العميقة لوحدة الأسرة الإبراهيمية ذلك عقلانياً أي بشكل قانوني ممأسس، وهو ما يسمح برؤيا أولية تقدّر أن بعض جوانب الرؤيا الصوفية للقدس هي نفسها الترجمة المعقلنة لها في الحقل المؤسساتي، وقد يكون هذا الرأي خلافياً، إلا أن نصاباً معيناً قد تحقق بالتأكيد له يسمح به ولو في حد أدنى. يعني ذلك أن العلاقة ما بين المقدس والوضعي شديدة التعقيد، وهي ليست بالضرورة علاقة التناقض والمواجهة، بل يمكن أن تكون علاقة تكامل في إطار يرى الديني وظيفة جوهرية من وظائف المدني نفسه. ولعل الرؤية العثمانية الإسلامية في طورها الأول قد تميزت بذلك منظومياً. فمنذ سليم الأول حين قبل رجاء الملك الإسباني الذي عرف في كل " دار الإسلام" بتعصبه المهلك ضد المسلمين، وسليمان القانوني العظيم، رجل القوانين في عالم سادته الفوضى والاضطرابات، استقبل اللاجئون اليهود من الأندلس، وسمح لهم عن طيبة خاطر بل وتشجيع بالإقامة في

جوار مقدساتهم في القدس. فلم يكن المسلمون قط إقصائيين. ولقد حظيت المدينة المقدسة في ظل السلام العثماني المجيد بازدهار كبير، إذ وصل عدد سكانها في منتصف القرن السادس عشر، وتحديداً في عام ١٥٥٣ إلى ما يقرب من ١٣٣٨٤ نسمة، وبلغ تعداد السكان اليهود والمسيحيين حوالي ١٦٥٠ نسمة من كل الطوائف. وقد كانت هذه الزيادة بالقياس إلى نسبتها في المدن الأخرى هامة يومئذ .وشكلت معلماً ثابتاً يتلخص في أن نفوس القدس تتكاثر حيثما كانت مدينة سلام بالفعل وليس بالاسم فقط. وفي ظل السلام العثماني توسعت أسواق المدينة، وازدهرت صناعاتها التقليدية، ولا سيما في مجال صناعات الأغذية والنسيج والصابون والجلود، وانتظمت صناعاتها الحرفية في أربعين طائفة، لكل منها شيخ[٣٠] في إطار نظام الحرف العثماني.

كان اليهود يومئذ متمركزين في ثلاث مناطق سكنية هي الريشة وشرف والمسلخ. وقد تعايشوا بسلام مع المسلمين. وكانت حريتهم الدينية موضع دهشة من الزوار الأوروبيين الذين نظروا إلى المنطقة عبر المخيال "الصليبي" المتعصب، الذي تعوزه المراجع الفعلية الحقيقية. وقد لاحظ الإيطالي اليهودي دافيد داي روس

(30)أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٥٢٦-٥٢٧,

في عــام ١٥٣٥م أنه بلغ الأمــر باليــهــود أن يتــقلدوا المناصب الحكـومـيــة، وهو شيء لا يخطر على بال أحــد في أوروبا. كــان اليهود يتجهون حتى ذلك الوقت للصلاة في جبل الزيتون وعند بوابات الحرم. لكن بعد أن شكلت هجمات البدو في فترة الحكم المملوكي خطراً على تجمعاتهم الظاهرة على جبل الزيتون، فإنهم تحولوا إلى الحائط الغربي للحرم لأداء بعض طقوسهم. وهو الحائط الذي يسميه المسلمون حائط البراق، لأن النبي ربط البراق الذي أسرى به بحلقة الحائط.

كان قد تم إبان العهد المملوكي بناء المدارس على طول ذلك الحائط باستثناء امتداد طوله حوالي اثنين وعشرين متراً بين طريق السلسلة وباب المغاربة. ولم يبدِ اليهود في الماضي قط أي اهتمام يذكر بهذا الجزء من الحائط الذي كان في عهد هيرودوس جزءاً من مركز تجاري ليست له أهمية دينية. لكن هذا الجزء أخذ يحظى بقيمة دينية لدى اليهود اعتباراً من القرن السادس عشر، حين أصدر سليمان القانوني فرماناً يسمح لليهود بالصلاة عند الحائط الغربي. ولقد قام المهندس المعماري العظيم سنان باشا الذي كان يقيم في القدس أثناء بناء سورها، والعمل على إنشاء بوابة دمشق، بتخطيط الموقع وبالحفر كي يتيح للحائط ارتفاعاً أكثر، وقام ببناء

حائط موازٍ له كي يفصل مصلى اليهود عن حي المغاربة. وسرعان ما أصبحت المنطقة المحاطة عند الحائط الغربي مركز الحياة الدينية ليهود القدس. ولم يكن اليهود يقيمون فيها طقوساً رسمياً للعبادة، غير أنهم كانوا يحبون قضاء فترة ما بعد الظهيرة عندها، يقرؤون المزامير، ويقبلون الأحجار. لكن الحائط سرعان ما اجتذب أساطير يهودية كثيرة، فبدأ اليهود يخلعون أحذيتهم عند الدخول للمكان، ويكتبون تمنياتهم على قصاصات من الورق يدخلونها بين الأحجار، كي تبقى تحت نظر الرب، وهكذا أصبح الحائط رمزاً للمقدس وأيضاً رمزاً لليهود[٣١].

لقد كان ذلك جزءاً من سياسة سليمان القانوني التعايشية التي تنطلق من التقليد الإسلامي الراسخ بوصف الإسلام ديناً جامعاً يقبل التعايش مع الأديان الأخرى وليس ديناً مانعاً. ولم تتأثر هذه السياسة بالصراع المرير الذي كان سليمان القانوني يخوضه على أطراف المتوسط والبلقان مع جيوش الامبراطورية الرومانية المقدسة. من هنا لم يتوقف الحج المسيح الأوروبي إلى القدس. أما المسيحيون الشرقيون المقيمون في القدس، فكانوا رعايا ينطبق عليهم ما ينطبق على جميع المشمولين بنظام " الذمة"

---

(31) المصدر نفسه، ص ٥٣٠-٥٣٣.

الإسلامي. إلا أن سليمان القانوني خطا خطوة من موقع القوة سيكون لها أثر خطير على سيادة الدولة العثمانية في مرحلة ضعفها وهي منحه " الامتيازات" لحلفائه الأوروبيين خصوم عدويه البابا وشارل الخامس رأسي الامبراطورية المقدسة، التي كانت تضم اسبانيا وإيطاليا والنمسا وألمانيا والأراضي المنخفضة ومستعمرات ما وراء البحار. وقد مدَّ سليمان القانوني في سياق هذا الصراع يد العون إلى فرانسوا الأول ملك فرنسا، وإلى الحركات المسيحية " الإصلاحية" المنشقة عن كنيسة روما، ووعد سلميان القانوني الأمراء اللوثريين في البلاد المنخفضة وغيرها من المناطق الخاضعة للاسبان بالدعم العسكري، وبالمقابل دعا البروتستانت فرنسا للتحالف مع العثمانيين. من هنا أتت ردة الفعل العثمانية القوية على أبناء مجزرة سان بارتلمي ضد البروتستانت[٣٢]، وزار ممثلو الهوغونت والمعمدانيين الهولنديين والكالفانيين والبرتستانت في عام ١٥٦٣م استنبول، وأقاموا مع الباب العالي علاقة وثيقة بقدر ما ساعدت الحركات المسيحية المنشقة الباب العالي وتعاونت معه في معظم الأحيان[٣٣]. وفي غمرة استعدادات سليمان القانوني للسيطرة على المجر في عام ١٥٢٥م، وصلته رسائل الاستعطاف من

---

(32) عبدالكريم رافق، العرب والعثمانيون، دمشق ١٩٧٤، ص ٨٢,

(33) إيفانوف، المصدر السابق، ص ٢٨٨,

والدة فرانسوا الأول بعد أن أسره شارل الخامس، تقول فيها: " أتضرع إليك أيها الامبراطور العظيم لإظهار كرمك أن تعيد إلّي ولدي[٣٤]. كما أرسل فرانسوا نفسه من أسره في مدريد سفيره " يطلب بكل تواضع أن يهاجم سليمان ملك المجر، أحد حلفاء شارل، ليسترد ما سلبه من الشرف في واقعة بافيا"، فأجابه سليمان مظهراً موقفه الرفيع " لقد أرسلت الالتجاء إلى بابي بيد خادمك فرنجياني، وقد وضع كل قولك هذا أمام أقدام عرشي ملجأ العالم. وقد وصل إلى فهمي الامبراطوري بكل تفاصيله"[٣٥].

وفي عام ١٥٣٥-١٥٣٦م توصل سليمان القانوني وفرانسوا الأول إلى اتفاق تشترك بموجبه فرنسا والباب العالي في هجوم مشترك على إيطاليا. وقد اقترن هذا الاتفاق العسكري - السياسي باتفاق اقتصادي ثقافي سمي فيما بعد بـ" الامتيازات الأجنبية" وقد منح سليمان بموجب الامتيازات الأساطيل الفرنسية التجارية إعفاءات من الرسوم، كما سمح للعثمانيين بالتجارة في جميع الممتلكات الفرنسية، على أن يتمتع الفرنسيون بامتيازات خاصة، فكنائسهم ومحاكمهم وكل قضاياهم الشخصية تكون مستثناة على

---

(34) هارولد لامب، سليمان القانوني، ترجمة شكري محمود نديم، بغداد١٩٦١،ص,١٨٨

(35) المصدر نفسه، ص ,١١٩

الأراضي العثمانية[٣٦]. لقد منح سليمان القانوني هذه الامتيازات من موقع قوة كي يعزز موقع فرانسوا الأول في أوروبا، ولتشجيع الفرنسيين على التجارة مع العثمانيين بعد أن حاول البرتغاليون فرض الحصار على تجارتهم الشرقية. ثم أُعطيَت امتيازات مماثلة للهولنديين والإنجليز البروتستانت، فكانت الامتيازات الممنوحة لفرنسة ثم للهولنديين والإنجليز تستهدف دعم هذه الدول خلال نضالها ضد بابا روما وآل هابسبورغ في النمسا[٣٧]. وقد تعززت الامتيازات التي منحت لفرنسا ببنود جديدة في عام ١٥٥٣م في عهد هنري الثاني ابن فرنسوا الأول، حيث منح سليمان القانوني امتيازاً ثقافياً خاصاً للسفير الفرنسي دامون بزيارة بيت المقدس، ومقابلة الرهبان القساوسة وجعل جميع الكاثوليك المستوطنين في أراضي الدولة العثمانية تحت حماية فرنسا[٣٨].

وهكذا حاز الرعايا الفرنسيون مزايا خاصة، تمثلت بإعفائهم من الخضوع للسلطة القضائية العثمانية، وقام فرنسوا الأول بتعيين قنصل فرنسي للنظر في القضايا المدنية والجنائية بين التجار الفرنسيين والرعايا، وجعلت الامتيازات الفرنسيسكان أوصياء

---

(36) المصدر نفسه، ص ١١٩

(37) أحمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، القاهرة ١٩٩٣، ص ٩٤

(38) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، القاهرة ١٩٩٣، ص ٩٤

رئيسيين على الأماكن المسيحية المقدسة في القدس. لكن ذلك أدى إلى التوتر ما بينهم وبين المسيحيين الشرقيين المحليين، واليونانيين الأرثوذكس. ورداً على ذلك قام بطريرك القدس الأرثوذكسي جرمانوس بتدشين الكونفدرالية الأرثوذكسية للقبر المقدس، وكرس الأرثوذكس أنفسهم رعاة رسميين للأماكن المقدسة المسيحية نيابة عن العالم الأرثوذكسي، بقدر ما قام الفرنسيسكان بتشكيل مجمع ديني لحماية الأماكن المقدسة نيابة عن المسيحية اللاتينية. وبذلك تم ترسيم الخطوط القتالية ما بين الجماعات المسيحية المختلفة للتحكم في القبر المقدس(٣٩). ولا ريب أن الشق الثقافي للامتيازات كان منسقاً مع الطبيعة الجامعة والتعايشية للإسلام، قبل أن تتحول في القرن التاسع عشر إلى وسيلة لإضعاف الدولة العثمانية وتفكيكها وفتح الباب أمام تغير هوية القدس.

(39) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٥٣٦.

تحول خدمة القدس
إلى تقليد عثماني
وإبراز طبقة موظفي المقدس :

استمر اهتمام السلاطين والولاة العثمانيين بالقدس، وكان هذا الاهتمام يأخذ وفق ما تكرس في التاريخ الإسلامي شكل مباراة في خدمتها. بكلام آخر غدت خدمة القدس تقليداً إسلامياً راسخاً، فبعد سليمان القانوني العظيم، قام محمد آغا باشا بإنشاء زاوية للصوفية باسمه، مؤلفة من قاعة تدريس وغرفة طعام وثلاث غرف منامة. وفي سنة ١٥٩٦م، تم بتمويل من الطريقة الصوفية المولوية في أزميت المعروفة بطريقة" الدراويش الراقصين" ، إنشاء جامع المولوية في القدس لتعليم علوم القرآن، وتقديم الطعام مجاناً في شهر رمضان من كل سنة. وغدا التشفع لله ممهوراً بخدمة القدس، مثل متصرف القدس علي آغا الذي قام في عام ١٦٣٧م ببناء قبة يوسف آغا تكريماً لوالده الذي تولى قضاء بورصة[٤٠]. ولا ريب أن الاهتمام بالقدس قد أخذ يشكل عنواناً ثابتاً للسلاطين العثمانيين. فقد تم في عام ١٦٢٢م في عهد السلطان مراد الرابع ترتيب قراء يقرؤون له في الصخرة، كواسطة للتقرب من الله، وطلب التوفيق منه. واتبع غيره من الولاة والأعيان - كما يقول

---

(40) عامر، المصدر السابق، ص ١٠٨.

مجير الدين – خدماته هذه، فرتبوا قراء يقرؤون لهم، ووقّفوا أوقافاً على مصالح المسجد الأقصى وخدمته طلباً لثواب الله تعالى[41].

كما تم في سنة ١٦٥٥م في عهد السلطان محمد الرابع بناء المئذنة الكائنة بداخل القلعة، وإنشاء المصلّى الكائن بين سبيل " نافورة" الشعلان في الحرم القدسي. وفي هذا العهد كان عدد سكان القدس يقترب من أربعين الف نسمة، أكثرهم من العرب المسلمين، وتميزت بصفة المدينة المفتوحة من خلال وجود كنيسة للأرمن فيها، وثلاث كنائس للمسيحيين الروم، وكنيسين لليهود، ومائتين وأربعين محراباً للحديث، وعشر دور للقرآن وأربعين مدرسة للبنين وستة حمامات، وثمانية عشر سبيلاً، وتكايا صوفية لسبعين طريقة منها البدوية والكيلانية والسعدية والرفاعية والمولوية فضلاً عن حماية الأماكن المقدسة للأديان الثلاثة. وتم في سنة ١٧٣١م في عهد السلطان محمود الأول بن مصطفى الثاني تجديد بناء حائط الخندق[42]. وحرص السلاطين العثمانيون خلال هذه الحقبة على ترميم قبة الصخرة، وتم ذلك في عهد السلطان محمود والسلطان عبدالمجيد الثاني والسلطان عبد العزيز في القرن العشرين. وتتمثل أهم الأعمال المعمارية التي أجريت في المسجد

---

(41) الحنبلي، المصدر السابق، ج٢،ص,٤٤٦

(42) العارف، المصدر السابق، ص ,١٠٦

الأقصى بعد السلطان سليمان القانوني في تلك التي تمت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على يد خمسة من السلاطين.

فقد قام السلطان عثمان الثالث في عام ١٧٥٢م بإصلاح القصدير الذي يكسو سقف المسجد الأقصى وكذلك قبة الصخرة، كما قام في الفترة الواقعة بين عامي ١٨٦٧ و١٨٧٤م كل من السلطان محمود الثاني والسلطان عبد العزيز بإجراء إصلاحات وترميمات عامة، وزوّد السلطان عبدالعزيز نوافذ المسجد الأقصى بالزجاج الملون والسجاد الفارسي، كما فرش فيه في عام ١٨٧٦م السجاجيد التي تم صنعها خصيصاً في آسيا الصغرى. أما السلطان عبد المجيد الثاني فإنه وضع شمعداناً كبيراً من الفضة في قبة الصخرة، ثم نقله إلى المسجد الأقصى في عام ١٨٧٦[٤٣].

تم بفضل هذا الاهتمام العثماني المستمر بخدمة القدس، تجديد الكثير من الزوايا والتكايا، وترميم بعضها الآخر، وإعادة الجوامع التي حولت أيام الصليبيين إلى كنائس إلى وظيفتها الإسلامية، فوجد في ساحة الحرم ستة جوامع، وصار عدد الجوامع داخل السور وخارجه ثلاثة وعشرين جامعاً وزاوية، منها سبعة جوامع خارج السور. كما وجد في مدينة القدس خمس عشرة مئذنة، أربع منها داخل الحرم القدسي وإحدى عشرة خارجه. وكثرت الزوايا

(43) السيوطي، المصدر السابق، ج٢، ص١٨٦

والتكايا التي أُعدت لاجتماع الدراويش من مختلف الطرق الصوفية، ولاستقبال الغرباء والزوار المسلمين الذين ينتمون إلى تلك الفرق. وتعد الزاوية المجيدية التي بنيت في سنة ١٨٤٩م شمال ضريح النبي داوود، من أكبر الزوايا وأكثرها ازدحاماً. وفضلاً عن ذلك، دأب العثمانيون على إرسال المدرسين والقضاة إلى القدس بصورة مستمرة، ومنحوا امتيازات كبيرة للراغبين بالذهاب إلى القدس للتدريس في مدارسها أو لتعليم الحديث والقرآن في الزوايا والتكايا. ومنح المدرس راتباً يومياً قدره / ٤٠ /أقجة، ومدرس الحديث والقرآن / ٥٠ /أقجة يومياً، والعالم المكلف بإدارة الزوايا السلطانية / ٦٠ /أقجة يومياً، وسمح لأصحاب الطرق ودعاتها بجمع التبرعات، وإرسالها إلى القدس أو مكة أو المدينة[٤٤]. وقد اضطلعت هذه الزوايا والتكايا بوظيفة أساسية في استيعاب الزوار المسلمين الكثر للقدس، والذين يشبهون في بعض الوجوه الحجاج المسيحيين، ومن هؤلاء المؤرخ والرحالة أحمد المقري التلمساني الذي زار القدس في عام ١٦٢٠م، وما يهمنا هنا مما يسجله في زيارته، هو مستوى انفعاله بقداسة المدينة، فيقول" وقد شملني بفضل الله جوائز الأنعام، وتذكرت عند مشاهدة تلك الأماكن قول ابن حجر العسقلاني:

---

(44) عامر، المصدر السابق، ص١٠٨

إلى بيت المقدس جئت أرجو جنان الخلد نُزْلاً من كريم

قطعنا في مسافته عقاب وما بعد العقاب سوى النعيم

فلما دخلت المسجد الأقصى، وأبصرت بدائعه التي لا تستقصى بَهرَني جماله الذي تجلى الله به عليه. وسألت عن محل المعراج الشريف، فأرسلت إليه، وشاهدت محلاً أمَّ فيه (ﷺ) الرسل الكرام الهداة، وكان حقي أن أنشد هنالك ما قاله بعض الموفقين:

إن كنتَ تال أين قد رُ محمد بين الأنام

فاصغْ إلى آياته تظفر بربك في الأوام*

أكرم بعبد سلّمت تقديمه الرسل الكرام

في حضرة للقدس وا فاها بعز واحترام

صفوا وصلّوا خلفه إن الجماعة بالإمام

للشهب نور به والفضل للقمر التمام

سلك النبوة باهر وبأحمد ختم النظام"(٤٥)

وقد كان بعض زوار القدس يحرصون على أن يدونوا

---

* الأوام: العطش.

(45) شراب، المصدر السابق، ص ١٩٥.

مشاهداتهم للأماكن الإسلامية المقدسة وانفعالاتهم المستثارة حولها، مثل إبراهيم الخياري الذي زارها في كانون الأول / ديسمبر ١٦٧٠م. وكتب على إثرها " تحفة الأدباء وسلوك الغرباء"[٤٦]. وقد كانت قدس أواسط القرن السابع عشر مركزاً لعدد كبير من الأعيان والعلماء والأشراف والفضلاء ومن مريدي الطريقة المولوية الذين وصفهم أوليا شلبي (ت١٦٧٩م) حين زيارته القدس، ولا ريب أن مكانة المدينة المقدسة كانت عاملاً أساسياً في جذب هؤلاء كي يختاروا القدس مكاناً لحياتهم وحشرهم بعد موتهم وفق المفهوم الإسلامي عن القدس بوصفها أرض الحشر في نهاية العالم. ومن هنا لم يكن مفارقة تبعاً لذلك أن يكثر عدد موظفي المقدس الإسلامي، إذ أحصى حاكم القدس في عام ١٦٧٠م عدد أهل الوظائف في الحرم القدسي بألف رجل يأخذون رواتبهم من الذهب الذي يأتي به أمين الصخرة كل عام من الآستانة[٤٧]. وقد شكل هؤلاء نوعاً من طبقة محترفة يمكن وصفها بطبقة موظفي المقدس. وقد لاحظ نجم الدين الغزي (ت ١٦٥١م)، وهو صاحب " الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة" أي بالقرن السادس عشر الميلادي، ومحمد أمين المحبي في "

---

(46) رافق، المصدر السابق، ص ٧٥٢.

(47) شراب، المصدر السابق، ص ١٩٦-١٩٨.

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" أي القرن السابع عشر الميلادي أن عدد علماء فلسطين كان (٦١ عالماً في القرن السادس عشر و ٦٧ عالماً في القرن السابع عشر) تستأثر القدس بأكثر من نصفهم، ويقومون بإدارة الوظائف الدينية التقليدية، فضلاً عن حلقات التصوف، وشيوع الاعتقادات والكرامات الشعبية بين مريديها حول الكرامة عموماً وكرامة القدس خصوصاً، إذ غدت الأعداد الكثيرة للمتصوفة حتى القرن الثامن عشر من نوع حلقات" الخلوة" أو المنقطعة للتصوف(٤٨).

الوصف العلوي للقدس :

يتميز الوصف العلوي للقدس في الفترة العثمانية عن وصف الرحالة التقليديين في أنه وصف دلالي يمكن وضعه في إطار التجربة الإشراقية الانخطافية التي هي نوع من أنواع التجربة الشعرية العليا. إذ لا يتصل هذا الوصف بالمعنى الظاهر للقدس كمكان فيزيقي بل بمعنى المعنى أو معناه كمكانٍ روحي. ولقد كانت معظم الزيارات تستهدف ملامسة هذا البعد الروحاني الإسلامي للقدس، وهو ما نجده في ما كتبه مصطفى أسعد

(48) رافق، المصدر السابق، ص ٧٩٧-ر٨٠٤

اللقيمي عن رحلته إلى القدس في عام ١٧٦٥م، وسمى رحلته كتاب " الأخصا في فضائل المسجد الأقصى" للسيوطي، و " الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" لعبد المجير الحنبلي. وقد جذبته العيون التي بات اللاشعور الإسلامي الجماعي يعتبرها مقدسة مباركة من الله، ويعددها بعين سلوان وعين بيسان وعين عكا التي هي مع عين زمزم على حد تعبيره من العيون الأربعة التي اختارها الله. وكانت مشاهد ما سماه بـ" الخلاصة الأبرار" في مقبرة ماملاً (مأمن الله) لحظة لإقامة الحوار ما بين الأرض والسماء. ولقد توج انفعاله بانتظامه في عداد أهل الطريقة (الخلوية)[٤٩] الصوفية. غير أننا سنجد نمذجة لزوايا رؤية هذا الوصف في الوثيقة التي تركها المتصوف الكبير الشيخ عبدالغني النابلسي الذي زار القدس في عام ١٦٩٠م وكتب حول تلك الزيارة " الحضرة الأنيسية في الرحلة القدسية"، ويشير هذا الوصف إلى شكل الطقوس الإسلامية الشعبية التي أحاطت بالقدس، حيث يذكر أنه التقى في مزار أو زاوية الشيخ الجراح في القدس بجماعة من المشايخ والأعيان، ويصف الصلاة في الحرم القدسي، وطوافه في أرجائه داعياً متبركاً، وتحدث عن الصخرة الشريفة، فقال" أول ما زرنا الصخرة فرأينا أمراً عظيماً على

(49) المصدر نفسه، ص ٧٧٦-٧٧٨,

أسلوب هائل، وهيكلاً مباركاً، يحوي أنواع الفضائل، وهي الصخرة العظيمة والدرة الثمينة، فدرنا حولها، والتمسنا فضلها.. ودعونا الله عند رؤيتها بما تيسر لنا من الأدعية المقبولة، والتوسلات المطلوبة المأمولة، .. وهناك محراب لطيف على أعمدة الرخام متصل بالداير الخشب الذي يحيط الصخرة. ويسمى هذا المحراب بمحراب الخضر.. ثم دخلنا تحتها وصلينا في ذلك المجال بعد نزولنا إليه بأربع أو خمس من الدرجات مع الإكرام والإجلال. فصلينا ركعتين في تلك المغارة المباركة، التي ما تزال مهبطاً لأنوار الملائكة.. وفي داخل المغارة قناديل كثيرة يوقدونها بين العشائين.. واعلم أن الصخرة هي في وسط المسجد على الصحن الكبير المرتفع في أرض المسجد وعليها بناء في غاية الحسن والإتقان، وهي قبة مرتفعة... ثم ذهبنا لزيارة محل البراق، وهو على يمين الخارج من باب المسجد الذي عند جامع المغاربة ينزل إليه بدرج طويل قليل العرض، وعلى الميسرة مكان هناك يقال أنه ربط به البراق ليلة الإسراء. وهو بيت مسكون ففتح لنا الخادم. ودخلنا فرأينا مكاناً معتماً ومسجداً صغيراً، ووجدنا حلقة كبيرة في الحائط يقال ربط بها البراق"(٥٠).

تدهور القدس والتلاعب

(50) شراب، المصدر السابق، ص ١٩٨–ر٢٠٠

الغـربي بمصـيـرها : محنة حائط البـراق والهجرة اليهودية

ظلت الطريق إلى القدس آمنة طيلة فترة " السلام العثماني " ، ولم يختل هذا الأمن بصورة مؤثرة إلا في القرن الثامن عشر، مع أن فلسطين بقيت نقطة وصل في الطريق التجاري ما بين الشام ومصر، وطريق قافلة الحج التي كانت تمر فيها على الطريق الغزاوي[٥١]. ويعبر وصف ج.براون الذي زار القدس في عام ١٧٩٧م عن تدهور وضع المدينة، إذ شاهد فيها كثيراً من الشحاذين، ولم ير من الصناعات إلا صناعة الأدوات التذكارية، وخللاً كبيراً في الأمن بسبب الوحدة العثمانية الصغيرة الموضوعة تحت تصرف متسلم القدس الذي ما كان بإمكانه السيطرة على البدو بهذه القوة الضئيلة. ومن هنا تناقص عدد سكان القدس في سياق تناقص عدد سكان الدولة العثمانية، ووصل في زمن زيارة براون إلى حوالي عشرين ألف نسمة[٥٢]. لكن العوامل الخارجية ستلعب دوراً حاسماً في إخضاع التعايش التعددي المقدسي إلى مبدأ النفوذ الإيديولوجي الخاص، ولم يكن هذا النفوذ المسيحي

(51) رافق، المصدر السابق، ص ٨١٥.

(52) المصدر نفسه، ص ٧٧٦.

أو اليهودي يشكل خطراً بحد ذاته إذ أن المبدأ الإسلامي يسمح به في شروط معينة. لكن خطورته تولدت من ارتباطه بالنفوذ السياسي، وتحويل حلقات التعايش في القدس إلى أماكن خطرة للتوسع والتوازن ما بين الدول. ففي سنة ١٦٣٦م سمح السلطان مراد الرابع في إطار خط "التنظيمات" للآباء الكرمليين بالسكن في حيفا، وبناء كنائس وأديرة على جبل الكرمل(٥٣). وتمكن الفرنسيون في عام ١٧٣٢م من تجديد امتيازاتهم الدائمة كحماة رسميين للكاثوليك في الامبراطورية العثمانية، ومنح لهم حق رعاية القبر المقدس، قبر العذراء في وادي قدرون. وهو ما أثار المسيحيين الشرقيين، من هنا استغل السلطان انشغال الفرنسيين بحرب السبعة أعوام، وأصدر في عام ١٧٥٧م فرماناً يعطي حق رعاية القبر المقدس لأتباع الكنيسة اليونانية. غير أن روسيا القيصرية الأرثوذكسية استغلت هزيمتها للعثمانيين في عام ١٧٧٤م وأعلنت نفسها حامية للأرثوذكس في الامبراطورية العثمانية(٥٤).

اكتسبت عملية دمج النفوذ الثقافي مع النفوذ السياسي

---

(53) عامر، المصدر السابق، ص ١١١

(54) أرمسترونغ، المصدر السابق، ص ٥٥٥

الأوروبي في القرن التاسع عشر أبعاداً خطيرة حين أصبح الغرب في سياق ما سمي بـ" التوازن الدولي" عاملاً حاسماً في تقرير مصير فلسطين عموماً والقدس خصوصاً. وبغية كسب حياد الدول الأوروبية في خطته التوسعية، حاول محمد علي باشا والي مصر في ثلاثينات القرن التاسع عشر أن يكسب حياد الدول الأوروبية بتشجيع الاستيطان في القدس، ومكّن القناصل الأوروبيين من دخولها، مما أثار حفيظة السكان المحليين. إذ عمل هؤلاء القناصل مثل القنصل الإنكليزي المساعد يونغ على إيجاد سند محلي لإنكلترا في القدس، فنصبت إنكلترا نفسها حامية لليهود والأوروبيين(٥٥). وليس هنا محل تحليل وضع القدس في إطار صراعات القرن التاسع عشر لكن يمكن القول إن السياسة المقدسية قد أخذت تتبع هنا بشكل دقيق توازنات الصراع الدولي، واتجاهات المصالح والدسائس السياسية وليس إلى جلال هذه المدينة المقدسة، وإلى الحفاظ عليها بوصفها" صلح الكل" بين أبناء إبراهيم في الأرض. وقد انعكس ذلك نفسه على التعايش في المدينة المقدسة، وبرز ذلك في مشكلة ستتجدد باستمرار وهي المشكلة ما بين اليهود والمسلمين حول " جائط البراق" الحائط الغربي للحرم. إذ حاول اليهود تبليط المكان المحاذي للحائط ورفع

---

(55) المصدر نفسه، ص ٥٧٨

أصواتهم عنده، فتقدم شيخ المغاربة في القدس بعريضة إلى حكمدار حلب جاء فيها " أن عبدكم شيخ فقراء المغاربة المجاورين في الحرم الشريف، وفي زاوية أبا مدين أفندم.. حارة عبيدكم (المغاربة) ملاصقة إلى حائط الحرم الشريف الذي ربط في البراق ليلة الإسراء البهية، واليهود من قديم يزورون تلك الحائط زيارة في الأسبات (أيام السبت) من غير رفع أصواتهم وإظهار مقالهم" ثم يشكو شيخ المغاربة، أن اليهود زادوا من عدة سنوات في أذيتهم " برفع أصواتهم، وكثرة جمعياتهم بحيث أن ذلك المحل المذكور كل صباح يظن أن به كنيسة، والآن مرادهم بناء الأرض الموجودة بالمحل المذكور بالبلاط لتوصلهم إلى مآربهم" ، ويطلب أخيراً في معروضه "ألا تحدث لهم مرغوبهم في لصق حائط البراق الشريف" وقد رد مجلس شورى القدس بقرار هذا نصه" رؤي أن المحل المذكور الذي مراد اليهود أن يبلطوه، فهذا أولاً ملاصق لسور الحرم الشريف، ومحل ربط البراق الشريف، والثاني أنه ليس لهم به حق حيث أن هذا المحل هو طريق مستمر في حارة المغاربة يتوصل به إلى دور وقف سيدنا أبي مدين الغوث قدّس سره، وثالثاً أنه ما سبق لليهود، أن عمروا تلك المحلة مطلقاً ولا يجوز شرعاً أن الأجنبي يعمر في ملك الغير، وخصوصاً أن طائفة اليهود ليس لهم شرعاً أن يحدثوا شيئاً زيادة القديم، بل أن يبقى القديم على قدمه" ، ثم أتى

جواب حكمدار حلب وجواب محمد علي باشا حين رفع له اليهود شكواهم بـ" وجوب منع اليهود عن تبليط البراق في القدس، وعن رفع أصواتهم فيه، وإبقاء القديم على قدمه عملاً بنصوص الشارع الشريف"(٥٦). ولن نستطرد هنا إذا ما أشرنا إلى أن قواعد العقد التعايشي ما بين اليهود والمسلمين في القدس قد ظلت مرعية لقرون، إلا أن اتخذ اليهود من ظل السياسة الإنكليزية التي تمثلت وظيفتها الأساسية بموجب صك الانتداب على فلسطين برعاية قيام " الوطن القومي اليهودي" كحل أوروبي للمسألة اليهودية على حساب العرب، موقفاً "هجومياً" على هذا الموقع، وما يجاوره من مقدسات إسلامية، وصار العرب المسلمون في موقف " دفاعي" عن" حائط البراق" .

احتدمت المجابهة ما بين الطرفين في عام ١٩٢٩م، وبناء على طلب بريطانيا شكلت "عصبة الأمم" في أيار/مايو ١٩٣٠ لجنة لدراسة الموقف من لوفغرن وزير خارجية أسوج سابقاً، وشارل بارو رئيس محكمة العدل في جنيف، وفان كميل عضو البرلمان الهولندي. ولعل تقرير هذه اللجنة يضيء بعض جوانب علاقة المسلمين واليهود على حد سواء بهذا الحائط، ويذكر التقرير أن

(56) شراب، المصدر السابق، ص ١٨٢–١٨٩،

ممثلي المسلمين قد قالوا للجنة " أن المسألة التي نبحث فيها الآن تدور حول ملك مازال في تصرف المسلمين منذ قرون عديدة (أي منذ أربعة عشر قرناً)، فالبراق جزء لا يتجزأ من الحرم الشريف، وليس فيه حجر واحد يعود إلى عهد الملك سليمان، والممر الكائن عند الحائط ليس طريقاً عاماً، ولكنه أنشيء فقط لمرور سكان حارة المغاربة، وغيرهم من المسلمين في ذهابهم إلى مسجد البراق، ومن ثم إلى الحرم الشريف. والمنطقة التي حوله يقطنها مسلمون من المغاربة ممن جاؤوا إلى المدينة المقدسة للحج، أو لقضاء ما بقي من حياتهم فيها. وبالتالي فهذه المحلة إسلامية بحتة، ولن يرضى العرب على الإطلاق نزع ملكيتها لصالح اليهود، الذين يرومون إنشاء كنيس في ذلك المكان، وبما أنه ليس لليهود حقوق في ذلك المكان، فإن وجودهم عند الحائط في أيام معلومة لا يعني سوى أنه من قبيل التسامح الديني الذي أبداه نحوهم المسلمون"[٥٧].

ويذكّرون بسورة الإسراء، وبإسراء النبي إلى المسجد الأقصى، وأن المسلمين في الزمن الأول في الإسلام كانوا يولون وجوههم شطر القدس عند الصلاة، وذلك قبل أن يتوجهوا إلى قبلة بيت الله الحرام في مكة. وهو ما يوضح القدسية الخاصة للحرم الشريف. أما

(57) وليد الخالدي(تقديم)، تقرير اللجنة الدولية المقدمة إلى عصبة الأمم عام ١٩٣٠ (الحق العربي في حائط المبكى في القدس)، بيروت ١٩٦٩ ،ص,٤١

تقديس الحائط والرصيف، فآت من أنه محل البراق، نزل فيه النبي، ومرَّ به ثم ربط براقه في الحائط نفسه ليلة الإسراء، وبناء على تقديس المسلمين لهذا المحل وقف أصحاب الأملاك المجاورة أملاكهم، فأنشئت فيها الزوايا والبيوت للحجاج المغاربة[٥٨]. وقد قررت اللجنة بعد أن استمعت إلى كافة الأطراف ما يلي:

١- للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي، ولهم وحدهم الحق فيه لكونه يؤلف جزءاً لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف، التي هي من أملاك الوقف. وللمسلمين أيضاً تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط، وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط لكونه وقفاً حسب أحكام الشرع الإسلامي، لجهات البر والخير.

٢- لليهود حرية السلوك إلى الحائط الغربي لإقامة التضرعات في جميع الأوقات مع مراعاة الشروط الصريحة المشار إليها: التعليمات التي أصدرتها إدارة فلسطين بشأن استعمال الأدوات. ولا يجوز جلب أية أدوات عبادة إلى جوار الحائط. ويمنع جلب أية خيمة أو ستارة أو ما شابهها بنفخ البوق (الشوفار) بالقرب من الحائط، ولا أن يسببوا أي إزعاج

---

(58) المصدر نفسه، ص ١٠٥-١٠٨.

للمسلمين.. ومحظور إلقاء الخطب والمظاهرات السياسية[٥٩].

لقد تمت محنة حائط البراق، في شروط غدا فيها اليهود مدفوعين بإرادة تهويده واحتكار رأسماله الرمزي، ولم يكن ذلك ممكناً لولا إدخال صراع القوى الغربي المدينة المقدسة في نسق "الامتيازات" الأجنبية، التي استغلت لتفكيك الدولة العثمانية. وقد عززت القوى الغربية نسق الامتيازات في قانون " التنظيمات" العثمانية (الذي صدر أول مرة في عام ١٩٣٨م تحت اسم خط كلخانة الشريف، كما أكد في عام ١٨٥٦م في خط همايون كشرط للحفاظ على الدولة العثمانية واعتبارها جزءاً من التوازن الداخلي الأوروبي في القرن التاسع عشر). كان هذا القانون يستهدف في مواده الظاهرية تحديث السلطنة العثمانية وإعادة بنائها بشكل عصري، إلا أن الأوروبيين " نظروا إليها على أنها " حرب صليبية سلمية"، وكان ذلك تعبيراً يكشف رغبة الغرب في الغزو والهيمنة"[٦٠]. ولقد تم في سياق " التنظيمات" توسع الامتيازات المسيحية، غير أن وقوع هذا التوسع في نسق المطالب الأجنبية الأوروبية يبعده عن مفهوم الحرية الدينية الذي ضمنه

---

(59) المصدر نفسه، ص ١٠٥-١٠٨.

(60) ارمسترونغ، المصدر السابق، ص٥٧٨.

الإسلام عبر أربعة عشر قرناً. ففي إطار هذا النسق استطاعت راهبات صهيون القدوم إلى بيت المقدس في عام ١٨٤٨م، وبنَين كنيسة وميتماً ومدرسة، كما بنَينَ في عام ١٨٧٧م مدارس جديدة. وفي عام ١٨٥٥م قدم السلطان عبد المجيد إلى نابليون الثالث الثكنة العثمانية، فحولها الأخير إلى كنيسة، وفي سنة ١٨٨٦م سمح السلطان عبد الحميد الثاني لراهبات المحبة بالقدوم إلى القدس، فَبنَيْنَ دوراً للأطفال والأيتام والعجز. وسمح لراهبات السجود في عام ١٨٨٨م بالقدوم إلى القدس، وكذلك للأحباش في عام ١٨٩٠م، والذين بنوا دير الحبش بجوار كنيسة القيامة فوق مغارة الصليب[61]. وفي سنة ١٨٦٨م أهدى السلطان عبدالعزيز فريدريك ويلهلم ولي عهد بروسيا بيمارستان صلاح الدين أو جزءاً منه، فأنشأ عليه الألمان كنيسة المخلص، التي سماها العرب كنيسة الدباغة، وأهدى السلطان عبد الحميد الثاني الامبراطور غليوم الثاني في عام ١٨٩٨م أثناء زيارة الأخيرة القدس، قطعة أرض من جبل صهيون، فبنى عليها كنيسة[62]. ولكن المشكلة الإسلامية مع هذا التوسع المسيحي لم تكن أساسية أو مصدر توترات مؤذية، إذ كان ينظر إليها رغم أنها تمت في إطار نسق

(61) عامر، المصدر السابق، ص ١١١

(62) شراب، المصدر السابق، ص ١٩٢

المطالب الأجنبية في إطار التسامح الديني الإسلامي التعايشي مع الديانات الأخرى. أو كان يمكن استيعابها كذلك. لكن القدس خصوصاً وفلسطين عموماً كانت تتعرض للخطر الأكبر، وهو خطر الهجرة اليهودية المنظمة من قبل مجموعات يهودية عديدة أخذت تقف على رأسها منظمة قومية يهودية علمانية هي المنظمة الصهيونية، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر أخذ شراء المتمولين اليهود للأراضي بطرق مختلفة يرتفع باطراد مع زيادة أعداد المهاجرين، لا سيما مع الهجرة الكبرى في عام ١٨٨٢م بعد المذابح القيصرية ضد اليهود في روسيا.

ورغم ضعف الدولة العثمانية واختراق الإرادات الأوروبية لبيروقراطيتها الحاكمة، فإنها وجدت نفسها مضطرة للتأكيد بموجب أوامر إلى السلطات المحلية للتأكد من هوية المشترين. لكن جرى دوماً التلاعب بذلك، وكانت القدس محور التلاعب. فهنا تمكن اليهود المشمول معظمهم بالحماية البريطانية في إطار نظام "الامتيازات" المعترف به في "التنظيمات" من شراء مزيد من الأراضي ومن السيطرة على التجارة والبناء عن طريق التعاونيات[٦٣]. ولقد لعبت ضغوط القناصل الأوربيين، ولا سيما

(63) رافق، المصدر السابق، ص ٨٦٣-٨٦٩،

القنصل البريطاني، وفساد الجهاز الإداري العثماني دوراً في إضعاف المقاومة العربية للهجرة[٦٤]. وفي سياق ذلك تملك اليهود في عام ١٨٥٤م في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١م) أول أرض في المدن الفلسطينية، وهي القطعة التي بني عليها حي "مونتيفوري" في القدس، نسبة إلى مونتيفوري البريطاني الذي زار القدس، وشجع الاستيطان اليهودي ودعمه. وفي عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦م) منحت الحكومة اليهود قطعة أرض لإقامة مدرسة زراعية عليها بالقرب من يافا، ولقد كان ثمن ذلك باهظاً إذ أُرهق الفلاحون الفلسطينيون بالضرائب، واستُولي على أراضيهم بنتيجة العجز عن التسديد. وآلت هذه الأراضي إلى اليهود القادرين[٦٥].

رغم ذلك حافظ السلاطين العثمانيون حتى في مرحلة "الامتيازات" أي في مرحلة تحويل الدولة العثمانية نموذجياً إلى دولة شبه مستعمَرة على مواصلة التقليد الإسلامي الراسخ منذ ثلاثة عشر قرناً على الأقل بخدمة القدس. ولا نعني هنا التحديثات التي أضيفت إلى القدس بعامل سياسة التحديث العثمانية النسبية العامة بقدر ما نعني الاهتمام الخاص بالقدس لأجلها. فأنفق في

(64) شوفاني، المصدر السابق، ص ٢٩٩-، ٣٠٠

(65) شراب، المصدر السابق، ص ١٨٩-، ١٩٠

عهد السلطان عبد العزيز على عمارة الحرم وزخرفته ثلاثون ألف ليرة عثمانية، وتم بناء المسجد العمري على مقربة من كنيسة القيامة. وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م) الذي وقف بحزم إزاء المطالب الصهيونية القومية، لكنه كان مثل المريض الذي يقاوم في ظروف يائسة، وأصدر قانوناً في عام ١٨٨٢م بتحريم الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وبيع الأراضي لليهود في فلسطين. غير أن هذا القانون عدل تحت الضغط الأوروبي. ولكن السلطان عبد الحميد حافظ على التقليد الإسلامي بخدمة القدس بحد ذاتها، وأنفق على عمارة الحرم القدسي ثلاثين ألف ليرة عثمانية[٦٦].

إن تاريخ الاستيطان اليهودي الغربي في فلسطين، وتاريخ مقاومته معروف للغاية. وليست وظيفة كتابنا استعراض هذه المرحلة من الغزو والمقاومة. لكن المسلمين أصبحوا منذ أن استعادوا القدس من الصليبيين، وحرصوا بحكم منطلقاتهم الدينية العقائدية أن تكون مدينة مفتوحة، وأكدوا حقيقة أن السلام الإسلامي كان سلاماً لكل أبناء إبراهيم، في موضع المهدّدين والمدافعين عن سلامة مقدساتهم في هذه الفترة، وهو ما تعبر عنه نبوءة يوسف الحكيم.

---

(66) العارف، المصدر السابق،ص١١٩-،١٢٠

نبوءة يوسف الحكيم :
" صلح الكل" يتصدع

لقد زار يوسف الحكيم القدس في عام ١٩١٠م، وكتب أن المسلمين في القدس والقادمين إليها من فلسطين والعالم العربي، يحتفلون بزيارة النبي موسى شرقي القدس. كانت هذه الزيارة قد أضحت طقساً أسلامياً شعبياً مقدساً منذ أيام المماليك حين كان " صلح الكل" رؤية للتعايش بدلاً من المجابهة الدموية والقتال المرير. وكان المسلمون يمشون وفق مفهوم الزمن في تلك الأيام مسافة نهار على الأقدام، بأهازيج وأدعية وابتهالات ورايات وأعلام موشاة بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية. ولعل معنى " صلح الكل" يتبدى في أن هذا الطقس الإسلامي الدوري الذي يحتفل بموسى نبي إسرائيل، كان متزامناً مع الأسبوع الذي يحتفل فيه المسيحيون بعيد الفصح، حيث تكون القدس قبلة الحجاج من كل أصقاع الدنيا. لكن احتفال المسلمين في عام ١٩١٠م بطقس يعكس رؤيتهم لـ" صلح الكل" اصطدم بحادث خطير ومرير للرؤية التعايشية التعددية، ويتلخص ذلك في أن الموكب الإسلامي المهيب قد سمع بعد أن عاد موكبه الاحتفالي من مقام النبي، بأن بعثة بريطانية تنقب سراً في حرم المسجد الأقصى وتحت القبة. وانقلب موكب المحتفلين فور عودته للقدس إلى تظاهرات وهتافات

عنيفة على أولياء الأمر صغاراً وكباراً[٦٧]. إن هذه الحادثة التي تتعلق شكلاً بخبراء علمانيين في الأركيولوجيا لغايات لاهوتية تتعلق فعلياً بالأصل الأسطوري أو اللاهوتي المؤسّس قد كشفت عن حقيقة الموقع " الدفاعي " الذي وجد فيه المسلمون أنفسهم، وهم يستشعرون التلاعب بمقدساتهم. ورغم هذا التوتر فإن الحكيم يحدثنا من خلال مشاهداته في القدس ١٩١٠م أن اليهود قسمان: سفراد (سفراديم) واسكناج (أشكيناز)، ويشمل السفراد اليهود العرب الذي يمت قسم منهم إلى اليهود القادمين من الأندلس بعد حرب الاسترداد المسيحية، في حين يشمل السكناج الأوروبيين المقيمين من ألمانيا والنمسا وروسيا وأميركا الشمالية وبعض المدن الأوروبية الأخرى أي ما يعرف حالياً باليهود الغربيين. ولم يتجاوز عدد السفراد (السفراديم) وفق الحكيم من قديم الزمن عشرين ألفاً، منهم خمسة آلاف مقيم في القدس، وأغلبهم فقراء. في حين أن عدد السكناج (الأشكيناز) عدد كبير، وقد استوطن بعضهم في ضواحي القدس خارج السور وفي المدن الفلسطينية الأخرى، وظلوا محافظين على جنسياتهم، وكان بينهم وبين إخوانهم السفراد (السفراديم) وفق الحكيم " تزاحم "،

(67) يوسف الحكيم، سوريا في العهد العثماني، بيروت ١٩٦٦، ص١٩٨

ثم يختتم الحكيم مشاهداته بقوله " مما يجدر ذكره أن أهل القدس " العرب" الودعاء كانوا يبادلون مواطنيهم اليهود (السفراديم) عواطف المودة والإخاء، دون أن يخطر لهم ببالهم، وهم في عام ١٩١٠، أنه سيأتي يوم يقصيهم فيه عن ديارهم اليهود النازحون من شتى أقطار العالم، فيصبح أصحاب البلاد لاجئين في الأقطار العربية"(٦٨).

لقد تحققت النبوءة التي خشاها يومئذ الحكيم بكل حذافيرها، واقتلع الفلسطينيون من أرضهم، وأرغموا على أن يعيشوا كلاجئين. وتم ذلك وسط تعقيدات لم يكن فيها العرب المسلمون " معادين للسامية" إذ يعتبرون أنفسهم ساميين، ويعتبرون أنبياء بني إسرائيل أنبياء لهم. ولقد قامت الدولة اليهودية على حساب شعب كامل له جذوره الحقيقية، وارتباطاته الميثولوجية المطلقة بالمكان، وسلالته المستمرة في الأرض، وتم ذلك عبر سلسلة مذابح ومجازر، اعترف الإسرائيليون ببعضها، وما زال معظمها طي الكتمان. غير أن هذه النبوءة لن تستكمل نفسها إلا بنبوءة أخرى أكثر حدة، وهي أن هؤلاء العرب المسلمين البسطاء الذي اقتلعوا من أرضهم، وهم يحتفلون سنوياً بزيارة النبي موسى، ويقدسون

(68) المصدر نفسه،ص ١٩٩-ر٢٠٠

كل مقدسات اليهود والمسيحيين، ويرون الإسلام دوماً فضاءً للتعايش والسلام وليس للمجابهة والشرور، ضحايا مطلقين ليس لليهود بل للدولة العبرية، التي ستبقى بكل أجيالها مسؤولة عن محنة الفلسطينيين.

خاتمة

لقد حاولنا أن نحلل موقع القدس في المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدسة منذ بدء اللحظة النبوية وحتى أواخر العهد العثماني في القرن العشرين، مستندين إلى نصوص القرآن والحديث، وملاحقين أشكال التعابير الرمزية والعمرانية والطقسية عن تعلق المسلمين بالقدس على مدى أربعة عشر قرناً. ولقد حرصنا على تحليل هذا الموقع في ضوء مقاربات ومداخل منهجية متعددة ترى المقدَّس بعداً من أبعاد المدني الدنيوي، وتنظر إلى تفاعل مدوناته مع أشكال السلوك والنظم الأنتروبولوجية والرمزية والطقسية الإسلامية المختلفة التي مثلت قيماً مضافة، وتغلغلت في اللاشعور الجمعي الإسلامي. ولقد ركزنا على حقيقة أن الإسلام بوصفه ديناً جامعاً لا ديناً مانعاً، أي ديناً يقبل التعايش مع الأديان السماوية الأخرى في بنية تعددية، قد قدَّم نموذجاً لإمكانية أن تكون المدينة المقدسة" صلح الكل" بين أبناء إبراهيم في الأرض.

ولم يشعر المسلمون في إطار الطبيعة الجامعة التعايشية لدينهم بأنهم في موقع التحفز والدفاع عن المدينة المقدسة إلا في مرحلتين داميتين هما المرحلة الصليبية والمرحلة الصهيونية. ولقد تحولت المرحلة الصليبية إلى لحظةٍ في تاريخ المنطقة في حين أن المرحلة الصهيونية ما زالت مستمرة بكل مفعولاتها الكارثية التي شكل اقتلاع الفلسطينين الراسخي الجذور من أرضهم، وتهجيرهم وتحويلهم إلى لاجئين أو إلى أقلية مهمشة، ومحاولة تهويد القدس في استعادة معاصرة لمنهج الصليبيين البائدين في إقصائهم للآخر، ومسخ مقدساته وتشويه أمكنته. لقد كان الوعي الإسلامي بموقع القدس في المنظومة الجغرافية المقدسة خلال أربعة عشر قرناً شديد التركز، وامتلكت فيه القدس ديناميات ذاتية داخلية مشعة، غدت فيه محل قيمٍ عليا مضافة. وقد تعزز الوعي في المرحلة الصهيونية المعاصرة لدى مجمل العرب بمن فيهم العلمانيون واللادينيون بأهمية تكريس الموقع الإسلامي المميز للقدس في قضية الكفاح الشاق والعادل الذي يخوضه العرب ضد إسرائيل، وبشكل غدا فيه مبدأ القدس أولاً عنصراً أساسياً مفتاحياً في عناصر هذه القضية، التي تكرس المفهوم الإسلامي للقدس بوصفه مفهوم سلام ما بين أبناء إبراهيم في مواجهة سياسات طمس وتهويد الهوية العربية - الإسلامية للقدس. وصحيح أن هذه الهوية ما زالت

تؤكد بوضوح عالٍ رسوخها إلا أن هذا الرسوخ يتطلب تأكيد الوعي العربي - الإسلامي بالقدس في مواجهة سياسة التهويد المنهجية العاتية التي تندرج اليوم فيما يعرف في المفاهيم الدولية بـ" الإبادة الثقافية" . وإن حماية المدينة المقدسة بهذا المعنى وجعلها مدينة لكل أبناء إبراهيم هي قضية عربية - إسلامية وعالمية كي تكون القدس مدينة سلام و " صلح الكل" بالفعل وليس بمجرد الاسم.

المراجع

- ابراهيم، د. محمود: فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت ١٩٨٥

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، إثنا عشر جزءا"، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧

- ابن تيمية، رسائل إبن تيمية، ج٥، تحقيق رضا-محمد رشيد، ط١، مطبعة المنار، القاهرة١٣٤٩هـ.

- ابن حنبل الإمام أحمد: المسند، الجزء الرابع والخامس والسادس، القاهرة١٣١١هـ.

- ابن شداد، القاضي بهاءالدين: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، ١٩٦٢

- ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، ج١، حققه زكار-سهيل، دمشق، ١٩٨٨

- ابن عساكر، الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي: تهذيب تاريخ دمشق الكبير، رتبه بدران-الشيخ عبدالقادر، ج١، ط٢، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩

- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ :البداية والنهاية، ١٢ جزء، ط١، مكتبة المعارف والنصر، بيروت والرياض، ١٩٦٦م
- ابن منقذ، كتاب الأعتبار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دون تاريخ.
- ابن هشام، السيرة النبوية، القسم الأول والثاني، تحقيق السقا-مصطفى و شبلي-عبدالحفيظ و الأبياري-إبراهيم، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥م
- ابن واصل، جمال الدين محمد :مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، أربعة أجزاء، تحقيق الشيال-جمال، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧م
- أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي :عين الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، قسمان، حققه البسيوني-أحمد، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل :المختصر في تاريخ البشر(تاريخ أبي الفداء)، أربعة أجزاء، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.
- أرمسترونغ، كارين: (القدس :مدينة واحدة وعقائد ثلاث)، ترجمة نصر-فاطمة وعناني-محمد، طبعة

أولى،سطور،القاهرة١٩٩٨ر

- أرنولد،توماس:الخلافة الإسلامية،ترجمة معلا- جميل،دار اليقظة العربية،دمشق،دون تاريخ.

- الأزدي،محمد بن عبدالله:تاريخ فتوح الشام،تحقيق عامر-عبدالمنعم عبدالله،مؤسسة سجل العرب،القاهرة١٩٧٠ر

- الأزرقي،أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد:أخبار مكة،ج١،ط٢،دار الثقافة،مكة المكرمة١٩٦٥ر

- الأصبهاني، العماد الكاتب:الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق صبيح- محمد محمود،سلسلة من الشرق والغرب،القاهرة،دون تاريخ.

- الأصطخري،أبي إسحاق:المسالك والممالك،تحقيق عبدالعال- محمد جابر،وزارة الثقافة والإرشاد القومي،الجمهورية العربية المتحدة١٩٦١ر

- إلياد،ميرسيا:أسطورة العود الأبدي،ترجمة كاسوحة- حسيب،الطبعة الأولى،وزارة الثقافة،دمشق١٩٩٠ر

- إيفانوف،نقولا:الفتح العثماني للأقطارالعربية، ترجمةعطاالله -يوسف، دارالفارابي،بيروت١٩٨٨

- الباش، حسن مصطفى :القدس بين رؤيتين، ط١ ،دار قتيبة، دمشق- بيروت، ١٩٩٧م
- البخاري، أبي عبدالله :صحيح البخاري، ج٢ ،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،القاهرة١٣٨٧هـ.
- برستيد ،جيمس هنري :العصور القديمة،ترجمة قربان- داوود، المطبعة الأميركانية،بيروت١٩٣٠م
- بريكز،مارتن.س :الهندسة المعمارية،جمهرة من المستشرقين بإشراف أرنولد-سر توماس،تراث الإسلام،ط٢ ،تعريب فتح الله-جرجس،دار الطليعة،بيروت١٩٧٢م
- البلاذري،الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر:فتوح البلدان،حققه الطباع-عبدالله أنيس والطباع-عمرأنيس،دار النشر للجامعيين،بيروت١٩٧٥م
- جب، هاملتون : المجتمع الإسلامي والغرب، جزءان، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ.
- جوبيو، جان كلود: على خُطى الصليبين، ترجمة عباس - عبدالهادي، ط١ ،دار الحصاد، دمشق١٩٩٥م
- الجوزي، الشيخ الإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن علي :فضائل

القـدس، حققـه جبـور-د.جبـرائيـل سليمـان، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت ،١٩٧٩

- الحبش، محمـد: سيـرة رسول الله، تقـديم كفتـارو - الشيخ أحمد، دار النور، دمشق ،١٩٩٣

- حتي، فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين،ج١، ترجمة حداد- جورج ورافق- عبدالمنعم، بيروت ،١٩٥٨

- حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، أربعة أجزاء، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ،١٩٦٤

- الحسيني، د.إسحاق موسى: عروبة بيت المقدس، مركز أبحاث منظمة التحرير،بيروت ،١٩٦٩

- الحصري، ساطع: البلاد العربية والدولة العثمانية،ط٣،دار العلم للملايين، بيروت،١٩٦٥

- الحكيم، يوسف: سوريا في العهد العثماني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ،١٩٦٦

- شوفاني، إلياس: الموجز في تاريخ فلسطين السياسي،ط١،مؤسسة الدراسات الفلسطينية،بيروت ،١٩٩٦

- الشيال، جمال الدين: تاريخ مصر الإسلامية، ج٢، دار المعارف، مصر ١٩٦٧م
- شبولر، برتولد: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة عيسى- خالد أسعد، دار حسان، دمشق ١٩٨٢م
- طلس، محمد أسعد: عصر الاتساق: تاريخ بني أمية، دار الأندلس، بيروت ١٩٥٨م
- الطبري، ابو جعفربن جرير: تاريخ الرسل والملوك، عشرة أجزاء، تحقيق إبراهيم-محمد أبو الفضل، دار المعارف، مصر ١٩٦١م
- العارف، عارف باشا: القدس، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ.
- عاشور، سعيد عبدالفتاح: الحركة الصليبية، ثلاثة أجزاء، ط١، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة ١٩٦٣م
- العريني، الباز: الأيوبيون، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٧م
- العك، خالد عبدالرحمن: تاريخ القدس العربي القديم، مؤسسة النوري، دمشق ١٩٨٦م
- غارودي، روجيه: فلسطين أرض الرسالات السماوية، دار طلاس، دمشق ١٩٨٨م

- غاسبار، لوران: تاريخ فلسطين، منشورات وزارة الدفاع السورية، دمشق ١٩٦٩م.

- الغزالي، الإمام أبي حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، المجلد الأول، دارالفكر، بيروت ١٩٩٤م.

- فرنان، جان بيير: بين الأسطورة والسياسة، ترجمة شحيد- جمال، دمشق ١٩٩٩م.

- فريحة، أنيس: أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، بيروت ١٩٥٦م.

- فريد بك المحامي، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط٣، مطبعة التقدم، القاهرة ١٩١٢م.

- فريمو، جاك: فرنسا والإسلام: من نابليون إلى ميتران، ترجمة صالح- هاشم، دون دار نشر، قرطبة ١٩٩١م.

- فيشر، هربرت: أصول التاريخ الأوروبي الحديث، ترجمة راشد- زينب عصمت ومصطفى - عبدالرحيم، دار المعارف القاهرة ١٩٧٠م.

- فيصل، شكري: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٢م.

- كاهن، كلود: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ج١، ترجمة قاسم- بدر الدين، ط٣، دار الحقيقة بيروت ,١٩٨٣

- كاهن، كلود: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة الشيخ- أحمد، ط١، سينا للنشر، القاهرة ,١٩٩٥

- كراتشكوفسكي، اغناطيوس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، جزءان، ترجمة هاشم -صلاح الدين عثمان، القاهرة ١٩٦٣ -,١٩٦٥

- كرد علي، محمد: خطط الشام، ستة أجزاء، ط٢، دار القلم، بيروت ,١٩٧١

- لامب، هارولد: سليمان القانوني، ترجمة نديم -شكري محمود، شركة النبراس، بغداد ,١٩٦١

- لويس، برنار: الحرب السياسية - تراث الإسلام، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة السمهوري- محمد زهير، جزءان سلسلة عالم المعرفة، الكويت ,١٩٧٨

- مارسيه، جورج: الفن الإسلامي، ترجمة بهنسي - عفيف، وزارة الثقافة، دمشق,١٩٦٨

- والمالكي، أبي الحسن محمد بن أحمد الربيعي: فضائل الشام

ودمشق، حقق المنجد -صلاح، المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٠,

- مبارك يواكيم: القدس القضية، ترجمة خوري- مها فرح، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت حزيران ١٩٩٦,

- المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، اختيار وهب -قاسم، السفر الثاني، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨,

- مصطفى، أحمد عبدالرحيم: في أصول التاريخ العثماني، ط٢، القاهرة ١٩٩٣,

- معلوف، أمين: الحروب الصليبية، ط٢، ترجمة دمشقية - عفيف، الفارابي، بيروت ١٩٩٣,

- المقدسي، أبو عبدالله البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٤، ليدن،ليون ١٩٦٧

- المقدسي، شهاب الدين أبي محمود بن تميم: مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق الخطيبي- أحمد، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ.

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: السلوك في معرفة الملوك،

ج١، حققه زيادة -مصطفى، القاهرة ١٩٣٤-١٩٥٨م

- المنذري، الإمام: الترغيب والترهيب، ج٤، حققه عمارة - مصطفى محمد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر١٩٦٩م

- النسائي: سنن النسائي، شرح السيوطي- الحافظ جلال الدين، ج٢، القاهرة، المطبعة المصرية بالأزهر، دون تاريخ.

- الواسطي، محمد بن أحمد: فضائل بيت القدس، دون دار نشر، القدس ١٩٧٩م

- الواقدي، أبو عبدالله عمر: فتوح الشام، جزءان، دار الجليل، بيروت دون تاريخ.

- يوسف، جوزيف نسيم: العرب والروم في الحروب الصليبية، ط٢، دار المعرفة الجامعية،القاهرة ، دون تاريخ.

الفهرس

كتب جماعية وموسوعات وتقارير

- (ندوة)، مسلمون ومسيحيون معاً من أجل القدس، مجلس كنائس الشرق، بيروت ,١٩٩٩

- (ندوة) القدس تاريخياً وفكرياً، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ربيع الثاني ١٤٠١هـ.

- فان برشيم – مارغريت وأوري– سولانج: القدس الإسلامية، تعريب وهبة – د. عطا الله وشعث – د.شوقي وحسن – د. سامي، دار الشام، دمشق ,١٩٩٤

- حتي – فيليب وجرجي – إدوارد وحيدر – جبرائيل: تاريخ العرب المطوي، الجزءان، دار الكشاف، بيروت ,١٩٥٨

- تقديم (أبشرلي – محمد والتميمي– محمد داوود، أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول ,١٩٨٢

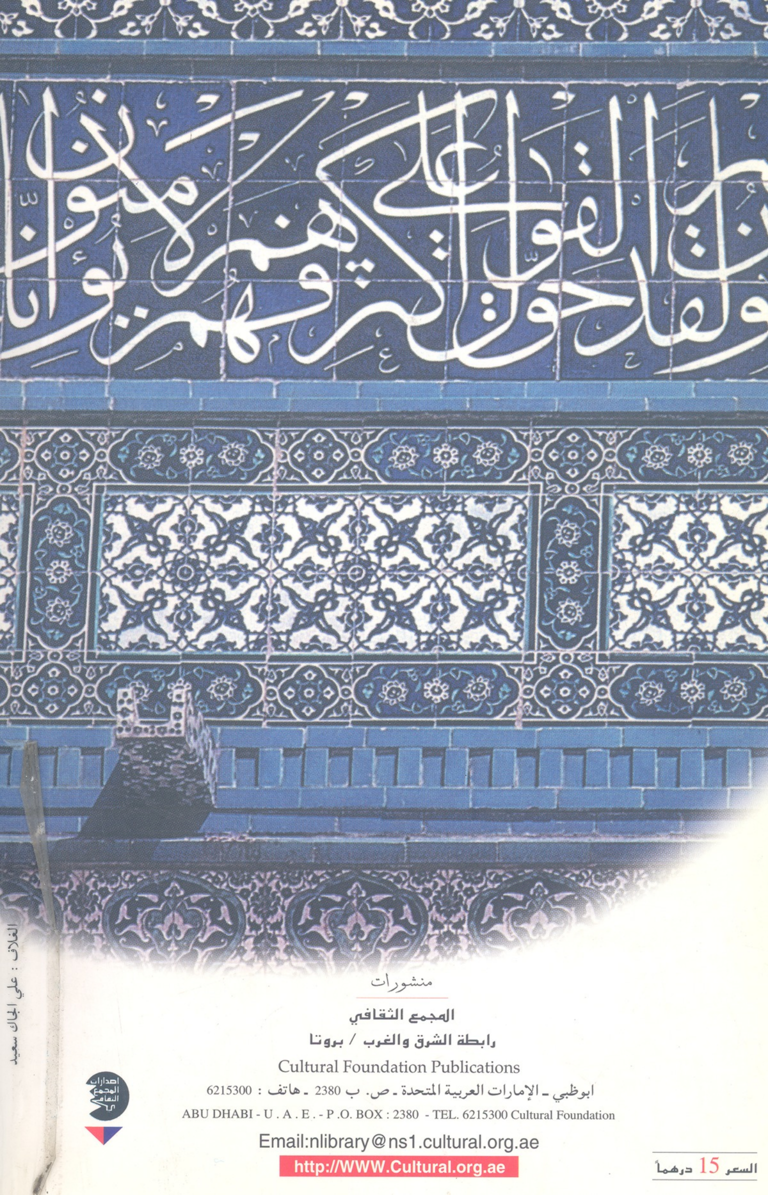
- الموسوعة الفلسطينية، الجزء الثاني (المجلد الثاني)، ط١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ,١٩٩٠

- تقرير اللجنة الدولية المقدم إلى عصبة الأمم عام ١٩٣٠ (الحق العربي في حائط المبكى في القدس)، مؤسسة الدراسات

الفلسطينية، بيروت ,١٩٦٩

المجلات والدوريات

- مجلة شؤون عربية - بيروت، مجلة المستقبل العربي- بيروت؛
مجلة دراسات تاريخية-دمشق


الغلاف : علي الجاك سعيد
منشورات
المجمع الثقافي
رابطة الشرق والغرب / بروتا
Cultural Foundation Publications
ابوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ ص. ب 2380 ـ هاتف : 6215300
ABU DHABI - U . A . E . - P .O. BOX : 2380 - TEL. 6215300 Cultural Foundation
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http://WWW.Cultural.org.ae
اصدارات المجمع الثقافي
السعر 15 درهماً